

روایات
الملاح

الکتاب



مایکل کرایتون



الطبعة الثانية



BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

روايات الهكس

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية (إهداء)

رقم التسجيل ٧٧٠٤٧

مجلة شهرية لنشر القصص العالمية

الطبعة الثانية
(١٩٩٩)

آملۃ الموتی

813.54

لا

ا

عن مخطوطة
ابن فضلان

بقلم

مایکل کرایتون

ترجمة

تیسیر کامل

•

دار الہلال

« لا تمدح النهار حتى ياتي المساء ،
ولا المرأة حتى تحرق ، ولا السيف حتى
يجرب ، ولا الصبية حتى تتزوج ، ولا الجليد
حتى تعبره ، ولا تمدح شرابا حتى تشرب
منه » .

مثل شعبي من امثال الفايكنج
« وجد الشر منذ اقدم العصور »
مثل عربي

تقديم

تقديم روايات الهلال للقارىء العربى رواية « اكلة الموتى Eaters of » ، التى حققت فى اوربوا والولايات المتحدة اعلى ارقام التوزيع ، ويصدق على هذه الرواية القول : « هذه بضاعتنا ردت اليينا .. » ، فهى اعادة صياغة مخطوط الرحالة العربى ابن فضلان بأسلوب روائى عصري ، يحافظ على الوقائع والاحداث التى سجلها فى رسالته ..

وكان الاولى بأولئك الذين لا يملون الحديث عن ذخائر التراث العربى ، أن يقوموا بجهد مشابه لما قام به الكاتب الامريكى مايكل كريشون Michal Critchon ويقدمون التراث فى ثوب جديد وصياغة معاصرة ..

فما زالت كتابة الرحالة العرب تبحث عن من يقدمها ، وهى تكاد تكون المراجع الوحيدة التى تنقل القرون الوسطى ، وما زالت مؤلفات الرحالة العرب عيون العالم المصاصر على هذه المرحلة التاريخية ، عندما كان العلم مزدهرا فى بلادنا ، وهذا ما دفع امام المستشرقين الروس كراتشكوفسكى الى القول : « انه لولا العرب لما قام علم الجغرافيا » ..

وتصف رسالة ابن فضلان بلاد الروس والبلغار والأتراك واصقاع الشمال النائية ، وهى المصدر الرئيسى لتاريخ الشمال المسجل فى وقت لم تكن تعرف فيه هذه الدول القراءة والكتابة ..

وكان ابن فضلان أحد افراد البعثة التى أوفدها الخليفة العباسى المقتدر الى بلاد الصقالبة « الروس » لمساعدتهم فى مواجهة تحرشات دولة الخزر اليهودية ، فيذكر ابن فضلان : « أن ملك الصقالبة المش ابن بلطوار طلب بعثة لكى تفقهه فى الدين وتعرفه شرائع الاسلام ، وتبنى له مسجدا وتقيم له حصنا ضد ملوك الخزر الذين يعتدون على قومه ويفرضون عليهم الضرائب ، وكان ملك الخزر يخطب من يشاء من بنات ملك الصقالبة ويتزوجها غصبا ، والخزرى يهودى وابنة الصقلبى مسلمة ! » ..

وقد رحل الوفد من بغداد يوم الخميس ١١ صفر عام ١٣٠٩ هـ
(٢١ يونيو ١٩٢١ م) ، وعبر نهر جيحون ووصل الى بخارى ثم
توغل حتى وصل الى نهر الفولجا ، وهناك اختطفه جماعة من
الفايكنج واخذوه الى الشمال الاسكندنافية ، وعند موذته سجل وصف
الرحلة بكل أحداثها في رسالته الى الخليفة ..

وبقيت أقسام من الرحلة مجهولة ، ولكنها طبعت في الغرب ،
وترجمت ، ولم تصل الى خزائننا العربية ..

حتى نشر وحقق مخطوط ابن فضلان الدكتور سامي الدهان
في دمشق عام ١٩٥٩ ، وحققها في ذات الوقت الدكتور بير فراوس
دولوس ، الأستاذ في جامعة أوصلو بالنرويج ، وأخيرا بعث فيها
الحياة الكاتب الأمريكي كريشون عندما صاغها بأسلوب روائي شيق .
وجعل النص على كل لسان ..

ويقول كريشون : « يعد مخطوط ابن فضلان أقدم تسجيل
معروف كتبه شاهد ميان من حياة الشعب الاسكندنافية ، وهو بذلك
وثيقة فريدة من نوعها ، تصف بدقة متناهية أحداثا وقعت منذ
ما يزيد عن ألف عام » ..

وقدم المؤلف عملا جذابا بعد ان امسك بالخط الروائي للرحلة
وقدم من خلالها العادات والتقاليد التي كان يعيشها مجتمع الشمال .

مقدمة

بقلم : مصطفى نبيل

تقدم مخطوطة ابن فضلان أقدم وصف معروف لشاهد عيان حول حياة النايكنج ومجتمعهم . وهذه المخطوطة وثيقة نادرة ، تصف بتفصيل حى حوادث وقعت منذ أكثر من ألف عام . ومن الطبيعي ألا تكون قد بقيت كاملة غير منقوصة عبر هذه الحقبة الطويلة جدا من الزمن . فلهذه المخطوطة تاريخها الخاص ، وهو تاريخ ليس أقل شأنا وأثارة من النص ذاته .

اصل ومنشأ المخطوطة

فى يونية من عام ٩٢١ ميلادية أرسل خليفة بغداد أحد افراد حاشيته ، وهو احمد ابن فضلان سفيرا الى ملك البلغار . وقد امضى ابن فضلان ثلاثة أعوام فى رحلته دون أن ينجز مهمته ، لانه وهو فى طريقه الى بلاد البلغار التقى بمجموعة من رجال الشمال وكان له بينهم مغامرات عديدة .

وعندما عاد أخيرا الى بغداد ، سجل ابن فضلان تجاربه ومغامراته على شكل تقرير رسمى قدمه الى البلاط . الا ان تلك المخطوطة الاصلية اختفت منذ زمن طويل ، ولكى نعيد تجميعها وبناءها من جديد كان علينا أن نعتد على مقاطع متفرقة جمعت فى مصادر لاحقة .

وأفضل هذه المصادر المعروفة هو معجم جغرافى عربى كتبه ياقوت ابن عبد الله الحموى فى فترة ما من القرن الثالث عشر . يضمن ياقوت معجمه عددا كبيرا من المقاطع المروية من تقرير ابن فضلان ، الذى كان قد مضى عليه آنذاك قرابة الثلاثمائة عام . فلا بد من الافتراض أن ياقوت كان يعتمد على نسخة من الاصل . الا أن هذه الفقرات القليلة نسبيا على أى حال قد أعيدت ترجمتها مرات عديدة من قبل علماء كثيرين حديثين .

كما اكتشف مقطع آخر في روسيا في عام ١٨١٧ ونشر باللغة الألمانية من قبل أكاديمية القديس بطرسبرج في عام ١٨٢٣ . ويتضمن هذا المقطع مقاطع معينة نشرت سابقا من قبل ج . ل . راسميوسن في عام ١٨١٤ . وقد اعتمد راسميوسن على مخطوطة وجدها في كوبنهاجن ، ثم اختفت منذ ذلك الحين ، وهى مخطوطة يشك كثيرا في أصلها ، كما كان هناك ترجمات سويدية وفرنسية وانجليزية ، أيضا في تلك الفترة ، إلا أنها جميعا غير صحيحة الى حد الاسفاف الظاهر ، ولا تقدم أى معلومات جديدة .

وفي عام ١٨٧٨ تم اكتشاف مخطوطتين جديدتين في المجموعة الاثرية العائدة للسير جون امرسون . والسير جون ، الذى كان سفير بريطانيا في القسطنطينية ، كان واحدا من أولئك الجامعين الشرهين الذين كانت جماعتهم للاقتناء تتجاوز بكثير اهتمامهم بالاثر المكتسب . وقد اكتشفت المخطوطتان بعد وفاته ، ولا يعرف أحد متى حصل عليهما .

أحدى هاتين المخطوطتين هى مخطوطة جغرافية بالعربية كتبها أحمد الطوسى ، يرجع تاريخها الى عام ١٠٤٧ ميلادية . وهذا ما يجعل مخطوطة الطوسى اقرب زمنا من كل المخطوطات الاخرى لمخطوطة ابن فضلان الاصلية ، التى يفترض أنها كتبت حوالى الفترة بين عامى ٩٢٤ - ٩٢٦ ميلادية . إلا أن العلماء يعتبرون مخطوطة الطوسى أقل المصادر أهلا للثقة : فالنص ملئ بالاطعاء الفاضحة وانعدام الاتساق الداخلى ، ورغم أنها تقتبس بشكل مطول من « ابن الفقيه » الذى زار بلاد الشمال ، فإن مراجع كثيرة تتردد في قبول هذه المخطوطة .

أما المخطوطة الثانية فهى مخطوطة امين الرازى ، المؤرخة تقريبا حوالى الفترة ما بين عامى ١٥٥٨ - ١٥٩٥ ميلادية . وهى مكتوبة باللاتينية ، وحسب قول كاتبها فقد ترجمت مباشرة من النص العربى لابن فضلان . وتتضمن مخطوطة الرازى بعض المعلومات عن اترك الاوغوز ، كما تتضمن فقرات عديدة تتعلق بالمعارك ضد وحوش الضباب ليست موجودة في المصادر الاخرى .

وفي عام ١٩٣٤ اكتشف مخطوط اخير مكتوب بلاتينية المصنوع

الوسطى وجد في دير كسيموس قرب ثيسالونيكيا شمالي اليونان .
وتحوى مخطوطة كسيموس بعض المعلومات والتعليقات الاضافية
عن علاقات ابن فضلان بالخليفة وعن مفامراته مع مخلوقات بلاد
الشمال . الا ان كاتب مخطوطة كسيموس وتاريخها كليهما غير
مؤكدين .

ان تجميع هذه الترجمات العديدة ، والتي ظهرت عبر فترة تزيد
عن الالف عام ، ونشرت بالعربية واللاتينية والالمانية والفرنسية
والدنمركية والسويدية والانجليزية ، لهو مهمة ذات ابعاد هائلة .
ولا يمكن ان يقدم على مثل هذه المهمة الا واسع المعرفة . فقد جمع
بيرفراوس دولوس استاذ الادب المقارن في جامعة اوسلو في
النرويج كل المصادر المعروفة وبدأ بتنفيذ مهمة الترجمة الهائلة ،
تلك المهمة التي شغلته حتى وفاته عام ١٩٥٧ . وقد نشرت أجزاء
من ترجماته في مجلة وقائع المتحف الوطني في اوسلو في عامي ١٩٥٩
- ١٩٦٠ ، لكنها لم تثر الكثير من الاهتمام العلمي ، او من اهتمام
العلماء ، ربما لان تلك المجلة محدودة الانتشار .

لقد كانت ترجمة فراوس دولوس ترجمة حرفية في المقدمة التي
كتبها فراوس دولوس شخصيا لترجماته اشار الى انه « من طبيعة
اللغات ان لا تكون الترجمات الجميلة (دائما) صحيحة ، وان الترجمة
الصحيحة تكتشف جمالها الخاص بها دونما مساعدة » .

في أثناء اعدادى لهذه النسخة الكاملة والمنقطعة لترجمة فراوس
- دولوس ، قمت باجراء بعض التغييرات او التنقيحات . فقد
حذفت بعض المقاطع المكررة ، وقد بينت هذا في سياق النص .
كما انني غيرت بنية الفقرات ، بادئا كلام كل متحدث اقتبس منه
مباشرة بفقرة جديدة ، متبعا بذلك الاعراف الحديثة في الكتابة .
كما حذفت اشارات اللفظ عن الاسماء العربية واخيرا . غيرت احيانا
النص الاصلى غالبا بتغيير مواقع الجمل الثانوية او الوصفية بحيث
يصبح المعنى اكثر قربا للفهم والادراك .

الفايكنج

هناك تباين واضح بين الصورة التي يرسمها ابن فضلان للفايكنج
وبين النظرة الاوروبية التقليدية لهؤلاء الناس . فاولى اوصاف

الفايكنج الأوروبية سجلها رجال الدين . اذ كانوا الشهود الوحيدين الذين كانوا يستطيعون الكتابة في تلك الايام ، وقد نظروا الى رجال الشمال الوثنيين نظـرة رعب خاص . وهذا مقطع مفرط الغلو التقليدي ، اقتبسـه « د . م . ولسون » عن كاتب ايرلندي من كتاب القرن الثاني عشر .

« وبكلمة موجزة ، رغم انه كان هناك مائة رأس معمم بحديد الفولاذ فوق كل عنق ، ومائة لسان لاسع ، حاضر البديهة ، بارد ، لا يصدا ، صفيق وقح في كل رأس ، ومائة صوت ثرثار عال لا يتوقف في كل لسان فلم تكن تستطيع ان تعيد او تروى ، او تعدد او تخبر . بما عاناه الايرلنديون جميعا ، رجالا ونساء ، عامة ورجال دين ، شيبا وشبابا ، نبلاء وأشقياء ، من الادى ومن الايداء والاضطهاد . وفي كل بيت ، من قبل هؤلاء الناس الاشداء ، الهانجين الغاضبين ، والوثنيين تماما » .

يميز العلماء المعاصرون ويعترفون بأن مثل هذه الروايات التي تجعد الدم في العروق عن غزوات الفايكنج ؟ مبالغ فيها الى حد كبير . ومع ذلك فان الكتاب الاوربيين ما زالوا يميلون الى استبعاد الاسكندنافيين واسقاطهم باعتبارهم برابرة دمويين غير ذوي اهمية بالنسبة الى التيار الرئيسى للثقافة الغربية والافكار الغربية ، وغالبا ما كان يحصل هذا على حساب منطق ما . فد يجد تالـبوت رايسى يكتب مثلا :

« ربما كان دور الفايكنج ما بين القرنين الثامن والحادى عشر أكثر تأثيرا بالفعل من أى مجموعة بشرية مفردة فى أوروبا الغربية » .

وهكذا كان الفايكنج رحالة عظاما ، كما انجزوا مغامرات بارزة فى عالم الملاحة وكانت مدنها مراكز عظيمة للتجارة ، وكان فهم أصيلا مبدعا ومؤثرا . وقد تباهاوا بأدبهم الرفيع وبثقافتهم المتطورة .. هل كانت حقاً حضارة ؟ . اعتقد انه لا بد من الاعتراف بانها لم تكن كذلك .

فلمسة الانسانية ، والتي هى علامة الحضارة كانت غائبة تماما .. وكلما زاد انتباهنا حين قراءة هذه الأفكار ازداد وضوح عدم

منطقيتها . وفى الواقع لابد وأن يتساءل واحد منا : لماذا يشعر العلماء الاوربيون عالى الثقافة الإذكياء بأنهم أحرار فى اسقاط الفايكنج من حسابهم وبما لا يتجاوز الإيماء العابرة ؟ ولماذا الانشغال بالقضية اللغوية حول ما اذا كان للفايكنج حضارة أم لا ؟ فالوضع واضح سهل الفهم بمجرد أن يعترف الواحد منا ويميز الانحياز الاوربى طويل الامد والتابع من الآراء التقليدية عن فترات ما قبل التاريخ الاوربى !

فكل طفل غربى يذهب الى المدرسة يلقي باسهاب ان الشرق الادنى هو مهد الحضارة ، وأن أولى الحضارات قد برزت ونهضت فى مصر وفيما بين النهرين ، يغذيها نهر النيل واحواض نهري دجلة والفرات . ومن هنا انتشرت الحضارة الى كريت واليونان ، ومن ثم الى روما واخيرا الى برابرة شمالى اوربا .

اما ما الذى كان هؤلاء البرابرة يفعلونه بينما كانوا ينتظرون وصول الحضارة اليهم فغير معروف ، ولم يكن هذا السؤال يثار غالبا . فالتأكيد كان على عملية امتصاص هذه الحضارات وتمثلها وهى العملية التى لخصها الكاتب « كوردن تشايلدن » بأنها طمس البربرية الاوربية بواسطة الحضارة الشرقية . ولقد بنى العلماء المعاصرون هذا الراى كما فعل العلماء الرومان واليونان قبلهم . يقول جفرى بيبى : ينظر الى تاريخ اوربا الشمالية والشرقية وقيم من الغرب والجنوب مع كل المفاهيم المسبقة لرجال اعتبروا انفسهم متحضرين ينظرون من عل الى رجال اعتبروهم برابرة .

من وجهة النظر هذه يكون الاسكندنافيون فعلا وبكل وضوح أبعد الناس عن منبع الحضارة ومنطقيا آخر من يكتسبها ، وبناء على ذلك ربما كانوا يعتبرون آخر البرابرة ، أو شوكة مزعجة فى جاضرة تلك المناطق الاوربية الاخرى ، التى تحاول أن تستوعب حضارة الشرق وحكمته .

وتكمن المشكلة فى أن هذا الراى عن فترة ما قبل التاريخ الاوربى قد تم اسقاطه خلال الخمسة عشر سنة الماضية اذ أن تطور تقنيات تحديد التاريخ الصحيح بواسطة الكربون قد أدى الى فوضى كبيرة فى الترتيب الزمنى الماضى ، ذلك الترتيب الذى كان يدعم الآراء القديمة القائمة على أساس الانتشار « انتشار الضوء » . ويبدو

الان انه مما لا شك فيه ان الاوربيين كانوا يبنون قبورا هائلة (ميغاليتية) قبل ان يبنى المصريون اهراماتهم ، و « استون هينج » Stone Henge أقدم من حضارة اليونان (الميسينية) ، كما ان دراسة المعادن واستعمالها فى اوربا ربما سبق تطور مهارات تصنيع المعادن فى اليونان وطراودة .

لم يميز بعد معنى هذه الاكتشافات ولكنه قطعاً من المستحيل الان ان نعتبر أوربى ما قبل التاريخ متوحشين ينتظرون بضمول بركات الحضارة الشرقية . بل على العكس من ذلك فانه يبدو ان الاوربيين قد نموا مهارات تنظيمية من المكانة بما يكفى لتصنيع احجار هائلة الحجم ، كما يبدو انه كان لهم معرفة فلكية كافية لبناء « استون هينج » الذى هو اول مرصد فى العالم .

وهكذا فان الانحياز الاوربى نحو الشرق المتحضر لابد وان تثار حوله الاسئلة . وفى الحقيقة فان مفهوم البربرية الاوربية يجد ذاته يحتاج الى اعادة نظر فيه . فاذا اخذنا كل هذا بعين الاعتبار نجد ان هذه البقايا البربرية ، الى الفايكنج ، يكتسبون أهمية جديدة ، وعندها نستطيع ان نعيد دراسة ما هو معروف عن اسكندنافيين القرن العاشر .

اولا يجب ان نميز او نعترف بان الفايكنج لم يكونوا ابدا مجموعة موحدة بشكل واضح ، فما رآه الاوربيون لم يكن سوى مجموعات متناثرة ومنغلة من جوالى البحار اتوا من منطقة جغرافية واسعة - فاسكندنافيا اكبر من البرتغال واسبانيا وفرنسا مجتمعة - وكانوا يبحرون من دويلاتهم الاقطاعية المنغلقة بغرض التجارة او القرصنة او كليهما ، فقلما كان الفايكنج يميزوا بين هذه وتلك . لكن ذلك ميل مشترك بين كثير من جوالى البحار بدءا من اليونانيين الى الاليزابثيين .

وفى الواقع فانه بالنسبة لشعب كان يفتقر الى الحضارة ولم يكن يشعر بالحاجة الى ان ينظر الى ما وراء المعركة القسادية فان الفايكنج يظهرون سلوكا هادفا ومنضبطا الى أبعد حدود الانضباط ، وكبرهان على تجارتهم واسعة الانتشار فان مقاطع اللغة العربية تبدأ بالظهور فى اسكندنافيا بدءا من عام ٦٩٢ . وفى خلال الـ ٤٠٠ عام التالية امتدت رقعة انتشار القراصنة التجار من الفايكنج حتى وصلت

الى الارض الجديدة غربا (نيو فاوند لاند) وامتدت جنوبا حتى وصلت الى صقلية واليونان حيث ترك الفايكنج نحو منهم على أسود (دلوس) ، وشرقا حتى جبال الاورال فى روسيا ، حيث تم اتصال تجارهم ، بالقوافل القادمة من طريق الحرير الى الصين . لم يكن الفايكنج بناء أمبراطوريات ، ومن المألوف القول ان تأثيرهم غير هذه المنطقة الواسعة لم يكن دائما او لم يترك اثرا دائما ، ولكنه دام بما فيه الكفاية ليورث أسماء أماكن لكثير من المناطق فى انجلترا ، بينما أعطوا لروسيا اسم الأمة نفسها . وذلك من اسم القبيلة الشمالية (روس) ، أما بالنسبة للأثر الأكثر وضوحا لفنهم الوثنى ، ولطاعتهم التى لا تعرف الملل ولنظام القيم عندهم فان مخطوطة ابن فضلان تبين لنا كم من القيم الشمالية التقليدية قد تم الاحتفاظ بها حتى يومنا هذا . وفى الحقيقة فان هناك شيئا مألوفا الى حد كبير وشبيها بالرؤية المعاصرة لطريقة حياة الفايكنج كما ان فيها شيئا يحجبها الى نفس القارىء بعمق .

لمحة عن المؤلف

لا بد من كلمة عن ابن فضلان ، ذلك الرجل الذى يتحدث الينا بصوت متميز واضح ، رغم مضي أكثر من ألف عام ، ورغم مصافي الناقلين والمترجمين المنتمين الى عدد كبير من التقاليد الثقافية واللغوية .

لا نكاد نعرف عنه شخصا أى شيء . من الواضح انه كان متعلما مثقفا ، ومن تجاربه يبدو انه لم يكن متقدما فى السن . وهو يكتب بشكل لا لبس فيه مبينا أنه من معارف الخليفة الذى لم يكن يحبه كثيرا . (لم يكن وحيدا فى هذا المجال ، لان هذا الخليفة - المقنتر - قد أطيح به مرتين ثم قتله واحد من ضباطه) .

أما عن مجتمعه فاننا نعرف أكثر من ذلك . فقد كانت بغداد ، مدينة السلام ، فى القرن العاشر الميلادى ، أكثر مدن الدنيا حضارة . وكان يعيش أكثر من مليون مواطن ضمن أسوارها الدائرة المشهورة . وكانت بغداد مركز الاستقطاب والانارة الفكرى والسياسى ، يحيط بكل ذلك جو من الرشاقة والاناقة والبهاء

الخارقة للعادة . فكانت هناك حدائق معطرة ، وغابات ظليلة باردة ، كما كانت هناك الثروات المقدسة لامبراطورية مترامية الاطراف .

كان عرب بغداد مسلمين شديدي الايمان وكانوا على صلة بالشعوب تنظر وتتصرف وتفكر بطرق تختلف عن طرقهم . وكان العرب في الواقع أقل شعوب ذلك الزمان اقليمية ، وهذا ما جعلهم مراقبين متفوقين للثقافات الاجنبية .

وواضح ان ابن فضلان ذكى الملاحظة فهو مهتم بكلا الحياة اليومية ومعتقدات الشعب الذى يلتقى به . وكثير ما شاهده قد صدمه على انه سوقي ، بذيء وبربرى ، ولكنه لا يهدر وقته فى اظهار استمزازة ، فما ان يعبر عن اعتراضه حتى يعود الى ملاحظاته التى لا تغفل شيئا . وهو يدون ما يراه بحد من العجرفة تشير الاعجاب .

قد يبدو اسلوبه فى تدوين مشاهداته ذاتيا بالنسبة للمقاييس الغربية ، فهو لا يروى لنا قصة كما تمودنا ان نسمع القصص . ونحن ميالون لان ننسى ان حسنا الدرامى يرجع فى اصوله الى تقاليد شفوية - وهو عرض حى مباشر يقدمه شاعر امام جمهور غالبا ما كان قلنا نافذ الصبر ، أو ربما خاملا يغلبه النعاس بعد وجبة دسمة . فاقدم حكاياتنا ، كالاياذة . وملحمة بيولف واغنية رولاند ، كانت جميعها مهياة لتغنى من بين مغنيين كانت مهمتهم الاساسية والتزامهم الاول التسلية والترفيه .

لكن ابن فضلان كان كاتباً ، ولم يكن هدفه الرئيسى التسلية ، كما لم يكن تمجيد راع يصفى اليه أو تأكيد اساطير المجتمع الذى يعيش فيه . بل على العكس من ذلك ، كان ابن فضلان سفيرا يقدم تقريرا ، فلهجته هى لهجة محاسب ضرائب ، لا لهجة شاعر ، ولهجة عالم مهتم بالاصول الانسانية ، لا لهجة كاتب مسرحى . وهو فى الواقع يستخف غالبا بالكثير العناصر اثارة فى روايته بدلا من ان يدعها تتداخل بسرده الواضح المسطح .

ويبدو ان هذه المزية ، مزية المراقبة البعيدة عن الذاتية ، تصبح احيانا مزعجة الى حد نعجز معه فى التعرف على أى نوع من الملاحظين الخارقين للعادة كان ابن فضلان . فلمئات السنين تلت ابن فضلان كان العرف بين الرحالة ان يكتبوا احداثا خيالية عن

اعاجيب الاعاجم - كالحیوانات الناطقة والرجال المجنحين الذين يطيرون ، ولقاءات بافراس البحر واحادی القرن . وحتى مائتي عام مضت ، كان الاوربيون ، والذين كانوا في غير هذه الاحوال اناسا واعين ، يملأون صحفهم ومجلاتهم بكلام هراء عن القردة الافريقية التي كانت تشن الحرب على المزارعين وغير ذلك .

اما ابن فضلان فانه لا يترك العنان لخياله . فكل كلمة ترد صدی صدق ، وحتى حين يدون ما سمع به سمعا فانه حريص على أن يبين ذلك . وهو حريص بنفس القوة أن يحدد متى يكون شاهد عيان : ولهذا يستعمل جملة « رايت بعيني الاثنين .. رايت بام عيني » مرارا وتكرارا .

وفي النهاية ، فان خاصية الصدق المطلق هي التي تجعل روايته مرعبة الى هذا الحد . اما فيما يتعلق بلقاؤه بوحوش الضباب ، او « باكلة الموتى » كما يسميهم ، فان قصته مروية بنفس تلك العناية بالتفاصيل ، ونفس ذلك الشك الواعي الذي يميز كل اجزاء المخطوطة الاخرى .

وعلى اية حال ، فالقارئ قادر على ان يصدر حكمه بنفسه .

والرجلان سمنقاها بالجبل حتى ماتت ثم وافي اد
نه واسعدوا بالنار ثم مشى القهقري قماه الى السينة و
من حنينة امثلة في هذه واحدة ويد الهجرين على باب امته وهو عزرا
ن احرق الخشب المعيا الذي تحت السينة ثم وافي الناس بالخشب والنظف ومع
واستغنية نالهبر اسما فيلقبها ذلك الخشب ويأخذ النار الى الخطب
نلت الجبال الداء وجمه ما فيها
عظيم لشدة النار

تمت فخرج من المخطوطة الب

الفصل الاول

يوم أن غادرنا مدينة السلام

الحمد لله الرحمن الرحيم ، سيد العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم وحفظه في سلام دائم مقيم وصلى عليه الى يوم الدين .

وبعد فهذا كتاب احمد بن فضلان بن العباس بن الرشيد بن الحمد ، وهو وكيل لـمحمد بن سليمان سفير المقتدر الى ملك الصقالبة ، يروى فيه ما كان قد رآه في بلاد الاتراك وبلاد الهوزار وبلاد الصقالبة وبلاد الباسكر وبلاد الروس وبلاد أهل الشمال ، وما عرفه من تاريخ ملوكهم والطرق التي يتعرفون حسبها في الكثير من شئون حياتهم .

وصلت رسالة المش بن بلطوار ملك الصقالبة ، الى أمير المؤمنين المقتدر . وقد طلب فيها أن يرسل من يستطيع أن يتقنه في أمور الدين وأن يفقهه في الدين ويعرفه شعائر الاسلام ، وأن يبنى له مسجدا وأن يشيّد له منبرا يحمل رسالة الاسلام حتى يعتنقها شعبه في كل أرجاء المملكة ، وليقدم له النصيحة أيضا في مجال بناء الحصون والتحصينات ضد ملوك الخزر من اليهود الذين يعتدون على قومه . وقد رجا الخليفة أن يقدم له هذه الاشياء ، وكان الوسيط في هذه القضية هو دادر الحرامى .

لم يكن أمير المؤمنين المقتدر ، خليفة قويا عادلا ، لكنه كان أسير ملذاته وخطب ضباطه المتملقة الذين كانوا يسخرون منه ويطلقون النكات عليه خلف ظهره . أما أنا فلم اكن واحدا من هذه الجماعة ، كما لم اكن من المقربين الى الخليفة بصورة خاصة وذلك للسبب الذى سأذكره :

كان يعيش في مدينة السلام تاجر متقدم السن اسمه ابن قادن وكان رغم غناه في كل شيء يفتقر الى قلب كريم والى حب الانسان .

كان يخزن ذهبه وايضا وبنفس الطريقة زوجته الشابة ، التى لم يكن قد رآها أحد ، ولكن الكل تحدث عن جمالها الذى كان يفوق كل وصف . وفى أحد الايام أرسلنى الخليفة لاسلم رسالة لابن قارن ، فحضرت الى بيت التاجر واستاذنت بالدخول اليه ومعى رسالتى مختومة . وحتى هذا اليوم لا اعرف شيئا عن محتوى هذه الرسالة ، ولكن ليس هذا هو المهم .

كان التاجر خارج البيت يقضى بعض الاعمال . اوضحت للحاجب اننى يجب على ان أنتظر عودته لان الخليفة قد امرنى بأن اسلم الرسالة باليد . وهكذا سمح لى البواب بالدخول الى البيت ، وهو الامر الذى استغرق بعض الوقت ، فباب البيت محصن بعدد كبير من الاقفال والقضبان والاعمدة كما هو مالوف فى منازل البخلاء . وبعد طول انتظار ادخلت البيت وانتظرت طيلة النهار ، حيث اشتد على الجوع والعطش ، ولكن لم يقدم لى اية مرطبات من قبل خدم التاجر العفن .

وفى خر الظهرة ، وبينما كل شيء حولى فى البيت ساكن والخدم نيام ، غالبى النعاس انا ايضا . وفجأة رايت أمامى شبعا ملفعا بالبياض ، امرأة شابة جميلة عرفت فيها الزوجة التى لم يرها رجل أبدا . لم تنطق ببنت شفة الا أنها قادتنى بإيماءة منها الى غرفة أخرى وهناك اقلت على الباب . واستمتعت بها حالا وبلا انتظار ، وهى فى ذلك المجال لم تكن بحاجة الى اى تشجيع ، فقد كان زوجها عجوزا ، ولا شك مهملا ايضا . وهكذا مضى الظهر وبعد الظهر بسرعة كبيرة حتى سمعنا رب البيت يعود اليه . وفى الحال نهضت الزوجة وغادرت الغرفة ، ولم تكن قد نطقت بكلمة واحدة فى حضورى ، بينما تركت انا لأرتب ثيابى بسرعة وقلق .

كان يمكن ان أصاب بالهلع والخوف والجزع بالتأكيد لولا تلك الاقفال الكثيرة التى اعاقت دخول البخيل الى داره . ووجدنى التاجر ابن قارن فى الغرفة المجاورة ورمانى بنظرة اشتباه وريبة متسائلا لم لست فى باحة الدار حيث ينتظر الرسل عادة . اجبته بأننى كنت جائعا واننى قد اغمى على فقمت ابحث عن الطعام والظل . كانت تلك كذبة مفضوحة ولم يصدقها أبدا ، فاشتكى الى الخليفة الذى كما علمت سر الامر فى سريره ولكنه اضطر لان

يلبس وجهه العبوس أمام الناس . وهكذا فحينما طلب حاكم الصقالبة بعثة من الخليفة ، أصر هذا الحاقد ابن قارن على أن أرسل أنا إلى هذه المهمة ، وهكذا كان .

كان من ضمن جماعتنا سفير ملك الصقالبة الذي كان يدعى عبد الله بن بسطو الهزاري ، والذي كان رجلا متعبا صاحب ثمرات . وكان هناك أيضا تاقن التركي وبارس الصقلي . كان كلاهما مرشدا في رحلتنا ، وفي الجماعة كنت أنا واحد منها أيضا . وكنا نحمل الهدايا للحاكم ولزوجته وأطفاله ولقاداته . كما كنا نحمل بعض العقاقير التي وضعت تحت رعاية سوق الراسي . فكانت مجموعتنا إذن مشكلة على هذا النحو .

وهكذا انطلقنا يوم الخميس الحادي عشر من صفر سنة ٣٠٩ (٢١ يونية ٩٢١) انطلقنا من مدينة السلام (بغداد) . توقفنا يوما واحدا في نهروان ، ومن هناك انطلقنا بسرعة حتى وصلنا إلىسكره حيث توقفنا لمدة ثلاثة أيام . ثم تحركنا قدما ودون أي التفاتات حتى وصلنا حلوان . وهناك بقينا يومين انطلقنا بعدها إلى قرمسين حيث مكثنا يومين أيضا . ثم انطلقنا في رحلتنا حتى وصلنا همدان حيث بقينا ثلاثة أيام . ومن هناك انطلقنا إلى صوى حيث بقينا يومين ومنها إلى رى حيث بقينا أحد عشر يوما بانتظار أحمد ابن علي شقيق الراسي لأنه كان في « حوار الرى » . ثم ذهبنا إلى « حوار الرى » وبقينا هناك ثلاثة أيام .

(هذا المقطع يقدم لنا صورة عن وصف ابن فضلان للرحلة والاسفار . وربما كان ربع المخطوطة أو يزيد مكتوبا بهذه الطريقة ، ساردا ببساطة أسماء المناطق وإقامته فيها وعدد الأيام التي قضاها في كل منها . لهذا فإن معظم هذه المادة قد تم حذفها) .

(وواضح أن رفاق ابن فضلان كانوا مسافرين صوب الشمال وانهم في آخر المطاف اضطروا أن يتوقفوا بسبب الشتاء .)

كانت إقامتنا في الجرجانية طويلة ، فقد مكثنا هناك بعض أيام شهر رجب (نوفمبر) وطيلة شهر شعبان ورمضان وشوال . وكان سبب إقامتنا الطويلة هذه البرد وقساوته . وقد قيل لي أن رجلين أخذوا الجمال إلى الغابات ليأثبا بالحطب . ويبدو أنهما نسيان أن يأخذا قاذحة وفتيلا معهما ، ولهذا ناما طيلة الليل بدون نار .

وعندما أصبحنا فى اليوم التالى وجدا ان الجمال قد تجمدت
وتصلبت بسبب البرد .

والحق انى رايت سوق وشوارع الجرجانية مهجورة بسبب
البرد ، فكان الواحد يستطيع ان يلدغ الشوارع دون ان يلتقى
بأى انسان . ومرة ، وبينما كنت خارجا من الحمام ، دخلت الى
بيتى ونظرت الى لحيتى رايتها كتلة من الجليد وكان على ان افرکها
قريبا من النار . ولقد امضيت ليلى ونهارى فى بيت كان ضمن بيت
آخر حيث اقيمت خيمة تركية مصنوعة من اللباد ، كما لفت انا
نفسى بشباب كثيرة وسجاجيد ايضا . ولكن رغم كل هذا كان خدائى
غالبا مايلتصقان بالوسادة ليلا .

فى هذا البرد القارس كنت ارى الارض تشكل احيانا بعض
الشقوق الهائلة ، وربما كنت تقع على شجرة هائلة قديمة وقد
انشطرت نصفين بسبب هذه الشقوق .

فى حوالى منتصف شوال من عام ٣٠٩ (فبراير ١٩٢٢) بدا
الطقس يتغير كما بدا النهر يلدوب وبدانا نجتمع الاشياء الضرورية
لرحلتنا ، فاشترينا جمالا تركية وقوارب جلدية مصنوعة من جلد
الجمال وذلك استعدادا لعبور الانهار التى كان علينا ان نعبرها فى
بلاد الاتراك .

كما جمعنا زادا ومؤونة من الخبز والدخن (او الجاروس) واللحم
المقدد يكفيننا لثلاثة اشهر . ولقد نصحننا معارفنا فى المدينة الى
لبس الكثير من الثياب وخزن الحاجيات قدر حاجتنا اليها . كما
وصفوا لنا المشاق المقبلة علينا بتعابير مخيفة ، وكنا نعتقد بانهم
كانوا يبالغون فى قصتهم ، الا اننا حين جابهنا هذه المشاق وجدناها
اعظم بكثير مما وصفوا .

ارتدى كل منا معطفا وفوق ذلك المعطف معطفا وفوق ذلك المعطف
قفطانا وفوق القفطان مائة وفوق هذا وذاك ارتدى كل منا خوذة
من اللباد لم يكن يطل منها الا العينان . كما ارتدى كل منا تحت
كل ذلك زوجا من الثياب الداخلية فوقها سروال كما ارتدى خفين
بطولهما خدائنا . فعندما كان الواحد منا يريد ان يعتلى جملة
لم يكن يستطيع حراكا لكثرة ثيابه .

كان الفقيه والمعلم والرهط الذين سافروا معنا من بغداد قيد تركونا الآن خشية دخول هذا البلد الجديد وهكذا فقد انطلقنا أنا والسفير وصهره وحاجباه تاقن وباريس لوحدها (١) .

أصبحت القافلة الآن جاهزة للانطلاق استأجرنا مرشدا لنا من سكان المدينة كان اسمه قلاووظ . ثم ، معتمدين على الله القوى العزيز ، انطلقنا يوم الاثنين الثالث من ذي القعدة عام ٣٠٩ (الثالث من آذار ١٩٢٢) من بلدة الجرجانية .

وفي نفس ذلك اليوم توقفنا في البلدة المسماة زامكان أي بوابة بلاد الترك . وفي الصباح الباكر من اليوم التالي تقدمنا إلى جت ، وهناك تساقط علينا من الثلج ما جعل الجمال تفوض فيه حتى الراكب ، فتوقفنا هناك يومين .

ثم أسرعنا الخطا باتجاه مباشر صوب أرض الأتراك دون أن نلتقي بأحد فوق هذا الجرف المستوى الإجرد . وغدينا الرجال طيلة عشرة أيام من البرد القارس والعواصف الثلجية التي لم تنقطع والتي إذا ما قورن برد خوارزم بها بدا وكأنه أيام صيف جميلة ، إلى حد أننا نسينا كل مشاقنا السابقة وكنا على وشك أن نتخلى عن مهمتنا كلها .

وفي أحد الأيام حينما كنا نتعرض لطقس من أشد ما عرفناه برودة كان الحاجب تاقن يركب بمحاذاتي ، وبجانبه أحد الأتراك الذي كان يحدثه بالتركية . ضحك تاقن وقال لي : « هذا التركي يسأل : ماذا سيفعل الله بنا ؟ فهو يقتلنا من البرد . لو عرفنا ماذا يريد لقدمناه له » .

وعندها قالت : « قل له أن الله يريد أن يقول « لا إله إلا الله » ضحك وقال : « لو كنت أعرف ذلك لقلته » .

(١) خلال المخطوطة لا يبدو ابن فضلان دقيقا في وصف حجم وتشكيل مجموعته . وسواء كان هذا الأهمال يمس القرائن ابن فضلان أن القارئ يعرف تشكيلة القافلة أو أنه كان نتيجة فقدان بعض فقرات النص ، فإنه لا أحد يستطيع أن يكون متأكدا من السبب وقد تكون الأعراف الاجتماعية عاملا في هذا ، لأن ابن فضلان لا يبين أبدا أن مجموعته كانت تتجاوز عددا ، من الأفراد قليلا ، بينما كانت في الواقع تعد مئة رجل أو تزيد ، كما كانت تعد ضعف ذلك العدد من الخيول والجمال . لكن ابن فضلان لا يعد - حرفيا - العبيد والخدم وأعضاء القافلة الأقل قيمة كاتضاء حقيقيين - في هذه البمشة .

ثم دخلنا فى غابة فوجدنا كميات كبيرة من الخشب الجاف فتوقفنا واشعل افراد القافلة النار وتدفأنا ثم خلعنا ثيابنا ونشرناها لتجف .

(من الواضح ان جماعة ابن فضلان قد بدأت تدخل الان فى منطقة دافئة لانه لا يشير من الان فصاعدا الى البرد القارس) .

انطلقنا ثانية واستمرينا فى الرحيل كل يوم بدءا من منتصف الليل وحتى وقت صلاة الظهر ، حين كنا نبطئ السير ثم نتوقف نهائيا . بعد ان مضى علينا خمس عشرة ليلة على هذه الوتيرة من الترحال وصلنا الى جبل كبير عليه صخور كثيرة ضخمة هائلة ، كما وجدنا ينابيع ماء تنطلق من الصخور ويستقر ماؤها فى برك . ومن هذا المكان عبرنا الارض حتى وصلنا الى قبيلة تركية تسمى قبيلة الاوغوز .

الفصل الثانى

تقاليد وطرق حياة الاتراك الاوغوز

الاوغوز قبائل رحل لهم بيوت من الشعر واللباد . يقيمون لفترة من الزمن فى مكان ما ثم يرحلون عنه الى مكان آخر . وبيوتهم موضوعة هنا وهناك طبقا لعادات القبائل الرحل . ومع انهم يعيشون حياة قاسية فانهم يشبهون الحمر التى ضلت . فليس بينهم وبين الله اية روابط دينية . وهم لا يصلون أبدا ولكنهم بدلا من ذلك يدعون رؤساء قبائلهم آلهة ، وحين يستشير أحدهم رئيس قبيلته حول امر من الامور فانه يخاطبه قائلا « الهى ماذا افعل بهذا الامر او ذاك ؟ » .

وتصرفاتهم وممارساتهم تركز على المشورة فيما بين بعضهم البعض وحسب . ولقد سمعتهم يقولون « لا اله الا الله ومحمد رسول الله » ولكنهم يقولون هذا ليتقربوا من المسلمين لا لانهم يعتقدون به .

ويدعى حاكم الاتراك الاوغوز « يابغو » . وهو الاسم الذى يطلق على الحاكم كما . ان كل شخص يحكم هذه القبيلة يحمل هذا الاسم .

ولا يفتسل الاوغوز ابدا ، لا بعد التبرز ولا بعد التبول ، كما انهم لا يستحمون بعد الجنابة ولا فى اى مناسبة من المناسبات . فهم لا يستعملون الماء ابدا وخاصة فى الشتاء ولا يستطيع التجار او اتباع محمد ان يتوضؤوا بحضورهم الا ليلا حين لا يراهم الاتراك ، لانهم كانوا يفضبون ويقولون « هذا الرجل يرغب فى ان يسحرنا لانه يغمر نفسه بالماء » ، وكانوا يجبرونه على دفع غرامة . ولا يستطيع اى من اتباع محمد ان يدخل بلاد الاتراك الا اذا وافق احد الاوغوز ان يستضيفه ، حيث يمكث معه ويقدم له الثياب والحلى من بلاد الاسلام ، ويجلب لزوجته بعض التوابل والدخن والزبيب والجوز . وعندما يصل المسلم الى بيت مضيفه ، يقيم له هذا الاخير خيمة ويقدم له الاغنام لكي يذبحها المسلم بنفسه . فالاتراك لا يذبحون ابدا ولكنهم يضربون الغنم على راسها حتى تموت .

ونساء الاوغوز لا يتحجبن ابدا بحضور رجالهن او الرجال الآخرين . كما لا تغطى المرأة ايا من اجزاء جسدها فى حضور اى شخص . فقد توقفنا فى احد الايام عند تركى وكنا جالسين فى خيمته . وكانت زوجة الرجل حاضرة . وبينما كنا نتبادل اطراف الحديث كشفت المرأة عن فرجها وحكته ، وقد رايناها تفعل ذلك ففطينا اعيننا وقلنا « استغفر الله العظيم » . عند ذلك ضحك زوجها وقال للمترجم « قل لهم اننا نكشفه بحضوركم فافضل ان ترونه علنا من ان تناولوه سرا » .

والزنا غير معروف بينهم ابدا فكل من يكتشفونه زانيا يقتلونه فيقربون غصنى شجرتين ثم يربطونه بالفصنين ويتركون الشجرتين تستقيمان مرة ثانية بحيث يشطر الرجل الذى ربط الى الشجرتين الى شطرين .

كما ان الاتراك يعتبرون عادة ممارسة اللواط خطيئة رهيبة . فقد حدث مرة ان تاجرا اتى ليقيم مع عشيرة كوداركن . وقد اقام مع مضيفه بعض الوقت ليشتري الغنم . وكان للمضيف ابن امزد

فحاول الضيف دون ياس أن يفوى الصبي حتى جعله يخضع لشئته . وفي تلك اللحظة دخل المضيف التركي وضبطهما بالجزم المشهود .

أراد الاتراك أن يقتلوا التاجر ومن ثم الصبي لهذا الجرم ، ولكن بعد توسلات كثيرة سمح للتاجر أن يفدى نفسه . فدفع لمضيفه أربعمائة رأس من الغنم لقاء ما فعله بابنه ثم غادر التاجر بلاد الاتراك على جناح السرعة .

وينتف الاتراك لحاهم باستثناء الشوارب .

وعادات الزواج عندهم هي كالتالى : يطلب احدهم يد انثى من عائلة اخرى مقابل (مهر) قدره كذا وغالبا ما يتضمن المهر هذا جمالا ودوابا واشياء اخرى . ولا يستطيع احد أن يتخذ لنفسه زوجة حتى يكون قد وفى بالتزامه الذى التزم به وتفاهم مع رجال تلك العائلة . فاذا ما وفى بهذا الالتزام فانه يأتى اليهم بدون رفاق دونما ضجيج أو لغط ويدخل المنزل الذى تقيم فيه المروس ويضاجعها (ياخذها) بحضور والدها وامها واخوتها فلا يمنعون من ذلك .

واذا مات رجل له زوجة واطفال فان اكبر ابنائه يتخذها زوجة له ان لم تكن امه .

واذا مرض احد الاتراك وكان له عبيد ، فانهم يعتنون به ولا يقترب اى من افراد عائلته منه طيلة فترة مرضه . اذ تقام له خيمة منفصلة عن بيوت الآخرين ولا يغادرها حتى يموت أو يشفى اما ان كان عبدا أو رجلا فقيرا فانهم يتركونه فى الصحراء ويتابعون طريقهم .

وحين يموت احد الوجهاء يحفرون له حفرة كبيرة على شكل بيت ويذهبون اليه ويلبسونه قرطقا كما يلبسونه حزامه وقوسه ويضعون كأس شرب خشبية فيها مشروب مسكر فى يده . ثم ياخذون كل ممتلكاته ويضعونها فى ذلك البيت . ثم يضعونه هو نفسه فيه ايضا ثم يبنون بيتا آخر فوقه وينشئون فوقه قبة مصنوعة من الطين .

ثم يقتلون الخيول . يقتلون مئة أو مئتين ، حسب ما كان يملك منها ، وفى موقع القبر . ثم ياكلون لحمها ما عدا الراس والحوافر والجلد والذيل التى يعلقونها على اعمدة خشبية ويقولون « هذه مراكبه التى سيركبهها فى طريقه الى الفردوس » .

اما ان كان بطلا وقتل الكثير من الأعداء ، فانهم ينحتون تماثيل خشبية بعدد أولئك الذين قتلهم ويضعونها على قبره ، ويقولون « هؤلاء هم حجابہ الذين يقومون على خدمته فى الجنة » .

وهم احيانا يؤجلون قتل خيوله ليوم او يومين ، الى ان يحضهم احد شيوخهم قائلا « لقد رايت الميت فى نومي وقال لى : اصغ الى : انت ترانى ها هنا وقد تجاوزنى رفاقى حين دھنت قدمائى عن ان تلحق بهم . اننى لا أستطيع اللحاق بهم فبقيت وحيدا » . فى هذه الحالة يذبح الناس خيوله ويعلقونها فوق قبره ، وبعد يوم او يومين يأتى اليهم نفس ذلك الشيخ ويقول « لقد رايت الميت فى حلمه وقال لى : « قل لاهلى اننى قد نجوت من مأساتى » .

وهكذا يحافظ الشيخ على تقاليد الاوغوز ، اذ يغير هذه الوسيلة قد تنشأ الرغبة عند الاحياء بابقاء خيول الميت (١) .

وبعد طول انتظار عاودنا الرحيل عبر المملكة التركية . وفى صبيحة احد الايام التقينا بتركى . كان قبيح الشكل قدر المظهر وفتح الخلق وضيع الطبع . قال « قفوا » . فتوقفت القافلة اجمعها اطاعة لامره . ثم قال « لا يتقدم اى منكم » . قلنا له « نحن اصدقاء الكوداركن » . فبدأ يضحك ساخرا وهو يقول « ومن هو الكوداركن ؟ اننى اخرى على لحيته » .

لم يدر اى منا ماذا يفعل حيال هذه الكلمات ، ثم صاح التركى قائلا « بكند » اى « خبز » فى لغة خوارزم . قدمت له بضعة ارغفة من الخبز . فآخذها وقال « يمكنكم استئناف رحلتكم الان ! اننى اشفق عليكم » . وصلنا الى مقاطعة القائد العسكرى الذى كان اسمه اترك ابن القاطجان ، الذى بنى لنا خياما تركية لنقيم بها . وكان له نفسه مؤسسة ضخمة فيها الكثير من المنازل والخدم .

وقد ساق لنا الغنم لنذبحها كما وضع الخيول تحت تصرفنا

(١) يعتقد فارزان احد المجيبين باين فضلان بان هذه الفقرة الاخيرة تكشف عن حس عالم انسانى حديث لا يسجل عادات شعب من الشعوب فحسب وانما يسجل ايضا آلية الفعل والية التصرف ليثبت هذه الماديات . فالمعنى الاقتصادى لقتل خيول قائد قبل رحال هو المادى القريب من ضريبة الموت الحديثة ، اى ان هذا المعنى يميل لتعطيل تراكم الثروة الموروثة فى عائلة ما . ورغم انه مطلب دينى فان ما كان يمكن لهذا التصرف ان يكون ممارسة جواميرية اكثر تما هو فى الوقت الزامن ويبين ابن فضلان بهارة بالغة كيف كانت تفرض هذه الممارسة على المترددين .

لتركبها . ويتحدث الاتراك عنه كأفضل فرسانهم ، وفى الحقيقة رأته فى يوم من الايام ، عندما كان يتسابق معنا على فرسه ، وحين طارت اوزة فوق رعوسنا ، رأته يشد قوسه ثم يوجه فرسه الى ما تحت الوزة ويطلق عليها سهمه ويصيبها ويقتلها .

قدمت له بزة من « الميرف » كما قدمت له زوجا من النعال من الجلد الاحمر ، ومعطفا من البروكار . وخمس معاطف من الحرير فتقبلها بفيض من تعابير المديح الحارة ، ورفع طرف معطفه البروكار الذى ارتداه لكى يعرض ثيابه الشرف (التكريم) التى قدمتها له لتوى . عندها رأيت أن القرطق الذى كان يرتديه تحت معطف البروكار كان ممزقا قدرا ولكن علمت أن من عاداتهم أن لا يخلع الرداء الذى يرتديه ملامسا جسده حتى يفنى ذلك الرداء من تلقاء ذاته . وفى الحقيقة كان قد نتف كل لحيته وحتى شاربيه بدا لنا على صورة الخصى . ومع ذلك ، فكما لاحظت ، كان فى الواقع افضل فرسانهم .

كنت اعتقد أن هذه الهدايا الجميلة لابد وأن تكسبنا صداقته ، الا ان الامر لم يكن كذلك ، فقد كان رجلا خداعا ماكرا .

فى أحد الايام ارسل فى طلب القادة المقربين اليه ، واعنى بذلك ترهان وينال وكلنر . كان ترهان الاكثر تأثيرا بينهم ، كان كسيحا اعمى وذا يد مشوهة . استدعاهم ثم قال لهم « هؤلاء هم رسل ملك العرب لزعيم البلغار ، وارى أنه لا يجوز لى أن اتركهم يعمرون دون استشارتكم » .

عندها تحدث ترهان فقال « هذه قضية لم نر لها مثيلا من قبل . فلم يحدث أن اجتاز سفير السلطان بلادنا منذ أن كنا نحن وأجدادنا هنا . وأنه (استنشم) مكيدة يدبرها لنا السلطان . فقد ارسل هؤلاء الرجال فى الواقع الى قبائل الهوزار ليحركها ضدنا . فالأفضل أن نشطر اجساد هؤلاء السفراء الى شطرين وناخذ كل ما معهم » .

واضاف مستشار آخر : « كلا فالأفضل أن نأخذ كل ما معهم ونتركهم عراة ثم يعودوا من حيث أتوا » . وقال آخر : « كلا فنحن لنأسى عند ملك الهوزار فواجبنا أن نرسل هؤلاء لنفتديهم بهم » .

واستمروا في نقاش هذه الامور بينهم سبعة ايام بلياليها ، بينما نحن في حالة شبيهة بحالة الاموات حتى وافقوا اخيرا على فتح الطريق والسماح لنا بالمرور . قدمنا لتهران حلة شرف او تكريم مؤلفا من (جبتين) من « الميرف » وبعض التوابل والدخن وبعض ارغفة الخبز . .

ثم استأنفنا رحلتنا حتى وصلنا الى نهر باجند . وهناك استقلينا قواربنا الجلدية التي صنعت من جلد الجمال بعد ان نشرناها وحملنا عليها بضائعنا التي انزلناها عن الجمال التركية . وعندما كان يمتلئ القارب كانت تجلس فيه مجموعة من خمسة او ستة اشخاص ، يحملون بأيديهم اغصان اشجار يستعملونها كمجاديف ثم يخلدون بالتجذيف بينما الماء تحمل القارب وتعزله في دوائر لولبية . واخيرا عبرنا . اما فيما يتعلق بالخيل والجمال فقد عبرت النهر سابعة لوحدها .

من الضروري جدا حين عبور نهر من الانهار ان تنقل اول الامر مجموعة من المحاربين مع اسلحتهم عبر النهر قبل كل القافلة حتى تقام نقطة حراسة وحماية لصد هجوم الباسكر بينما تقوم باقي القافلة بعبور النهر .

وهكذا عبرنا نهر باجندی ثم نهرا آخر يسمى غام بنفس الطريقة التي عبرنا بها النهر الاول . ثم عبرنا نهر اوديل وادرن ووارز واحتى ووبنا ، وكلها انهار كبيرة .

حتى وصلنا قبائل البسكنز . كان هؤلاء ينصبون خيامهم قرب بحيرة هاذئة وكانها البخر . وهم قوم سمر غامقو السمرة . كما انهم شعب قوى يحلق رجاله لحاهم . وهم فقراء بالمقارنة مع قبائل الاوغوز ، لاني رايت بين الاوغوز من كان يمتلك عشرة الاف مبن الخيول ومائة الف من الغنم . لكن قبائل البسكنز كانوا فقراء ولم نمكث بينهم غير يوم واحد .

ثم انطلقنا حتى وصلنا نهر جيحون . وهو اكبر واعرض واسرع نهر زايناه . وفي الحقيقة رايت بنفسى كيف كانت القوارب الجلدية تنقلب فيه راسا على عقب ويفرق كل من كان فيها . كثير من افراد جماعتنا ماتوا كما ان كثيرا من الجمال والخيول نفقت غرقا . عبرنا هذا النهر بصعوبة فائقة ثم غدينا الترحال لعدة ايام اخر وعبرنا

نهر سيحون ، ثم نهر آزن ثم نهر باجاج ثم نهر سمر ثم نهر كئال
 ثم نهر سوح ثم نهر كيقلو . وفيها النهاية وصلنا الى بلاد الباسكر .
 (تتضمن مخطوطة ياقوت وصفا قصيرا لكوث ابن فضلان بين
 الباسكر ، الا ان العديد من العلماء يشكون في صدق هذه المقاطع .
 اما الوصف الحقيقي فهو غامض الى حد الغرابة قدر ماهو ممل ،
 وهو يتضمن بشكل رئيسي قوائم بأسماء الاسياد والنبلاء الذين
 التقى بهم . ويرى ابن فضلان نفسه ان الباسكر لا يستحقون ان
 يهتم بهم ، وهى بحد ذاتها جملة لا يمكن ان تصدر عن هذا الرحالة
 الذى لا يشيع فضوله) .

واخيرا تركنا ارض الباسكر وعبرنا نهر جرمسان ثم نهر اورن
 ثم نهر اورم ثم نهر تيج ثم نهر امباش ثم نهر غاوش . وبين الانهار
 التى ذكرنا كان هناك بين كل نهر ونهر رحلة يوم او يومين او ثلاثة
 او اربعة ايام فى كل حالة .
 ثم وصلنا الى بلاد البلغار ، التى تبدأ عند شواطئ نهر الفولجا .

الفصل الثالث

اول اللقاءات مع اهل بلاد الشمال

لقد رايت بام عينى كيف وصل رجال الشمال مع عتادهم ،
 واقاموا خيامهم على شاطئ نهر الفولجا (١) . لم ار فى حياتى قط
 اناسا مردة كهؤلاء : فكلهم طوال كأشجار النخيل ، محمرو الوجنات
 موردوها . ولا يرتدون الشلحات ولا القفطان لكن الرجال منهم
 يرتدون ثوبا من القماش الخشن مردود الى احد الجانبين بحيث تبقى
 إحدى اليدين حرة .

(١) فى الواقع كانت الكلمة التى عبر بها ابن فضلان عن هؤلاء هى (الروس) ،
 وهو اسم قبيلة معينة من اهل الشمال . خلال النص يسمى احيانا الاسكندنافيين
 بالاشارة الى اسماهم القبلية الخاصة ، ويسمى احيانا الفرنجة كتعبير عن الاصل
 (او المرق) . ويصغر المؤرخون الآن استعمال تعبیر الفرنجة بالاشارة الى المرتزة
 الاسكندنافيين الذين استخدمتهم الامبراطورية البيزنطية . ومنعا لكل اختلاط ، تم فى
 هذه الترجمة استعمال تمييزى « اهل الشمال » و « رجال الروس » فى كل مكان منها .

ويحمل كل من اهل الشمال فاسا وخنجرًا وسيفًا ، ولا تراهم ابدا بغير هذه الاسلحة . وسيوفهم عريضة ذات خيوط مموجة وفرنجية الصنع . ومن رعوس اظافرهم حتى اعناقهم ترى الرجال منهم موشمين بصور الاشجار ، والاحياء والاشياء الاخرى . اما النساء منهم فيحملن على صدورهن صناديقا صغيرا من الحديد والنحاس أو الفضة أو الذهب حسب غنى وثروات ازواجهن . كما يحملن خاتما مثبتا على هذه الصناديق وفوق الخاتم خنجرا ، والكل مثبت الى صدورهن . وحول اعناقهن يلبسن الاطواق الذهبية والفضية .

انهم اقدر خلق الله . فهم لا ينظفون انفسهم بعد الذهاب الى المراض ، ولا يفسلون انفسهم بعد الجنابة اكثر مما تفعل الحمر الشاردة .

وهم يأتون من بلادهم ويرسون سفنهم في الفولجا ، وهو نهر عظيم ، ثم يبنون على ضفتيه بيوتا خشبية . وفي كل من هذه البيوت يعيش عشرة أو عشرون أو اقل أو اكثر من ذلك . ولكل رجل مصطبة يجلس عليها برقعة البنات الجميلات اللواتي يعرضهن للبيع . وحيانا يقوم بالاستمتاع باحداهن بينما صديق له يمتع النظر . وحيانا يقوم عدد منهم بالقيام بنفس المتعة في وقت واحد وكل على مرأى من جميع الاخرين .

وبين وقت وآخر يلجأ تاجر الى احد هذه البيوت ليشتري فتاة فيجد سيدها مشغولا بعناقها ولا يكف عن ذلك حتى يقضى وطره . وهم لا يرون في هذا امرا مثيرا للاستغراب .

وفي كل صباح تأتي جارية وتحضر معها طشتا من الماء وتضعه امام سيدها . ويبدأ السيد بفسل وجهه ويديه ثم شعره الذي يمشطه فوق الوعاء . وبعدها ينظف انفه ثم يبصق في الطست ، ينقل كل ذلك الى الماء امامه . وعندما ينتهي تحمل الفتاة الطست الى الرجل الذي يليه والذي يقوم بنفس العمل . وهكذا تستمر بنقل الطست من رجل الى آخر حتى يكون كل من في البيت قد مخط وبصق في الطست وغسل وجهه وشعره .

هذه هي طبيعة الامور بين اهل الشمال كما رايتها بأم عيني . ومع ذلك فحين حللنا بينهم كان هناك بعض الشعور بعدم الرضى بين هؤلاء المردة ، والسبب يعود لما يلي :

كان رئيسهم الكبير وهو رجل اسمه وغلف قد وقع مريضا ، فأقيمت له خيمة مرض على مسافة من المعسكر وترك معه الخبز والماء . لم يقترب منه أو يكلمه أحد ، كما لم يزره أحد طيلة الفترة ، ولم تعده عبيده ، لان أهل الشمال يعتقدون ان الانسان يجب ان يشفى من أى مرض يصيبه بقوته وقدرته . وكان الكثيرون بينهم يعتقدون ان وغلف لن يعود للانضمام اليهم فى معسكرهم وانه سوف يموت .

ولهذا تم اختيار واحد منهم ، وهو نبيل شاب يدعى بيولف ، اختيار ليكون زعيمهم الجديد ، ولكنه لم يقبل طالما ان الزعيم المريض مازال حيا . كان هذا هو سبب الاضطراب حين حلولنا بينهم . الا انه مع ذلك لم تكن هناك أى من مظاهر الاسى أو البكاء بين الناس المعسكرين على نهر الفولجا .

ويعلق أهل الشمال أهمية كبيرة على واجبات المضيف . فهم يحييون كل زائر بحرارة وكرم ويقدمون له الماء واللباس ، كما يتبارى الكبار والنبلاء بينهم لكسب شرف اعظم التكریم . وقد أحضر أعضاء قافلتنا أمام بيولف وأقيمت على شرفنا وليمة كبيرة ترأسها بيولف نفسه . وكان رجلا طويلا قويا ذا جلد وشعر ولحية بيضاء ناصعة البياض . وكانت له هيئة الزعيم .

واعترافا بكرم الوليمة اكل رجالنا بشكل مثير للنظر ، ومع ذلك فقد كان الطعام كريها كما ان تقاليد الوليمة كانت تتضمن الكثير من التراشق بالطعام والشراب ، والكثير من الضحك والمرح . وكان مالوفا فى وسط هذه الوليمة الوقحة ان نبیلا من نبلاتهم يلهو بجارية على مرأى من جميع اتباعه .

حين رأيت كل ذلك أدت وجهى وقلت « استغفر الله رب العالمين » فضحك رجال الشمال طويلا لحرجى . وقد ترجم لى أحدهم بما معناه أنهم يعتقدون بأن الله ينظر بكثير من العطف الى مثل هذه الملذات المكشوفة . وقد قال لى « انتم العرب مثل عجائز النساء ، انكم ترتجفون لمنظر الحياة » .

فقلت مجيبا « انما انا ضيف بينكم وارجو من الله ان يقودنى الى طريق الصواب » .

وكان هذا سببا لمضحك تلاضحكم الاول ولكننى لم اجد سببا
جملهم يكتشفون نكتة فيما اقول .

وتحمل عادات اهل الشمال عميق الاحترام لحياة الحرب . وفى
الحقيقة فان هؤلاء الرجال الضخام يحاربون باستمرار ، ولا يعرفون
السلام ابدا لا بين بعضهم ولا بينهم وبين كل القبائل من كل
الانواع . وهم يتغنون بأغاني حروبهم وشجاعتهم ، ويعتقدون بان
موت المحارب وهو يقاتل هو اعظم الشرف .

وثناء وليمة بيولف غنى جماعة منهم اغنية عن الشجاعة
والمبارك فلاقت اعجابا كبيرا رغم ان القليلين فقط اصغوا اليها . اذ
ان خمر اهل الشمال القوية سرعان ماتحليهم الى حيوانات وحمير
شاردة . وفى وسط الاغنية كان هناك هتافات عالية ومبارزات
مميّنة بسبب خناقة بين محاربين . لم يتوقف المغنى عن غنائه رغم
هذه الاحداث ، وفى الحقيقة رايت الدم المتطاير يرشم وجهه لكنه
مسحه دون ان يتوقف عن الغناء .
لقد ترك فى ذلك اعظم الاثر .

وحدث الان ان امر بيولف الذى كان مخمورا كالاخرين ، بان
اغنى لهم اغنية . وقد اصر على ذلك اصرارا كبيرا . ورغبة فى الا
اغضبهم رتلت بعضا من القرآن الكريم بينما المترجم يكرر كلماتى
بلسانهم . لكنهم لم يجدوا فيما رتلت شيئا افضل مما فى اغاني
مغنيهم الجوال ، وقد استغفرت بعد ذلك ربي على الطريقة التى
استقبلت بها كلماته المقدسة واستغفرته ايضا على الترجمة ، التى
احسست بانها كانت عقيمة ، لان المترجم نفسه كان فى الحقيقة
سكرانا .

بقينا بين اهل الشمال يومين ، وفى صبيحة اليوم الثالث بدانا
نهيىء انفسنا للرحيل ولكن اخبرنا المترجم بان الزعيم وغلف قد مات
فاثرت ان ابقى لاشهد ماسيحدث بعده .

فى بادئ الامر مددوه فى قبره الذى اقيم فوقه سقف ، وعلى مدى
عشرة ايام حتى اتوا تفصيل وخياطة ثيابه (١) . ثم اتوا ايضا

كان هذا وحده كافيا ليلجل مشاهد اعرينا قادمنا من ملقس دافىء ، فالتقاليد الاسلامية
تأمر بالدفن السريع ، غالبا ما يكون فى نفس يوم الوفاة بعد مراسيم قصيرة من الغسل
والصلاة عليه .

بامتعته وممتلكاته الشخصية وقسموها الى ثلاثة اقسام . كان القسم الاول لعائلته ، والثاني ينفق على الثياب التى صنعوها له ، اما بقية القسم الثالث فيشترون به مشروبات قومية استعدادا لليوم الذى تسلم فيه احدى الفتيات نفسها للموت وتحرق مع سيدها .

ويسلمون انفسهم كلية لشرب الخمرة بشكل جنونى يشربونها ليلا ونهارا كما ذكرت سابقا . وليس من النادر ان يموت احدهم وكاسه فى يده .

توجهت عائلة وغلف بالسؤال الى جميع فتياته ووصيفاته : من منكن ستموت معه ؟ وعندها اجابت احدها : انا . منذ اللحظة التى نطقت فيها بهذه الكلمة لم تعد حرة ابدا . حتى لو رغبت بالتراجع فانه لا يسمح لها بذلك .

تسلم الفتاة التى رضيت بذلك الى فتاتين اخريين تقومان بمراقبتها ومراقبتها حيثما ذهبت كما تفسلان احيانا قدميها . وينتهك الجميع باعداد الميت - يفصلون الثياب له ويهيئون كل ما هو ضرورى . وخلال كل تلك الفترة تسلم الفتاة نفسها كلية للشرب والغناء وتبقى مرحلة فرحة .

الفصل الرابع

فى هذه الاثناء اكتشف بيولف ، وهو النبيل الذى سيلي فى الزعامة ، اكتشاف منافسا كان يدعى ثوير كل . لم اعرفه من قبل ، لكنه كان قبيحا قدرا وكان اسمر غامقا بالمقارنة بهذا العرق المتورد الاشقر . وقد تأمر ليصبح هو الزعيم . علمت كل هذا من المترجم لانه لم تكن هناك اى أعراض ظاهرة فى استعدادات الدفن يظهر بان اى شيء كان يجرى خلافا للعادة .

لم يشرف بيولف بنفسه على استعدادات الدفن ، لانه لم يكن من عائلة وغلف ، والعرف يقضى بان تهىء عائلة الميت امور جنازته . وهكذا انضم بيولف الى جموع المحتفلين والمتهجين كما لم يمارس اى تصرف ملكى ، اللهم الا اثناء وليمة المساء ، حين جلس على المجلس العالى الذى كان مخصصا للملك .

كان يجلس على النحو التالى : عندما يكون أحد رجال الشمال ملكا حقا ، فانه يجلس على رأس الطاولة وعلى كرسي حجرى كبير له ذراعان حجران . هكذا كان كرسي وغلف ، لكن بيولف لم يجلس فى هذا الكرسي كما قد يجلس أى انسان غادى ، بل جلس على أحد الدراعين ، وهو وضع اذى به الى السقوط حينما شرب كثيرا او حين كان يفرط فى الضحك . وكانت المادة انه لا يستطيع الجلوس على الكرسي حتى يتم دفن وغلف .

خلال كل هذا الوقت كان ثوركل يتأمر ويعقد الاجتماعات مع النبلاء الآخرين . وقد علمت انه كان يشتبه بى كمشعوذ او ساحر مما ازعجنى كثيرا . وقد اخبرنى المترجم الذى لم يكن يصدق ايا من هذه القصص بان ثوركل قال باننى كنت السبب فى وفاة وغلف كما انى كنت السبب فى أن يصبح بيولف الزعيم الجديد ، ولكن والحق اقول ، لم يكن لى دور فى أى من هذه الامور .

بعد بضعة ايام ، طلبت اذنا بالرحيل برفقة ابن باسطو وتاقن وبارس ، ولكن رجال الشمال لم يسمحوا لنا بالمغادرة قائلين انه يجب علينا ان نبقى حتى يوم الجنازة ، ومهددين بطعننا بالخناجر التى كانوا يحملونها دائما وهكذا بقينا .

وحين حل اليوم الذى ستلتهم فيه السنة الذهب وغلف والفتاة قربت سفينته من شاطئ النهر ، ثم اقيمت حولها اربعة اكوام من الحطب والاخشاب الاخرى كما وضعت حولها تماثيل خشبية كبيرة على شكل مخلوقات بشرية .

وفى هذه الاثناء بدأ الناس بالمشى جيئة وذهابا مرددين كلمات لم أفهمها . فلفة اهل الشمال ثقيلة على السمع يصعب فهمها . فى حين مدد الزعيم الميت فى قبره على مسافة من السفينة والذى لم يكونوا قد تقلوه منه بعد . ثم اتوا بما يشبه السرير ووضعوه فى السفينة ثم غطوه بالقماش اليونانى المذهب ووسائد من نفس القماش ثم جاءت حيزبون شمطاء كانوا يدعونها « ملاك الموت » فنشرت الحاجيات الشخصية على السرير . كانت هى التى اشرفت على خياطة الثياب وكل التجهيزات الاخرى ، كما كانت هى ايضا التى ستدبح الفتاة . لقد رايت الحيزبون بعينى كانت سمراء ذاكنة غليظة البنية ولها ملامح تدخل الهلع الى القلب .

حين اتوا الى القبر اراحوا السقف واخرجوا الميت ، عندها رايت
بانه قد أصبح أسود حالكا بفعل برودة تلك البلاد . وبقربه في
القبر وضعوا المشروبات القومية والفواكه كما وضعوا عودا ، وهذه
اشياء اخرجوها كلها الان . أما وغلف الميت فانه لم يتغير فيه شيء
الا لونه .

والان رايت بيولف وثوركل يقفان جنبا الى جنب يتبادلان تعابير
الصداقة القوية اثناء مراسيم الدفن ، ومع ذلك كان واضحا انه
لم يكن ثمة اى صدق في مظهرهما .

جلل الملك الميت وغلف بالثياب ، بدءا من الثياب الداخلية
الى الجرابات والحذاء والقفطان المصنوع من القماش المذهب كما
وضع على راسه عمامة مصنوعة من القماش المذهب . ومزركشة
بجلد السمور الاسود . ثم حمل الى خيمة في السفينة ، وهناك
أجلسوه على سرير منجد وسندوه بوسائد ثم أحضروا شرابا قويا
وفواكه وريحانا وضعوها كلها بجانبه .

ثم أحضروا كلبا قطعوه نصفين والقوا به في السفينة . ووضعوا
كل أسلحة وغلف بجانبه ثم جاءوا بحصانين جعلوهما يعدوان حتى
صارا ينضحان عرقا . بعدها قتل بيولف احدهما بسيفه وقتل ثوركل
الآخر ثم قطعوهما قطعما صغيرة بسيفهما ورموا القطع في
السفينة . كان بيولف اقل سرعة في قتل الحصان وقد بدا وكان
هذا كان ذا مغزى بالنسبة للمراقبين ولكننى لم افهم مغزاه .

ثم اتى بثوردين قطعما قطعما والقيا في السفينة . وأخيرا اتوا بديك
ودجاجة فقتلوهما والقوا بهما في السفينة أيضا .

في هذه الاثناء كانت الفتاة التي نذرت نفسها للموت تتمشى
جيسة وذهابا ، وتلج الخيمة بعد الاخرى من الخيام التى بنوها هناك .
وكان كل من في هذه الخيام يضاجعها وهو يقول « خبرى سيدك
أننى ما فعلت هذا الا حبا به » .

وفي وقت متأخر من مساء ذلك اليوم قادوا الفتاة الى شيء كانوا
قد أقاموه على شكل اطار الباب . وضعوا قدميهما على سواعد
الرجال الممدودة فرقعها هؤلاء فوق الاطار . هناك نظقت بكلمات
بلفتها وانزلوها بعدها . ثم رفعوها مرة ثانية ففعلت ما فعلته من

قبل . ومرة أخرى أنزلوها ثم رفعوها مرة ثالثة . ثم أعطوها دجاجة قطعت رقبتها ورمتها بعيدا .

استفسرت من المترجم عما كانت تفعل فاجاب : « في المرة الاولى قالت : الله ! انى ارى هنا أبى وامى ، وفي المرة الثانية : الله ! الان ارى كل اقاربى الموتى جالسين ، وفي المرة الثالثة : الله ! هو ذا سيدي يجلس في الفردوس . ما أجمل الفردوس ما أروع خضرتها . ومعه أرى رجاله وغلماؤه . انه يدعونى فخذونى اليه » .

ثم قادوها الى السفينة . وهنا خلعت سواربها واعطتهما الى الحيزبون الشمطاء التى كانت تدعى ملاك الموت والتى ستقتلها فيما بعد . ثم خلعت خلخالها وقدمتهما الى الوصيفتين اللتين كانتا تقومان على خدمتها ، واللّتين كانتا ابنتى ملاك الموت . ثم رفعوها الى السفينة دون أن يدخلوها الى الخيمة .

والان جاء رجال بتروسهم وبلطاتهم وقدموا لها كاسا من الشراب القوى . أخذت الكاس وغنت فوقه ثم افرغته فى جوفها واخبرنى المترجم انها قالت « بهذا ارحل عن هؤلاء الاعزاء لى » ثم قدم لها كاس آخر شربته ايضا وبدات بفناء طويل . وامرتها الحيزبون بأن تشرب الكاس حتى الجفاف ودون تباطؤ وان تدخل الخيمة حين كان سيدها .

فى هذا الوقت بدا لى وكان الفتاة قد داخت وبدت وكأنها تريد دخول الخيمة حين امسكت الشمطاء بها فجأة من راسها وجرتها الى داخل الخيمة . فى هذه اللحظة بدا الرجال بالضرب على تروسهم بعضهم ليغيبوا ضجيج صيحاتها التى قد ترعب الفتيات الاخريات فتردعهن عن طلب الموت مع اسبيادهن فى المستقبل . تبعا ستة رجال الى داخل الخيمة كان كل منهم يقتصبها بالدور . ثم القوا بها بجانب سيدها بينما امسك رجلان بقدميها وآخرا بيديها . أما الحيزبون الشمطاء المعروفة بملاك الموت فقد عقدت الان جبلا حول عنقها واعطت طرفيه الى اثنين من الرجال ليشدوا العقدة ثم وبخنجر عريض الشفرة طعنت الحيزبون الفتاة بين أضلعها وسحبت الخنجر بينما استمر الرجلان بخنقها فى الجبل حتى ماتت .

اقرب اقارب الميت « وغلف » الان وأخذ أحدهم قطعة من الخشب المتهب ومشى عاريا الى الخلف باتجاه السفينة واشعلها بما فيها دون أن ينظر اليها . وسرعان ما كانت الجنازة العائمة شعلة من اللهب بينما أصبحت السفينة والخيمة والرجل والفتاة وكل شيء آخر عاصفة من النيران الملتهة .

كان احد الرجال يقف بجانبى ينطق ببعض التعليقات موجهها كلامه للمترجم . سألت المترجم عما قيل فجاءنى الجواب هكذا : « انتم العرب لابد وان تكونوا قوما اغبياء . فانتم تأخذون احب رجالكم اليكم واكثرهم احتراما وتلقون بهم تحت الأرض لتلتهمهم الزواحف والديدان ، بينما نحن نحرقهم فى رمشة عين بحيث يدخلون الجنة مباشرة ودون تأخير » .

وفى الحقيقة وقبل ان تمضى ساعة من الزمن كانت السفينة والخشب والفتاة قد تحولت جميعا مع الرجل الميت الى رماد .

الفصل الخامس

ما بعد جنازة اهل الشمال

لا يجد هؤلاء الاسكندنافيون سببا للحزن فى موت أى انسان فالفقير والعبد ليسا شيئا ذا بال بالنسبة اليهم ، وحتى زعيمهم لا يثير أى حزن أو دموع ، ففى مساء نفس يوم جنازة الزعيم « وغلف » اقيمت وليمة كبرى فى قاعات معسكر الشماليين .

الا اننى لاحظت أنه لم يكن كل شيء على ما يرام بين هؤلاء البرابرة . تحدثت عن هذا مع مترجمى فأجاب على النحو التالى : « هى خطة ثوركل أن يراك تموت ، ومن ثم يقضى على بيولف . وقد حصل على دعم بعض النبلاء له ، ولكن هناك جدلا وخصاما فى كل بيت وفى كل حى » .

فقلت بكثير من القلق « ليس لى أى شان فى هذه القضية فكيف اتصرف ؟ » .

اجاب المترجم بان على ان اهرب ان استطعت ، ولكن ان قبض على فسيكون ذلك برهانا او دليلا على ذنبى وسوف اعاقب كلص .
ويعاقب اللص على النحو التالى : يقوده الشماليون الى شجرة ضخمة . ويشدون جبلا قويا حوله ثم يعلقونه ويتركونه هناك معلقا حتى يتعفن ويستقط قطعا متناثرة بفعل الريح والطر عندها تذكرت اننى لم اُنج من الموت الا بصعوبة على يدى ابن القاطجان ففضلت ان اتصرف كما تصرفت من قبل ، اى بقيت بين الشماليين حتى يسمح لى بمغادرتهم وباتمام رحلتى .

استفترت من المترجم عما اذا كان من واجبى ان احمل الهدايا الى بيولف والى ثوركل ايضا لى يجلدا رجلي . فاجاب باننى لا استطيع ان اقدم الهدايا الى اى منهما ، وانه لم يتقرر بعد من سيكون الزعيم الجديد . ثم اضاف بان هذا سيتضح خلال يوم وليلة على ابعد تقدير .

صحيح ليس عند هؤلاء الشماليين طريقة ثابتة لاختيار زعيم جديد حين يموت القائد القديم . فقوة السلاح لها اعظم الحساب . ولكن ولاءات المحاربين ايضا والنبلاء والوجهاء لها قيمتها . وفى بعض الاحيان لا يكون هناك خليفة واضح للحاكم ، وكانت هذه الحالة احدى تلك الحالات . وقد قال مترجمى انه على ان اصبر وان اصرى ايضا . وهذا ما فعلت .

ثم هبت عاصفة هوجاء على ضفتى نهر الفولجا ، عاصفة استمرت يومين من المطر الجارف والرياح العاتية ، وبعد هذه العاصفة حط ضباب بارد على الارض . كان سمىكا ابيض ولم يكن باستطاعة اى انسان ان يرى على بعد اكثر من عشر خطوات .

الا ان نفس هؤلاء المحاربين الشماليين المردة ، والذين بفضل ضخامتهم وقوة سواعدهم وتصرفاتهم القاسية كانوا لا يهابون شيئا فى هذا العالم كله فانهم يخافون الضباب او الصقيع الاتى مع العواصف .

ويعانى رجال ذلك العرق الكثير لاختفاء خوفهم ، حتى بين بعضهم البعض . فالمحاربون يضحكون ويمرحون كثيرا ويحاولون التظاهر غير البرر بعاطفة الهدوء . وبهذا يبرهنون على العكس . وفى الواقع

فان محاولاتهم لاختفاء خولهم محاولات طفولية ، اذ ببساطة يدعون انهم لا يرون الحقيقة ، ومع ذلك فكل واحد منهم وفى جميع أنحاء المعسكر يقوم بالصلاة ويقدم الاضحيات من الدجاج والديكة واذا سأل أحد عن سبب الاضحيات ، يجيبه « انى أقدم الاضحيات من أجل سلامة عائلتى البعيدة » أو يقول « أى أقدم الاضحيات من أجل نجاح تجارتي » أو يقول « أقدم الاضحيات اكراما لهذا الفرد أو ذاك من أموات عائلتى » أو قد يقول اسبابا كثيرة أخرى ثم يضيف ! « وايضا من أجل زوال الضباب » .

ولقد حسبته من الضرائب بالنسبة لهؤلاء الناس الاقوياء المحاربين ان يخافوا الى هذا الحد من أى شئ حتى يتظاهروا بعدم الخوف . ومن بين كل أسباب الخوف المعقولة بدا الصقيع والضباب لفكرى غير مفهوم على الإطلاق .

قلت لترجمى ربما يخاف الرجل من الريح أو من عاصفة رملية هوجاء أو من فيضان الماء أو من اهتزاز الارض أو من البرق والرعد فى السماء ، فكل هذه قادرة على أن تؤذى انسانا أو تقتله أو تهدم منزله ، ولكن الضباب أو الصقيع ليس فيه تهديد أو ابداء . وفى الحقيقة كان هذا اقل شكل من أشكال عناصر الطبيعة المتغيرة .

اجابنى المترجم باننى كنت احتاج الى عقيدة البحار . وقال ان كثيرا من البحارة العرب يتفقون مع اهل الشمال فيما يتعلق بالقلق بسبب الضباب الملتف ، وكذلك بسبب الضباب أو الصقيع لجوالى البحار الكثير من القلق لان مثل هذه الحال تزيد من مخاطر السفر فى المياه .

قلت هذا معقول ولكن حين يسقط الضباب على الارض وليس على الماء فائنى لم افهم معنى أى خوف . جوابا على ذلك قال مترجمى الضباب دائما مخيف فى أى وقت اتى . واضاف بأنه ليس هناك من فرق سواء على اليابسة أو فى الماء ، من وجهة نظر اهل الشمال . ثم قال لى ، ان الشماليين لا يخافون الضباب كثيرا حقا . وقال المترجم ايضا انه هو كرجل لم يكن يخاف الضباب . وقال انها قضية ثانوية ليست ذى بال . واضاف « انها ليست سوى

الم بسيط داخل مفصل من مفصل الاطراف قد يأتى مع الضباب لكنه ليس أكثر أهمية من ذلك .

بهذا أحسست بأن مترجمى كالاخرين ينكر كل شكل من أشكال القلق بسبب الضباب ويتظاهر بالامبالاة .

وحدث فى هذه الاثناء ان الضباب لم ينتشع مع انه تبخر وأصبح رقيقا فى أواخر النهار ، كما بدت الشمس كدائرة فى السماء لكنها هى أيضا كانت من الضعف بدرجة استطعت معها ان أنظر فى قلب ضوئها مباشرة .

فى نفس هذا اليوم وصل قارب شمالى فيه نبيل من قومهم . كان رجلا شابا ذو لحية خفيفة ولم يكن يرافقه فى رحلته الا عدد قليل من الخدم . والعبيد ولم يكن بينهم نساء . ولهذا اعتقدت انه لم يكن تاجرا اذ ان هذه المناطق يأتى الشماليون خاصة لبيع النساء .

أرسل هذا الزائر قاربه بنفسه وبقي واقفا عنده حتى هبط الليل . ولم يقترب منه أو يجيبه أى إنسان مع انه كان قريبا وعلى مرأى بصر الجميع . وقد قال مترجمى : « انه أحد أقرباء بيولف وسوف يستقبل ضيفا فى وليمة المساء » .

وسالت « ولماذا يبقى عند سفينته ؟ » .

« بسبب الضباب » أجاب المترجم وأضاف « يقضى العرف ان يبقى واقفا على مرمى البصر لعدة ساعات حتى يراه الجميع ويوقنوا انه ليس عدوا قادما من الضباب » . قال لى هذا بشيء من التردد .

فى وليمة المساء رأيت الشاب يدخل القاعة . وهنا حى بحرارة وبكثير من الدهشة خاصة من قبل بيولف الذى بدأ يتصرف كما لو ان الشاب قد وصل لتوه ولم يكن قد مضى عليه ساعات واقفا بجانب السفينة . وبعد تحيات كثيرة القى الشاب خطبا عاطفيا أصفى اليه بيولف باهتمام غير هادى . لم يشرب ولم يداعب الجوارى ، ولكنه بدلا من ذلك أصفى الى الشاب بصمت بينما كان الشاب يتكلم بصوت عال جهير . وحين انتهى من قصته بدا وكان الدموع تنساب من عينيه فقدمت له كأس من الشراب .

سألت مترجمى عما قاله الشاب . وكان هذا الجواب : « انه وولف غار ، ابن روث غار ، وهو أحد ملوك الشمال العظيم . وهو

قريب لبيولف ويطلب مساعدته ودعمه فى مهمة بطولية . يقول
وولف ان البلد البعيد يعانى الخوف ومن رعب لا يسمى وهو رعب
يمجز كل الناس وكل الاقوام عن مقاومته . وهو يطلب من بيولف
ان يسرع بالعودة الى البلد البعيد لينقذ شعبه ومملكة ابيه
روث غار .

سالت المترجم عن طبيعة هذا الرعب ، فقال لى « لا اسم له
استطيع ان اخبرك به » . وبدا المترجم شديد الاضطراب بسبب
كلمات وولف غار ، كما اضطرب لها كثيرا من اهل الشمال الاخرين .
ولقد رايت على ملامح بيولف تعابير داكنة حزينة ، فاستفسرت من
المترجم عن تفاصيل هذا المصاب . قال المترجم : « لا يمكن لفظ
الاسم فالنطق به محرم كى لا يستدعى الشياطين » . وبينما كان
يتكلم كنت ارى انه كان يخاف حتى من التفكير فى هذه الامور ،
وكان هلهله واضحا ولهذا توقفت عن السؤال .

كان بيولف يجلس صامتا فوق الكرسي الحجرى . والحقيقة ان
جميع النبلاء والرجال والعبيد والخدم الحاضرين كانوا صامتين
ايضا . لم ينطق اى رجل فى القاعة بحرف واحد . اما الرسول
وولف غار فقد وقف امام الجمع حائى الرأس . لم ار فى حياى
قط قوم الشمال المرحين صعبى المراس يمثل هذا الاسى والحزن .

ثم دخلت الى القاعة الحيزبون الشمطاء الملقبة بملك الموت ،
وجلست تقرب بيولف ، ومن جقية مخبأة اخرجت بضع عظمت
لم ادر ان كانت عظما بشرية ام حيوانية والقت بهذه العظمت على
الارض وهى تتمم بكلمات مبهمه وتمرر يدها فوق العظمت .

ثم جمعت العظمت والقت ثانية واعيدت الكرة بكثير من الالحان
والدمدمة . ومرة اخرى القيت العظمتات ثم خاطبت بيولف .
استفسرت من المترجم عن معنى ما قالته لكنه لم يعرنى اى انتباه .

ثم ان بيولف وقف ورفع كاس شرابه القوى وخاطب النبلاء
والمقاتلين المجتمعين بخطاب طويل . وشيئا فشيئا وقف عدد من
المحاربين فى اماكنهم ليواجهوه . لم يقف الجميع . عددت الواقفين
فكانوا احدى عشر فعبر بيولف عن رضاه بهذا .

ورايت الان ايضا ان ثوركل كان بادى السرور بسبب ما جرى

واتخذ وضعاً أكثر ملوكية بينما لم يعرف بيولف أى اهتمام كما لم يبد أى كراهية نحوه ولا حتى أى أكثرات ، مع أنهما كانا قبل قليل عدوين .

ثم أن ملاك الموت ، نفس تلك الحيزبون ، أشارت إليه ونطقت ببعض الكلمات ثم غادرت القاعة . وأخيراً تكلم مترجمى فقال : « أن بيولف مدعو من قبل الإلهة أن يغادر هذا المكان وبسرعة تاركاً خلفه كل قضاياها ومشاغله ليتصرف كبطل ويدفع مصاب الشمال . هذا مناسب وسوف يأخذ معه أحد عشر مقاتلاً ، كما سيأخذك أنت أيضاً معه » . قلت أنى فى مهمة إلى البلغار ، ولابد لى من اتباع أوامر خليفتى دون تأخير .

« لقد تكلمت ملاك الموت ! » هكذا أجاب مترجمى ثم أضاف « يجب أن تكون مجموعة بيولف ثلاثة عشر ، ويجب أن يكون أحد هؤلاء من غير أهل الشمال ، وهكذا فلا بد أن تكون أنت الثالث عشر » . فاحتججت على ذلك بأننى لست محارباً . وفى الحقيقة قدمت كل الاعتذارات والتوسلات التى ذكرت على بالى والتى يكون لها أى تأثير على هذه الجماعة الواقعة من المخلوقات . وطلبت من المترجم أن ينقل كلمتى إلى بيولف ، إلا أنه أشاح بوجهه وترك القاعة وهو يقول لى هذه الكلمات الأخيرة « أعد نفسك كالمؤمن ما يكون الأعداد . ستفادر معهم مع أول ضوء الصباح » .

الفصل السادس

الرحلة إلى البلد البعيد

بهذه الطريقة منعت من اتمام رحلتى إلى مملكة بلطوار ملك الصقالية ولم أتمكن من حمل أمانة المقتدر أمير المؤمنين وخليفة مدينة السلام . أعطيت كل ما استطعت من معلومات وتعليمات إلى دادر الحرامى وإلى السفير أيضاً عبد الله بن بسطو الحزارى ، وإلى الخادمين : تاقن وباريس : ثم ودعتهم ولم أعد أدري بما جرى لهم بعد ذلك .

اما بالنسبة لى فقد اعتبرت نفسى فى حال ليست أفضل من حال رجل ميت . وسرعان ما أصبحت على ظهر احدى السفن الشمالية المحزنة شمالا فى الغالجا مع اثنى عشر من جماعتهم اما اسماء الآخرين فكانت كالتالى : بيولف الزعيم وضابطه المرافق اكثفو ثم نبلاؤه ورجالاته هفلخ ، اسكلز ، وث ، رونث ، هلفا ، ثم مقاتلوه ومحاربوه الشجعان : هلفدان ، ادغشه ، رثل ، هلتف ، وهرغر(١) . وكنت انا بينهم ، غير قادر على التكلم بلغتهم او فهم طرقهم ، لان مترجمى كان قد ترك ايضا فلم يكن لى سوى الصدفة ورحمة الله التى جعلت من احدى مقاتليهم ، وهو هرغر رجلا ذا معرفة ومحيطا ببعض اللغة اللاتينية .

وهكذا كنت أستطيع ان افهم من هرغر معنى الحوادث التى تلت . كان هرغر محاربا شابا مرحا شديد المرح ، وكان يبدو وكأنه يجد نكتة فى كل شيء ، وخاصة فى اسأى وحزنى عند الرحيل .

هؤلاء الشماليون هم حسب تقديرهم أفضل بحارة الدنيا ، ولقد رايت مدى حبهم للمحيطات والمياه يشع من ملامحهم . اما عن السفينة فهاكم وصفها : كان طولها قدر خمسة وعشرين خطوة وعرضها ثمانية واكثر من ذلك قليلا . كانت ممتازة البناء ومصنوعة من خشب البلوط . ربما كان لونها اسود من كل ناحية وفى كل جبهة . وكانت مجهزة بشراع مربع الشكل من القماش المزركش ييجبال مصنوعة من جلد الفئمة(٢) . وكان موجه الاشرعة يقف على مصطبة صغيرة بجانب مؤخرة السفينة ويشد دفة متصلة بجانب

(١) يلاحظ هنا ان وولف غار قد بقى مع اهل الشمال ولم يمد مع بيولف . يعلق جنسن على ذلك قائلا بان اهل الشمال كانوا عادة ياخذون الرسول رهينة . ولهذا « كان الرسل المناسيون أبناء ملوك او نبلاء عال المقام او أشخاصا ذوى قيمة فى مجتمعهم ، مما كان يجعلهم راضين مناسين » . اما اولاف جركنسون فيدعى بان وولف غار ما بقى هناك الا خوفا من العودة معهم .

(٢) كان بعض المؤلفين القدامى يعتقدون بان هذا كان يعنى ان الشراع كان مزودا بحبل يدخل فى الشراع ويخرج منه على شكل الخياطة ، وهناك رسوم ولوحات من القرن الثانى عشر تظهر اشرعة الفايكنج وعليها زركشة من العبال . ليس هناك من دليل على ان الحالة كانت كذلك . ما عناه ابن فضلان ان هذه الاشرعة كانت مطرزة بالمفهوم النوتى ، اى انها موجهة فى افضل زاوية لالتقاط الريح وذلك باستعمال خيال جلد الفئمة كمرابط .

السفينة على الطريقة الرومانية . كانت هذه السفينة مزودة بالمجاديف لكنها لم تستعمل ابدا ، ولكن كنا نتقدم بواسطة الاشرعة لوحدها . وعند مقدمة السفينة كان هناك نحت خشبي يمثل رأس وحش بحرى رهيب ، كتلك التى نراها عادة على بعض سفن اهل الشمال . وكان هناك ايضا ذيل فى المؤخرة . وفى الماء كانت هذه السفينة قوية ثابتة والرحلة فيها ممتعة ، كما أن ثقة المحاربين بانفسهم قد رفعت من معنوياتى الى حد كبير .

وعند موجه السفينة كان هناك فراش من الجلود مرتبة فوق شبكة من الحبال وفوقه غطاء من الجلد ايضا . كان ذلك هو فراش بيولف ، أما المحاربون الآخرون فقد كانوا يتأمنون هنا وهناك على ظهر السفينة بعد أن كانوا يتلفعون بالجلود ، وقد فعلت أنا مثلهم .

أبحرنا لمدة ثلاثة أيام فى النهر وقد اجتزنا الكثير من البلدان والمستوطنات الصغيرة على ضفتيه . لكننا لم نتوقف فى أى منها . ثم وصلنا الى معسكر كبير فى منعطف من نهر الفولجا . وهنا كان مئات من الناس ، كما كانت هناك مدينة كبيرة الحجم ، وفى مركزها كان هناك كنيسة (كرملى) وقلعة لها جدار من الطين وذات أبعاد كبيرة . سألت هرغر عن هذا المكان فقال لى : « هذه هى مدينة البلغار فى مملكة الصقالبة وذلك هو قصر بلطوار ملك الصقالبة » . أجبت « هذا هو الملك ذاته الذى أرسلت لأقابه كممثل لخليفتى » وبكثير من التوسلات طلبت أن أنزل الى الشاطئ لأقوم بالمهمة التى كلفنى بها خليفتى ، كما طلبت ذلك ايضا وبكثير من مظاهر الغضب حتى درجة الوقاحة .

لكن رجال الشمال لم يعيرونى أى انتباه ، ولم يتنازل هرغر حتى للإجابة على تساؤلاتى ومطالبى ، وأخيرا نظر الى ضاحكا بسخرية ثم عاد ووجه انتباهه الى أشرعة السفينة . وهكذا أبحرت سفينة الشماليين بجانب مدينة البلغار وقريبة من الشاطئ الى حد كنت أسمع فيه صياح التجار وغماء الغنم ، ومع ذلك كنت بلا حول ولا قوة سوى مشاهدة ذلك المنظر بعينى . وبعد مرور ساعة حاولت مرة ثانية ولكن طلبى رفض ايضا ، إذ أن مدينة البلغار كانت على

منعطف من النهر كما قلت سابقا . وسرعان ما غابت عن ناظري . وهكذا دخلت ثم غادرت بلغاريا (ربما أصبح القاريء الان مشوشا الى حد كبير حول جغرافية المنطقة . فبلغاريا الحديثة هي احدى دول البلقان ، تحدها اليونان ويوغسلافيا ورومانيا وتركيا . ولكن من القرن التاسع الى القرن الخامس عشر الميلادى كانت هناك بلغاريا اخرى على ضفتى الفولجا وعلى بعد حوالى ستمائة ميل شرقى موسكو الحديثة . وذلك هو المكان الذى كان يقصده ابن فضلان . اما بلغاريا التى كانت على الفولجا فكانت مملكة مهلهلة رغم بعض الاهمية ، كما ان عاصمتها بلغار كانت شهيرة وغنية عندما احتلها المغول فى عام ١٢٣٧ م ويعتقد بان بلغاريا الفولجا وبلغاريا البلقان كانتا ماهولتين بمجموعات عرقية متشابهة من المهاجرين الذين انطلقوا من مناطق حول البحر الاسود خلال الفترة ما بين ٤٠٠ - ٦٠٠ م . ولكن المعلومات عن هذا الموضوع قليلة نادرة . وتقع مدينة البلغار القديمة فى منطقة قازان الحديثة) .

مضى ثمانية ايام اخرى ونحن فى السفينة ومازلنا فى نهر الفولجا وكانت اليابسة أصبحت اكثر جبلية ووعورة حوالى حوض النهر . والان وصلنا الى رافد آخر من روافد النهر يسمى الشماليون نهر اوكر ، وهنا اتجهنا الى الرافد الواقع على اقصى اليسار ثم استمرينا فى رحلتنا عشرة ايام اخرى . كان الهواء باردا جدا وكانت الرياح قوية وكان الكثير من الثلج ما يزال يغطى الارض . وكانت هناك غابات كثيرة هائلة الحجم فى هذه المنطقة التى يسميها الشماليون فادا .

وصلنا الى معسكر لاهل الشمال اسمه ماسبورنج . كان هذا اقل مما يمكن تسميته بلدة ولكنه معسكر من مجموعة قليلة من البيوت الخشبية مبنية بحجوم كبيرة على طريقة اهل الشمال . وتعيش هذه المدينة على بيع المواد الغذائية للتجار الذين يقصدونها عبر هذا الطريق . وفى ماسبورنج غادرنا سفينتنا وسافرنا برا على ظهر الخيول لمدة ثمانية عشر يوما . كانت هذه منطقة جبلية وعرة شديدة البرودة وكنت مرهقا بسبب طول الرحلة . وهؤلاء الشماليون لا يسافرون ليلا ابدا ، كما انهم نادرا ما يبحرون ليلا ، لكنهم يفضلون

ان يرسوا سفنهم فى كل مساء وينتظرون بزوغ فجر اليوم التالى قبل استئناف الرحيل .

الا انه رغم ذلك وقعت الواقعة التالية : خلال فترة ترحالنا تلاشت فترة الليل الى حد لم يعد يكفى لطبخ اكلة من اللحم خلاله . وقد كان يبدو لى اننى ما اكاد استلقى لانام حتى يوقظنى الشماليون قائلين « انهض لقد طلع النهار يجب ان نستأنف رحلتنا » . كما لم يكن النوم منشطا للقوى فى هذه الاماكن الباردة .

اوضح لى هرغر ان النهار فى بلاد الشمال يكون طويلا فى الصيف ويكون الليل طويلا فى الشتاء ، وانه قادرا ما يكونان متساويين . ثم قال لى انه على ان اراقب السماء ليلا لارى ستارة السماء اضاءا شاحبة متراقصة خضراء وصفراء واحيانا زرقاء وهى معلقة وكأنها ستارة فى اعلى الجو . وقد دهشت اعظم الدهشة لمنظر ستارة السماء ولكن اهل الشمال لا يعدونها شيئا غريبا .

ثم تابعنا السير لمدة خمسة ايام اخرى ونحن نهبط الجبال حتى وصلنا منطقة من الغابات . وغابات بلاد الشمال باردة كثيفة فيها اشجار ضخمة هائلة . كما انها ارض رطبة باردة . وفى بعض المناطق هى من الخضرة بحيث تتالم العيان من بهر الالوان ، اما فى مناطقها الاخرى فهى سوداء مظلمة مربعة .

تابعنا السير لسبعة ايام اخرى خلال الغابات وقد واجهنا الكثير من المطر . وغالبا ماتكون طبيعة هذا المطر ان يسقط بغزارة تسبب الشعور بالخوف . وبين مرة واخرى كنت اظن اننى ساعرق ، فقد كان المطر غزيرا لحد كان فيه الهواء نفسه مملوعا بالمطر . وفى فترات اخرى ، حينما كانت الرياح تقلف المطر كان يبدو وكأنه عاصفة رملية يقرص لحومنا ويحرق عيوننا ويعمى ابصارنا . (اما وان ابن فضلان قادم من منطقة صحراوية فلا عجب ان تبهره الوان الخضرة الساطعة والمطر الغزير)

الفصل السابع

لم يكن هؤلاء الشماليون يخافون اللصوص ابدا فى الغابات وسواء كان ذلك بسبب قوتهم الهائلة او ندرة عصابات اللصوص فاننى فى الواقع لم اشاهد احدا فى هذه الغابات . فسكان بلاد الشمال قليلون

من كل صنف أو هكذا بدا لى خلال ترحالى هناك . وكنا غالبا ما نساfer
لمدة سبعة أيام أو عشرة دون أن نرى مستوطنة واحدة أو مزرعة أو
منزلا .

استمرت رحلتنا على الوجه التالى : كنا نستيقظ فى الصباح ودون
وضوء أو غسل كنا نمتطى جيادنا ونستمر فى السفر حتى منتصف
النهار . ثم كان بعض المحاربين يصطادون لنا صيدا حيوانا
كان أو طيرا . اذا كان الوقت ممطرا كان هذا الطعام
بؤكل دون طبخ . . . ولقد هطل المطر غزيرا لمعدة
أيام ، وفى أول الامر رضىت بأكل اللحم نيئا ، والذي لم يكن ذبعا
حللا ، ولكننى بعد فترة اكلته أيضا وأنا أقول « باسم الله » بصوت
هامس ، وأنا أدمو الله أن يتفهم مصابى . وعندما لم تكن تمطر ،
كانوا يوقدون نارا فى منقل كانوا يحملونه معهم ثم يطبخون الطعام
عليه . ولقد اكلنا أنواع التوت والأعشاب التى لا أعرف اسمها .
ثم استأنفنا رحيلنا فى الجزء الاخير من النهار والذي كان لا بأس
بطوله ، وحتى هبوط الليل حين كنا نقف لترتاح وناكل .

وكثيرا ما كانت تمطر فى الليل ، فكنا نبحت عن ملجا تحت الاشجار
الباسقة ، ومع ذلك فقد كنا ننهض مبليين وجلود نومنا مبللة أيضا .
ولم يتشكك أهل الشمال من كل هذا بل كانوا مرحين مبتهجين
طوال الوقت . كنت أنا الوحيد الذى أشكو وبغضب . لكنهم لم
يعيرونى أى اهتمام .

وأخيرا قلت لهرغر : « المطر بارد » فضحك ثم قال : « كيف
يمكن أن يكون المطر باردا ؟ أنت البارد وانت التمس . اما المطر
فليس باردا ولا تقيسا » .

كان واضحا لى انه كان يؤمن بهذه الحماقة ، وكان يظننى حقا
أحمقا أن أفكر بغير تفكيره ، ومع ذلك بقيت على تفكيرى .

ثم حدث فى ليلة من الليالى وبينما كنا نأكل أن قلت بادنا طعامى
« باسم الله » ، فسأل بيولف هرغر عما قلت . أخبرت هرغر أننى
أعتقد بأنه يجب ذكر اسم الله على الطعام ، وأننى فعلت ذلك
انسجاما مع معتقداتى . فقال لى بيولف « أهذا هو أسلوب
العرب ؟ » وكان هرغر هو المترجم .

فأجبت بما يلى : « كلا . فى الحقيقة ان الذى يدبج اللبiche هو

الذى يجب أن يذكر اسم الله . ولكننى أقول هذه الكلمات لنا
انسى » .

وقد وجد الشماليون فى هذا سببا للضحك فضحكوا من أعماق
قلوبهم . ثم التفت الى بيولف قائلا « هل تستطيع أن ترسم
الاصوات ؟ » لم افهم قصده اولا فاستفسرت من هرغر ، ثم كار
هناك حديث تداوله الاثنان ، واخيرا فهمت انه كان يعنى الكتابة
فاهل الشمال يسمون حديث العرب ضجيجا او أصواتا . أجبت
بيولف اننى أستطيع الكتابة كما أستطيع القراءة . قال انه على أن
اكتب له على الأرض . وعلى ضوء نار المساء ، أخذت عصا وكتبت
« الحمد لله » . نظر جميع الشماليين الى الكتابة ثم أمرت أن أقول
ما تعنيه ففعلت . وفجأة حلق بيولف فى الكتابة لمدة طويلة ورأسه
غارق فى صدره .

قال لى هرغر ، « أى اله هذا الذى تحمده ؟ » فأجبت باننى
أحمد الإله الذى اسمه الله .

فقال هرغر « اله واحد لا يكفى » .

استأنفنا الرحيل ليوم آخر وقضينا ليلة أخرى ثم يوما آخر ،
وفى مساء اليوم التالى تناول بيولف عصا ورسم على الأرض ماكنت
قد رسمته له وطلب الى أن أقرأها . فقلت بصوت عال « الحمد
لله » . ظهرت ملامح الرضا على وجه بيولف لهذا ، وقد وجدت انه
كان يمتحننى وقد احتفظ فى ذاكرته بالرموز التى رسمتها لى
يربنى أياها مرة أخرى .

أما اكثغو وهو مرافق بيولف ، ولكنه محارب أقل مرحا من
الاخرين شديد المراس ، فقد خاطبنى بواسطة المترجم هرغر . قال
هرغر « ان اكثغو يرغب أن يعرف ان كنت تستطيع أن ترسم صوت
اسمه » .

فقلت اننى أستطيع ذلك ، وأخذت عصا وبدأت أرسم على
التدارات . وفجأة قفز اكثغو واطاح بالعصا وداس على كتابتى وهو
يردد كلمات غاضبة .

قال لى هرغر « لا يرغب اكثغو أن تكتب اسمه فى أى ظرف كان .
يجب أن تعد بذلك » .

وهنا انتابتنى الحسرة . وقد رايت ان اكثفوا كان غاضبا منى
اشد الغضب . كما كان الآخرون يحدقون بى بقلق وغضب وعدت
هرغر ألا أرسم اسم اكثفو أو اسم أى من الآخريين . عند هذا بدا
الارتياح على وجوه الجميع .

لم يناقش بعد هذا موضوع كتابتى أبدا ، لكن بيولف ، وكلما
كانت تمطر ، كان يأمر ان أساق الى شجرة كبيرة كما صار يقدم
لى المزيد من الطعام عما كان قبلا .

لم تكن ننام دائما فى الغابات كما لم تكن دائما نركب خيولنا
عبرها . فعند أطراف بعض هذه الغابات كان بيولف ورفاقه
المحاربون يندفعون الى الامام وجيادهم تعدو خلال الاشجار الكثيفة ،
دون اهتمام أو احساس بالخوف . ومع ذلك فعند غابات أخرى
كان يشد اللجام ويتوقف ، وكان المحاربون يترجلون ثم يحرقون
نارا ويقدمون قرايين من الطعام وبعض أرغفة الخبز القاسى ، أو ربما
يقدمون منديلا من القماش كقربان قبل ان يستأنفوا السفر . ثم
يمتطون جيادهم دائرين حول طرف الغابة دون ان يدخلوا الى
أعماقها .

استفسرت من هرغر عن هذا ، فأجاب بأن بعض هذه الغابات
كانت آمنة وان بعضها لم يكن كذلك ، ولكن ايضاحه لم يتجاوز
هذا الحد . فسألته « ما هو الذى غير أمين فى الغابات التى تعتبر
كذلك ؟ » فأجابنى بما يلى : « هناك اشياء لا يستطيع انسان ان
يقهرها ولا يستطيع بسيف ان يقتلها ، ولا تستطيع نار ان تحرقها ،
ومثل هذه الاشياء تعيش فى الغابات » . قلت « وكيف تتم معرفة
ذلك ؟ » . هنا ضحك وقال « انتم العرب ترغبون دائما ان تكون
عندكم الاسباب لكل شئ . وقلوبكم كيس كبير مملوء بالاسباب » .
فقلت « وانتم الا تهتمون بالاسباب ؟ » فقال « انها لا تجدى شيئا .
نحن نقول يجب ان يكون الانسان حكيما باعتدال ولكن ليس مفرط
الحكمة حتى لا يعرف قدره مسبقا . فالانسان الذى يكون عقله
متحررا من الاهتمام والحرص لا يعرف قدره مسبقا » .

هنا قلت انه لا بد لى من ان ارضى بجوابه . ففى الواقع فى بعض
المناسبات كنت اثير بعض التساؤلات وكان هرغر يجيب عليها .

وحين لم اكن افهم جوابه كنت الح فى السؤال وكان هو يفصل الجواب . ولكن فى بعض الاحيان حينما كنت اثير بعض التساؤلات كان يجب باقتضاب كما لو كان سؤالى بلا معنى . وعندها لم اكن الح فى سؤالى ، اذ لم اكن اتلقى من جواب سوى هزة من راسه . واستأنفنا الرحيل . واستطيع ان اقول بحق ان بعض الغابات فى بلاد الشمال العذراء كانت تثير احساسا بالخوف لم اكن ادري له سببا . ففى الليل وبينما الشماليون متحلقون حول النار كانوا يقصون قصصا عن التنين والوحوش القاتلة ، ويحكون الحكايا ايضا عن اجدادهم الذين قتلوا هذه المخلوقات وكانوا يقولون ان هذه هى مصادر خوئى انا . ولكنهم كانوا يروون القصص دون اى مظاهر الخوف ، اما هذه الوحوش فلم ار اثرا لها بعينى .

فى احدى الليالى سمعت دمدمة حسبتها رعدا ولكنهم قالوا انها صوت عويل التنين فى الغابة . لست اعلم حقيقة هذا ولكنى ادون ما قيل لى .

بلاد الشمال باردة رطبة ، وقلما ترى الشمس فيها ، فالسمااء رمادية تغطيها السحب الكثيفة طيلة النهار . والناس فى هذه المناطق شاحبو الوجوه وكانها قماش قطنى ، اما شعورهم فشقاء شديدة الشقرة . بعد ايام عديدة من السفر لم اعد اشاهد اناسا سمرا على الاطلاق ، وفى الحقيقة كان سكان هذه المناطق يستغربون لون جلدى وشعرى الاسود . وكثيرا ما اقترب منى مزارع او زوجته او ابنته ليلمسونى بشئ من الحذر والخوف . وكان هرغر يضحك ويقول انهم كانوا يحاولون ازالة لوني اعتقادا منهم باننى طليته على لحمى . انهم قوم جهلاء لا علم لهم بسمة هذا العالم . وكثيرا ما خافونى وتحاشوا الاقتراب منى . وفى احدى الاماكن الذى لا اذكر اسمه صاح طفل فى رعب قاتل وجرى ليتعلق بامه عندما رآنى .

عندها ضحك محاربو بيولف بفرحة طاغية . ولكنى لاحظت الان انه مع مرور الايام توقف محاربو بيولف عن الضحك ، واصيبوا بنوبة مزاج سيئ كانت تزداد يوما بعد يوم . وقد قال لى هرغر انهم كانوا يفكرون بالشراب الذى كنا قد حرمناه منه لايام عديدة .

وفى كل مزرعة او منزل كان بيولف ومحاربوه يسالون عن الشراب

الإنا هذه المناطق الفقيرة نادوا ماكان فيها شراب فكانوا يصابون
بخبية امل عظيمة ، حتى اختفى كل اثر للمرح على وجوههم .

الفصل الثامن

وبعد عناء طويل وصلنا قرية وجد فيها المقاتلون الشراب فاذا كل
رجال الشمال مخمورون في رمشة عين وهم يشربون بطريقة صاخبة
غير عابئين بالشراب الذي كان ينسكب على لحاهم وثيابهم وهم
يشربون . وفي الحقيقة فان أحد افراد المجموعة ، المحارب المتزن
اكتشف غرق في الشراب حتى سكر وهو لا يزال على حصانه وسقط
وهو يحاول التبرجل فرفسه الحصان في راسه ، وخفت على سلامته
ولكن اكتشف ضحك ورد رفسة الحصان برفسة مثلها .

بقينا في هذه القرية طيلة يومين ، وقد دهشت لذلك لانه في الماضي
كان المقاتلون يظهرون استعجالا كبيرا وجدية في رحلتهم ، الا انهم
هجرنا كل ذلك الان مستسلمين الى الشراب والنوم العميق . وفي
اليوم الثالث امر بيولف بان نستأنف الرحيل فتحرك المحاربون وأنا
بينهم ، ولم يعدوا خسارة يومين بالشئ القريب .

لم أهد متاكدا من عدد الايام التي قضيناها في السفر ، الا اننى
اذكر أننا غيرنا خيولنا خمس مرات بخيول جديدة ، وكنا ندفع ثمن
هذه الخيول في القرى ذهابا أو اصدافا صغيرة خضراء قيمتها عندهم
اثمن من اى شئ آخر في هذا العالم . وبعد عناء طويل وصلنا الى قرية
اسمها لنبرغ تقع على شاطئ البحر . كان البحر رماديا مغبرا ،
وكذا السماء ، كما كان الهواء باردا قارسا . هنا ركبنا سفينة
جديدة .

كانت هذه السفينة ذات مظهر شبيه بمظهر السفينة الاولى ولكن
اكبر حجما وكان الشماليون يسمونها هسبون ، اى عنزة البحر ،
وذلك لان هذه السفينة كانت تشب على الامواج كما يشب ذكر الماعز
على عنزته ، ولان هذه السفينة كانت سريعة ولان عند هؤلاء الناس
كان الماعز هو الحيوان الذى يرمز الى السرعة .
كنت خائفا من ركوب هذا البحر ، فمياها عاتية باردة شديدة

البرودة ، فاذا غطست يد انسان في هذا البحر فانها تصاب بالخدر في رمشة عين ، كان مخيفا باردا . ومع ذلك فقد كان الشماليون مرحين وقد تبادلوا النكات وشربوا طيلة المساء في قرية لنبرغ البحرية وتمعوا انفسهم بكثير من النباء والاماء . وقد قيل لى أن هذه هي عادة اهل الشمال قبل القيام برحلة بحرية ، اذ لا يعرف احد ان كان سيبقى حيا حتى آخرها ، وهكذا فانه ينزل الى البحر باقصى ما يستطيع من المتعة .

في كل مكان وصلناه كنا نستقبل بكرم لا يعرف الحدود ، فالكرم عند هؤلاء القوم فضيلة كبرى حتى ان افقر الفلاحين كان يضع كل ما عنده امامنا ، يفعل ذلك دون خوف من ان تقتله او تسرقه ولكن بطيبة وكرم عال . ولقد علمت ان الشماليين لا يتحملون ابدا اللصوص والقتلة بين قومهم ويعاملون مثل هؤلاء الناس بقسوة بالغة . وهم يعتقدون بهذا رغم حقيقة كونهم دائما مخمورين يشفون كالحيوانات البلهاء ويقتلون بعضهم البعض في مبارزات حامية . ومع هذا فانهم لا ينظرون الى هذه المبارزات على انها جريمة قتل ، اما من يقتل منهم رجلا فانه يقتل فوراً .

وبنفس الطريقة يعاملون عبيدهم معاملة طيبة للغاية ، مما اثار عجبى . اذا مامرض احد العبيد او مات بسبب مصيبة ما ، فانهم لا يعدون ذلك خسارة كبيرة ، كما ان النساء الجوارى عليهن ان يكن دائما مستعدات للاستجابة لطلب اى رجل في العلن او في الخفاء وليلا ونهارا . ليس عندهم اى عواطف تجاه العبد ، ومع ذلك فلا يعاملونهم يوحشية ايضا ، فاسيادهم يطعمونهم ويلبسونهم دائما (١) .

وفيما بعد علمت ان اى رجل يستطيع ان يتمتع باية جارية ، الا ان زوجة احط المزارعين تقابل بمزيد من الاحترام من قبل زعماء ونبلاء الشماليين كاحترام هؤلاء الزوجات بعضهم البعض . فمحاولة اغتصاب امرأة حرة المولد ليست عبدة هي جريمة تكراه يحكم على الرجل بسببها بالشنق ، مع اننى لم ار هذا مطلقا .

(١) ماكتبه شهود عيان آخرون لا يتفق مع وصف ابن فضلان لمعاملة العبيد وللملاقات الجنسية . ولذلك فان بعض المراجع تشك في صداقته كمراتب اجتماعى . وفي الواقع ربما كان هناك اختلافات محلية كبيرة بين قبيلة وأخرى في اعراف معاملة العبيد والزوجات الزانيات .

ويقال أن العفة بين النساء هي فضيلة كريمة ، ولكننى قلما رأيتها تمارس ، فالزنا لا يعتبر قضية خطيرة ، وإن كانت زوجة أى رجل على المقام أو خفيضة شهوانية فإن نتائج ذلك لا تعتبر أمرا ذا بال . فهؤلاء القوم متحررون جدا فى هذه القضايا ، ويقول رجال الشمال أن النساء ماكرات ولا يمكن الوثوق بهن . ويبدو أنهم قد استسلموا لهذا الامر ويتحدثون عنه بأسلوبهم المرح المعتاد .

سألت هرغر أن كان متزوجا فقال أن له زوجة . سألت بحلر بالغ أن كانت عفيفة فضحك فى وجهى وقال : « أنا أسافر فوق البحار ، وقد لا أعود ، وقد أغيب سنوات طويلة . وزوجتى ليست ميتة » . من هذا أدركت أنها لم تكن مخلصة ، ولكنه لم يابه لذلك . ولا ينظر أهل الشمال الى أى وليد على أنه نفل أو ابن زنا أن كانت الام زوجة . اما أطفال العبيد فهم أحيانا عبيد وأحيانا أحرار ، ولا أعرف كيف يقرر هذا الامر .

فى بعض المناطق يعلم العبيد بعلامة هي قرط للأذن . وفى مقاطعات أخرى يرتدى العبيد عقدا من الحديد حول أعناقهم يحدد مكانتهم الاجتماعية . وفى بعض المناطق أيضا لا يوجد على العبيد أى علامات تدل عليهم وتلك هي العادة المحلية .

والعلاقات الجنسية الشاذة ليست معروفة بينهم ، مع أنهم يقولون بأن اقواما أخرى تمارسها ، اما هم أنفسهم فيدعون بأنهم لا يهتمون بالامر ، وحيث أن مثل هذا لا يحدث بينهم فليس غنبدهم عقاب له .

هذا وكثير غيره علمته من احاديثى مع هرغر ، ومن مشاهداتى لترحال جماعتنا . كما رأيت أيضا أن كل مكان كنا نرتاح فيه كان الناس يسألون بيولف عن المهمة التى قطعها على نفسه . وعندما كانوا يخبرون بطبيعتها - والتى لم أدركها حتى الآن - فإنه ومخاريبه وأنا من بينهم كنا نحاط بأعظم الاحترام يرفعون صلاتهم دعاء بالتوفيق لنا ، كما يقدمون لنا اضحياتهم والحجب المحملة باطيب التمنيات .

وفى البحر ، كما قلت سابقا ، يصبح الشماليون فرحين طروبين ، رغم أن المحيط كان عاتيا صاخبا ورهيبا بالنسبة لى ، وايضا

بالنسبة لمعدتي ، التى كانت تصاب دائما بالغثيان والاضطراب . وفى الحقيقة افرغت معدتي مرة ثم سالت هرغر لم كان هو واصحابه فرحين الى هذا الحد .

قال هرغر « لآنا سنكون عما قريب فى بيت بيولف ، Yatlam المكان المعروف باسم يتلم ، حيث يعيش والده وامه وكل اقاربه ، والذين لم يرههم منذ زمن بعيد . » فقلت مجيبا « ان نذهب الى بلاد وولف غار ؟ » واجاب هرغر « نعم ، ولكنه من المناسب ان يتجه بيولف ليؤدى فروض الطاعة لوالده ولامه ايضا . » رابت فى وجوههم ان كل النبلاء الاخرين والمحاربين كانوا فرحين قدر ماكان بيولف نفسه كذلك . فسالت هرغر عن سبب ذلك فاجاب « بيولف رئيسنا ونحن سعيديون لسعادته وللقوة التى سيمتلکها عما قريب . » سألته عن القوة التى تحدث عنها فاجاب « انها قوة رندنج » ، فسالت ايضا « وما هذه القوة ؟ » فاجاب قائلا « انها قوة الاجداد ، انها قوة المردة » .

يعتقد اقوام الشمال انه فى عصور خلت كان العالم ماهولا بعرق من الناس المردة الذين اختفوا منذ تلك الايام . ولا يعتبر الشماليون انفسهم احفادا لهؤلاء المردة ، ولكنهم ورثوا بعضا من قوى هؤلاء المردة الاقدمين ، وبطرق لا افهمها تماما كما يؤمن هؤلاء الوثنيون بآلهة عديدة ، والذين هم ايضا آلهة مردة ، ولهم ايضا قواهم الخارقة ، لكن المردة الذين تحدث عنهم هرغر كانوا رجالا مردة ، ولم يكونوا آلهة ، او هذا ما بدا لى على الاقل .

فى تلك الليلة رسونا عند شاطئ صخرى مؤلف من احجار بحجم قبضة الانسان ، وهناك عسكر بيولف مع رجاله وبقوا حتى الهزيع الاخير من الليل يشربون ويفنون حول النار . وقد اشترك هرغر فى الاحتفال ولم يكن عنده من الصبر مايكفى ليترجم لى معنى الاغاني ، ولهذا لم ادر ماذا غنوا ، لكنهم كانوا سعداء . ففى صبيحة اليوم التالى سيحلون فى دار بيولف ، فى موطن بيولف المسمى يتلم .

رحلنا قبيل طلوع الفجر ، وكان البرد من القسوة بحيث شمردت بعظامي ثن ، وكان جسمي يتألم من قساوة الشاطئ الصخرى . وكنا نساغر فوق بحر صاخب وفى رياح عاتية . ابهرنا طيلة الصباح ،

وخلال هذه الفترة كان حماس الرجال يتزايد شيئا فشيئا حتى غدوا كالأطفال أو كالنساء . ولقد كان عجبيا غريبا على أن أرى هؤلاء المحاربين الاقوياء يقهقهون ويضحكون كحريم الخليفة ، ومع ذلك لم يجدوا في ذلك مايؤذي رجولتهم .

كانت هناك نقطة على الشاطئ عبارة عن نتوء صخري عال من الحجر الرمادي جاثم على البحر المغبر ، وقد أخبرني هرغر بأن وراء هذه النقطة تقع بلدة يتلم . حاولت جهدى عبثا أن أرى بيت بيولف الاسطوري حين استدارت سفينة الشماليين حول الجرف . اما المحاربون فكانوا يضحكون ويزيد صياح ابتهاجهم ففهمت أنهم كانوا يلقون نكات وقحة كثيرة عن خططهم للتمتع بالنساء عندما ينزلون من السفينة .

ثم كانت هناك رائحة دخان فوق البحر وبعد ذلك رأينا الدخان ، وفجأة صمت الجميع وكان على رؤوسهم الطير . عندما التفطنا حول تلك النقطة رأيت بام عيني أن تلك البلدة كان يلفها لهيب خانق ودخان اسود معتم . ولم يكن هناك أى اثر للحياة .

نزل بيولف ورجاله من السفينة ومشوا عبر بلدة يتلم . كانت منثورة هنا وهناك جثث الرجال والنساء والأطفال . وقد التهم بعضها اللهب بينما قطع بعضها الآخر السيوف - اكوام واكوام من الجثث . لم ينطق بيولف ورجاله ببنت شفة ولكن حتى في هذه الحالة لم يكن هناك اثر للحزن أو للبكاء أو للالام لم أر في حياتي قط قوما يتقبلون الموت كما يتقبله اهل الشمال . حتى انا نفسي أصبت بالفشيان مرات عديدة لمشاهد القتل والدمار ، ولكنهم لم يعانون مثل هذه الحال أبدا .

وأخيرا قلت لهرغر ، « من فعل هذا ؟ » اشار هرغر الى أعماق اليابسة ، الى الغابات والتلال المتباعدة عن المحيط المغبر . كانت هناك كتل من الضباب فوق الغابات اشار اليها هرغر دون أن ينطق بحرف . سألته « هل هي كتل الضباب ؟ » فقال « لا تسأل أكثر من ذلك . ستطلع على الحقيقة بسرعة تفوق حتى رغبتك . »

والان حدث الاثنى : دخل بيولف احد البيوت المدمرة التى كان يتصاعد منها الدخان ، ثم عاد اليها يحمل سيفا ضخما هائلا . كان

السيف من الضخامة والثقل ، والحرارة القوية التي تركتها فيسه النيران ماجمله يحمله وقد لف حول مقبضه قطعة من القماش . وللحقيقة اقول كان ذلك اكبر سيف رايت في حياتي . فقد كان بطول جسمه وكان حده مبسطا واسعا يشبه راحتي رجلين وضعتا جنبيا الى جنب . وكان كبيرا ضخما الى حد ناء تحت حمله حتى بيولف نفسه . سألت هرغر عن هذا السيف فقال « ذلك هو رندنج » ، ثم امر بيولف بأن تتوجه كل الجماعة الى السفينة فانطلقنا في عباب البحر ثانية . لم يلق اى من المحاربين نظرة وداع على المدينة المحترقة ، « بتلم » ، انا وحدي فعلت ذلك فرايت الدمار يعلوه الدخان ورايت كتل الضباب على التلال المحيطة فيما وراء ذلك .

الفصل التاسع

الاقامة في تولبرغ

على مدى يومين كاملين ابحرنا على طول شاطئ منبسطة ما بين جزر كثيرة تسمى ارض الدانز ، ثم وصلنا أخيرا الى منطقة من المستنقعات فيها معابر من انهر صغيرة تصب في البحر . هذه الانهار لا اسم لها لكن كلا منها يسمى ويك أو فيك ، واسماء اهالى مناطق هذه الانهار الضيقة هي الفاينجج أو الواينجج ، والتي تعنى بالنسبة لاهل الشمال المحاربين الذين يبحرون بسفنهم على طول هذه الانهار ويهاجمون المستوطنات بطريقة الفاينجج (١) .

في هذه المناطق المستنقعية توقفنا في مكان يسمونه تولبرغ ، كان بالنسبة الى اعجوبة من العجائب . فلم تكن هناك بلدة بالمعنى الصحيح ، ولكن كان هناك معسكر حربي ، واهله كانوا محاربين معهم القليل من النساء والاطفال . وكانت دفاعات معسكر تولبرغ هذا تبني بحرص ومهارة كبيرين على طراز البناء الرومانى .

(١) هناك بعض الجدل بين العلماء الحديثين حول اصل كلمة « فاينجج » ولكن معظمهم يوافقون ابن فضلان على رايه بانها مشتقة من كلمة فيك Vlk والتي تعنى نهرا ضيقا ضيقا .

تقع ترلبرغ عند ملتقى نهرين يصبان بمد ذلك في البحر .
والجزء الاساسى من البلدة محاط بسور دائرى من الطين ويطلو
خمسـة رجال يقفون فوق بعضهم البعض . وفوق هذه الحلقة
الطينية كان يقوم سياج خشبى يؤمن حماية اكبر . اما خارج هذه
الحلقة الطينية فكان هناك حفرة مملوءة بالماء لم أعرف عمقها .

هذه المنشآت الترابية كانت مصنوعة بشكل ممتاز ، وفيها
تناسق ونوعية من الجودة لا ينافسها اى شيء أعرفه . وكان هناك
ايضا مايلى : في الجانب المحاذى لليابسة من البلدة كان هناك سور
عال على شكل نصف دائرة وكان هناك حفرة ثانية ورائه .

اما المدينة نفسها فتقع ضمن اطار الحلقة الاولى التى يشقها
اربعة ابواب ، بمواجهة زوايا الارض الاربـع . وكل بوابة مجهزة
بابواب قوية من خشب البلوط لها مفاصل ثقيلة من الحديد ،
ويحرسها رجال كثيرون . كما ان كثيرا من الحرس يتجولون فوق
المتاريس والاسوار ، ويقومون بالحراسة والمراقبة ليل نهار .

هناك داخل اسوار البلدة ستة عشر منزلا خشبيا متشابهة تماما :
كلها بيوت طويلة ، كما يدعواها اهل الشمال ، لها جذران منحنية
بشكل يشبه القوارب المقلوبة وقد قطعت نهاياتها وبسطت في المقدمة
والمؤخرة . طولها ثلاثون خطوة وهى اكثر اتساعا في جزئها الوسط
منها في النهايتين . وهى مرتبة على الوجه التالى : كل اربعة بيوت
طويلة تقام بشكل محكم الترتيب بحيث تشكل مربعا . وهكذا ترتب
اربـع مربعات ليكون مجموعها ستة عشر بيتا (١) .

كل بيت طويل له مدخل واحد ، ولا يمكن ان يكون مدخل اى
من البيوت على مرأى من البيت الاخر . سالت عن سبب ذلك ،
فاجاب هرغر قائلا : « اذا هوجم المعسكر ، فيجب على الرجال ان
يسرعوا الى مواقع الدفاع ، وتكون الابواب عادة وبهذا الشكل مرتبة
بشكل يمكن الرجال من الاسراع الى مواقع دفاعهم دون اختلاط أو

(١) هناك من يؤكد صحة كلام ابن فضلان عن طريق الدليل الانارى (الاركيولوجى)
ففى عام ١٩٤٨ تم التنقيب واكتشاف الموقع المعسكرى لترلبرغ فى زيلندة الفريية فى
الدانمرك . . . والموقع يتطابق تماما مع وصف ابن فضلان لخيم وطبيعة وتركيب
المستوطنة .

اضطراب ، بل على العكس يستطيع كل واحد منهم أن يثقل بحرية وسرعة ليأخذ موقعه في الدفاع .

وهكذا فانه ضمن المربع الواحد يكون باب أحد البيوت متجهها الى الشمال ، والذي يليه الى الشرق ، والذي بعده الى الجنوب والرابع الى الغرب ، وهكذا ايضا هي الحال في كل من المربعات الأربع .

ثم اني رأيت انه في حين أن هؤلاء الشماليين كانوا ضخاما مرده ، فقد كانت هذه البوابات أو المداخل منخفضة جدا كنت حتى انا اضطر معها لان انحنى عند الدخول الى أحد هذه البيوت فسالت هرغر عن سبب ذلك فأجابني « اذا ما هوجمنا يمكن أن يبقى محارب واحد داخل البيت . وبسيفه يستطيع قطع رءوس كل من يحاول دخول البيت . فالباب منخفض جدا بحيث يضطر أى داخل أن يرسل رأسه أولا فيتم قطعه . وفي الحقيقة وجدت أن ترلبرغ في كل مجالات الحياة كانت بلدة مصممة للحرب والدفاع . لم تكن تجري أية تجارة هنا كما قلت سابقا . أما داخل البيوت الطويلة فهناك داخل كل بيت ثلاثة أقسام أو غرف ولكل منها باب . والغرفة الوسطى هي الأكبر وفيها حفرة لالقاء الزباله .

أدركت الآن بأن أهل ترلبرغ لم يكونوا كالشماليين المقيمين على نهر الغولجا . فهؤلاء كانوا قوما نظيفين بالنسبة لعرقيهم . فقد كانوا يغتسلون في الانهار ، ويتخلصون من فضلاتهم خارج الابواب في العراء وكانوا في كل مجال أكثر تفوقا مما عرفته من قبل . ومع ذلك لم يكونوا نظيفين بكل معنى الكلمة اللهم الا من باب المقارنة .

أما مجتمع ترلبرغ فمعظمه من الرجال ، والنساء كلهن جواري اذ ليس هناك من زوجات بين النساء ، كما أن كل النساء هناك يتم الاستمتاع بهن بحرية وحسب رغبة الرجال . ويعيش أهل ترلبرغ على السمك وبعض الخبز القليل ، وهم لا يقومون بأية زراعة أو فلاحة ، رغم أن الاراضي المستنقعية المحيطة بالبلدة تحوى مناطق ملائمة للزراعة . سألت هرغر لماذا ليس هناك زراعة فأجابني قائلا « هؤلاء محاربون . انهم لا يحراثون الارض » .

استقبل بيولف ورفاقه استقبالا رائعا من قبل زعماء ترلبرغ الذين كانوا عديدين ، والذين كان اكثرهم صدارة واحد يسمى ساغارد . وساغارد هذا رجل قوى عنيف وضخم ضخامة بيولف نفسه تقريبا .

وخلال وليمة المساء استفسر ساغارد من بيولف عن مهمته واسباب سفره فاخبره بيولف عن تضرعات ورجاءات وولف غار . وكان هرغر يترجم لى كل ما يقال رغم انى فى الواقع كنت قد قضيت بين هؤلاء الوثنيين وقتا كافيا لاتعلم كلمة واحدة او اثنتين من لغتهم هاكم معنى الحديث الذى جرى بين ساغارد وبيولف . تحدث ساغارد فقال : « من المعقول والمنطقي بالنسبة لبيولف ان يقوم بمهمة الرسول ، رغم انه ابن الملك روث غار ، لان أبناء روث غار العديدين قد انقلبوا بعضهم على بعض » .

اجاب بيولف بانه لم يكن يعرف شيئا عن هذا او شيء بهذا المعنى ولكنى لاحظت بانه لم يكن شديد الدهشة لذلك . كان بيولف نادرا ما يصاب بالدهشة من اى شيء . فقد كان هذا من جملة متطلبات دوره كزعيم وقائد للمحاربين وبطل لهم .

تحدث ساغارد ثانية فقال « فى الحقيقة رث غار له خمسة أبناء ، مات ثلاثة منهم على يدى واحد منهم هو وغلف المكار (1) الذى كان شريكه فى المؤامرة منادى الملك العجوز . وولف غار وحده هو الذى بقى مخلصا وقد غادره الان » . اجاب بيولف ساغارد بانه كان سعيدا لان يسمع بهذه الاخبار وانه سوف يبقيا فى ذاكرته ، وانتهى الحديث عند هذا الحد . ولم يظهر بيولف ولا اى من رجاله اية دهشة لكلمات ساغارد ، فهمت من هذا انه من المعتاد ان يتخلص أبناء الملك بعضهم من بعض ليصلوا الى العرش .

(1) الكلمة المستعملة هنا كانت حرفيا « رجل يجيد استعمال يديه الاثنتين » كما يستطيع فيما بعد كان الشماليون مزدوجى الايدى فى الحرب ، وكانت القدرة على قتل السلاح من يد الى اخرى تعتبر حيلة زائفة . وهكذا فان تميع « يجيد استعمال يديه الاثنتين » يعنى انه رجل مكار او ماهر . وقد اعطيت كلمة زبقي معنى مشابه ، بينما تعنى الان « خداع مناورة » ، ولكن فى السابق كان لها معنى اكثر ايجابية اى « صاحب موارد وليفة » او « كثير المناورة » .

وصحيح ايضا انه من وقت لآخر قد يقتل الولد اباه الملك ليصل الى العرش ، ولا يعتبر أمرا غريبا اذ ينتظر اليه الشماليون كما ينظرون الى اى شجار بين سكارى المحاربين . ويردد اهل الشمال مثلا شعبيا يقول « انظر خلفك » وهم يعتقدون بأن على كل انسان ان يكون مهيئا دائما لان يدافع عن نفسه ، حتى بالنسبة لوالد تجاه ولده .

عند رحيلنا سألت هرغر لماذا بنى تحصين آخر فى القسم المعتد صوب اليابسة من ترلبرغ ولم يبنوا تحصينا اضافيا كهذا باتجاه البحر . فهؤلاء الشماليون قوم جوابون للبحار بل ويهاجمون من البحر ، ومع ذلك اجاب هرغر قائلا « انها الارض ، انها اليابسة التى هى مصدر الخطر » . فسألته « ولماذا تكون الارض خطرة ؟ » فاجاب « بسبب كتل الضباب » .

الفصل العاشر

عند رحيلنا من ترلبرغ قام المحاربون المجتمعون هناك بضرب بطماثهم على تروسهم مسببين بذلك ضجة كبيرة وكله من أجل سفينتنا التى كانت قد نشرت قلووعها . وقد اخبرت بانهم يفعلون ذلك لجر انتباه اودن ، احد آلهتهم لكى يرعى اودن هذا يعطفه رحلة بيولف ورجاله الاثنى عشر .

ثم علمت هذا ايضا : وهو ان الرقم ١٣ هو رقم ذو اهمية كبرى بالنسبة لاهل الشمال ، لان القمر ينمو ثم يصبح هلالا ثم يموت ثلاث عشر مرة فى العام فى حسابهم . ولهذا السبب فان كل حساباتهم المهمة يجب ان تحوى على الرقم ١٣ . وهكذا اخبرنى هرغر بان عدد مساكنهم فى ترلبرغ كان ثلاثة عشر يضاف اليها ثلاثة اخرى بدل ان يقول ستة عشر كما عبرت عنها انا من قبل .

واكثر من ذلك علمت ان لدى الشماليين عقيدة مفادها السنة لا تتفق تماما وبدقة مع ثلاثة عشر مرورا للقمر ، ولهذا فان الرقم ١٣ ليس ثابتا ومثبتا فى عقولهم فمروده الثالث عشر يسمى بالسحرى

او الاجنبى ، ويقول هرغر « ولهذا اخترناك وجلسنا الثالث عشر باعتبارك رجلا أجنبيا » .

والحقيقة ان هؤلاء الشماليين قوم يؤمنون بالخرافات دون رجوع الى المنطق أو العقل أو القانون وكانوا يبذون لعينى وكأنهم اطفال متوحشون ، ومع هذا فقد كنت بينهم ولهذا سكنت عن كل تعليق . وسريعا ما اكتشفت لشدة سرورى مدى حصافتى فى هذا الامر ، لان الأحداث بدأت تجرى على الشكل التالى : كنا قد ابهرنا لبعض الوقت مبتعدين عن ترلبرغ عندما استذكرت انه لم يحدث قط من قبل ان قدم سكان بلدة ما طقوس الرحيل بالضرب على التروس لاستدعاء اودن . تحدثت بهذا لهرغر فاجاب : « هذا صحيح فهناك سبب خاص للدعاء لاودن لاننا الان فوق بحر الوحوش » وقد بدا لى ذلك برهانا على ايماناتهم الخرافية : سألت عما اذا كان اى من المحاربين قد رأى مثل هذه الوحوش . فقال هرغر « فى الحقيقة لقد رأيناها جميعا . والا فكيف نعرفها ؟ » .

ومن نبرات صوته كنت أستطيع ان اميز انه كان يعتبرنى احمقا لشكى فيما يقول .

ومر بعض الوقت قبل ان اسمع صياحا ثم ارى محاربى بيولف واقفين وهم يشيرون الى البحر يراقبون بامعان ويتصايحون فيما بينهم . سألت هرغر عما حصل ، فقال وهو يشير الى البحر « نحن بين الوحوش الان » .

كان المحيط فى هذه المنطقة هائجا هادرا ، والريح تعصف بقوة مرعبة ، محيلة امواج البحر الى زبد ابيض تبصق الماء فى وجه البحار وتلمب حيل المخادعة لبصره . راقبت البحر عدة دقائق ولكننى لم ار منظر وحش البحر ، ولم يكن لدى اى سبب لتصديق ما قالوا .

ونجاة صاح احدهم وهو يدعو الى اودن ، يصرخ مصليا ويكرر الاسم مرات عديدة باستعطاف وتضرع ، وعندها فقط رأيت وحش البحر بمعنى ، كان على شكل افعى هائلة الحجم لم ترفع رأسها ابدا فوق سطح البحر ، ولكننى رأيت جسمه يتقلب ويتلوى ، وقد كان طويلا جدا اطول واعرض من سفينة الشماليين ، وكان لونه

أسود . بصق وحش البحر الماء فى الهواء وكأنه ينبوع ثم اندفع نحو الأعماق رافعا ذيله الذى كان مشطورا إلى شطرين وكأنه لسان افعى ذو شعبتين . وكان هائلا ، حتى ان كل قسم من ذلك الدليل كان اعرض من اعرض واكبر اى من سعف النخيل .

ثم رايت وحشا آخر ثم آخر ثم آخر بعده ، يبدو انه كان هناك اربعة او ستة منها او سبعة ، وكل منها كان يتصرف بكيفية اقرانه يتلوى فى الماء ويبصق نافورة ثم يرفع ذيله الهائل المشطور شطرين . وعند رؤيتهم له صاح الشماليون طالبين العون من اودن ، وركع عدد غير قليل منهم على ركبهم يرتجفون على ظهر السفينة .

ولقد رايت بعينى وحوش البحر فى كل مكان حولنا فى المحيط ، ثم بعد مرور بعض الوقت ذهبت جميعا ولم نرها مرة اخرى . واستأنف محاربو بيولف جهدهم فى تسيير السفينة ، ولم يذكر اى منهم الوحوش ، ولكنى كنت مصابا بهلع شديد لمدة طويلة بعدها ، وقال لى هرغر ان وجهى كان ابيض بياض وجه رجل من الشمال ثم ضحك وسألنى « ماذا يقول الله فى هذا ؟ » وهو سؤال لم استطع الاجابة عليه (١) .

فى المساء رسونا عند الشاطئ واشعلنا نارا ، ثم سالت هرغر عما اذا كانت وحوش البحر قد هاجمت سفينة فى البحر ، وان كان ذلك قد حدث فكيف تم ذلك ، لاننى لم استطع رؤية راس اى تلك الوحوش فاجابنى هرغر بمناداته على اكثفو ، والذى هو احد النبلاء ومرافق بيولف . كان اكثفو محاربا جادا وقورا لم يكن يظهر المرح الا حينما كان يسكر وقد قال هرغر انه كان على احدى السفن التى هوجمت . وقد قال لى اكثفو ان وحوش البحر اكبر من اى شىء على سطح اليابسة واكبر من أية سفينة فى البحر ، وهى حين تهاجم فانها تدخل تحت السفينة وترفعها فى الهواء ثم تقلدتها

(١) هذا الوصف لما هو دون شك رؤية الحيتان هو امر يشك فيه كثير من العلماء . ويظهر هذا الوصف فى مخطوطة الراى كما اوردناه هنا ، ولكنه اقصر من ذلك بكثير فى ترجمة سوغرن ، والذى يبدو فيه الشماليون وكأنهم يدبرون مقلا ولكتة واضحة يلعبونها على المريى . ولكن علماء آخرين ، يشكون ، فى ان يكون ابن فضلان غير مطلع او غير عالم بوجود الحيتان ، كما يبدو من وصفه هذا .

كقطعة من الخشب ثم تحطمها بلسانها المشعب . وأضاف اكثفو بأنه كان يوجد ثلاثون بحارا على سفينته ، ولكن لم ينج منهم الا اثنان بالاضافة اليه هو وما ذلك الا بعون الالهة ورحمتها . وقد تحدث اكثفو بطريقة طبيعية جدا ، والذي كان بالنسبة اليه امرا بالغ الجدية ، وقد صدقت انه كان يقول الحقيقة .

كما اخبرني اكثفو بأن الشماليين يعرفون بأن الوحوش تهاجم السفن لانها (اى الوحوش) ترغب فى الزواج بالسفينة ، اذ يظنونها احدى اناثهم . ولهذا لايبنى الشماليون سفنهم بحجوم كبيرة .

كما قال لى هرغر بأن اكثفو محارب عظيم مشهور بمعاركه ، كما يجب تصديقه فى كل شيء .

على مدى اليومين التاليين ابخرنا بين جزر بلاد الدان ، وفى اليوم الثالث عبرنا ممرا مائيا مفتوحا . وهنا كنت خائفا من رؤية وحوش بحرية اخرى ، لكننا لم نر شيئا من هذا ، بل وصلنا فى آخر المطاف الى مقاطعة تسمى فندان . وبلاد فندان هذه جبلية وعرة مرعبة ، وقد تقدم رجال بيولف بالصلوات وبقربان كان عبارة عن دجاجة ذبحت والقيت فى اليم القى الرأس من على مقدمة السفينة ، اما الجسد فقد القى من مؤخرتها بجانب مسير الدفة .

لم نرس مباشرة عند ارض فندان الجديدة هذه ، ولكننا ابخرنا على طول الساحل ، حتى وصلنا فى آخر الامر الى مملكة روث غار . هكذا رايتها اول مرة : كانت تجثم فوق جرف عال تطل على منظر البحر المزدحم الهائج الكامد . كان هناك قاعة كبيرة هائلة مصنوعة من الخشب ، قوية مهيبة . قلت لهرغر انه كان منظرا رائعا لكن هرغر وكل رفاقه بقيادة بيولف كانوا يدمدمون ويهزون رؤوسهم . سألت هرغر لم كانوا يفعلون ذلك . فأجاب « روث غار يدعى روث غار المختال ، وقاعته الكبرى هذه هى دليل او علامة رجل مغرور . » فسألت : « لم تتحدث بهذا الشكل ؟ اهو بسبب حجمها وروعها ؟ » اذ كلما اقتربنا كنت ارى بوضوح اكبر ان القاعة كانت غنية بالزخارف والتماثيل الفضية التى كانت تتلأل من بعيد .

اجابنى هرغر قائلا « كل ما اقله هو ان روث غار مغرور مختال

بسبب الطريقة التى اقام فيها مستوطنته فى هذا المكان . فهو يتحدى
الالهة ان تقدر على تحطيمه ، يدعى بأنه أكثر من مجرد انسان وهو
الان يعاقب على كل ذلك » .

لم ار فى حياتى قط قاعة عظيمة ملأى بكل ما هو رائع ونفيس
كتلك القاعة فقلت لهفر « هذه القاعة لا يمكن مهاجمتها ، اذ كيف
يمكن تحطيم روث غار ؟ » ضحك هفر ساخرا منى وقال : « انتم
العرب اغبياء فوق كل تصور ، ولا تعرفون شيئا عن اسرار هذه
الدنيا . ان روث غار يستحق الاسى الذى اصابه ونحن فقط الذين
نستطيع انقاذه ، وحتى نحن ربما لن نستطيع » .

وقد زادت هذه الكلمات من دهشتى ، فالتفت الى اكثرو مرافق
بيولف ووجدت أنه كان يقف فى السفينة محسبا ولا رسم معالم
الشجاعة على وجهه ، ومع ذلك فقد كانت ركبتاه ترتجفان ، وقطعا
لم تكن قساوة الريح هى التى جعلته يرتجف بهذا الشكل . لقد
كان خائفا ، كانوا جميعا خائفين ولكن لم أعرف سبب خوفهم .

الفصل الحادى عشر

مملكة روث غار فى بلاد الفندان

رست السفينة على الشاطئ وقت صلاة العصر ، فاستغفرت
الله لاننى لم اقم بالصلاة والدعاء . ومع ذلك لم يكن بإمكانى ان افعل
ذلك بحضور الشماليين ، الذين كانوا يظنون ان صلواتى لعنات
عليهم وهددوا بقتلى ان انا صليت على مرأى منهم .

ارتدى كل مقاتل فى السفينة دروع الحرب ، التى كانت على
الشكل التالى : أولا الحذاء ثم طماق من الصوف الخشن ، وفوق
هذا معطف من الفراء السميك كان يصل الى الركبتين . وفوق هذا
وضعوا دروعا كالمصاطف ، التى كان كل واحد منهم يرتديها
سواى . ثم اخذ كل منهم سيفه وعلقه فى حزامه ، ثم حملوا تروسا
مصنوعة من الجلد ، ورمحا ، ثم ارتدى كل منهم خوذة من المعدن

او الجلد فوق راسه (١) وفى كل هذا كان كل المحاربين متساوين باستثناء بيولف ، الذى كان يحمل سيفه فى يده ، وكم كان سيفاً ضخماً هائلاً :

نظر المحاربون عالياً باتجاه القاعة الكبرى للملك روث غار مظهرين اعجاباً شديداً بالسقف المتألق ومهارة الصنع الفائقة ، واتفقوا على انه ليس كمثلها فى الكون ، بقبيها العالية ونحوتها الفنية . ومع ذلك فلم يكن هناك أى احترام فى حديثهم عنها .

وبعد طول انتظار نزلنا من السفينة ، وغدينا السير على طريق مرصوف بالحجر حتى القاعة الكبرى . وقد سببت قرقعة السيوف وتصادم التروس ضجة عالية . بعد ان اجتازنا بعض المسافة رأينا على جانب الطريق رأس ثور مقطوع ومعلقا على عصا . وكان واضحاً ان الحيوان قد قتل حديثاً .

تنهد الشماليون. بعمر ورسموا علامات الكآبة على وجوههم لهذا المنظر الذى لم يكن يعنى شيئاً بالنسبة لى . مع حلول هذا الوقت كنت قد تكيفت الى حد كبير مع عاداتهم فى قتل بعض الحيوانات عند اقل ثورة غضب او اشارة . ومع ذلك فان رأس الثور هذا كان عندهم معنى خاص .

اشاح بيولف بوجهه بعيداً موجهها بصره صوب حقول اراضى روث غار ، وهناك رأى بيتاً ريفياً منعزلاً من النوع المألوف فى اراضى روث غار . كانت جدران هذا البيت مصنوعة من الخشب ، وقد احكم اغلاق ثقبها بمجينة مصنوعة من الطين والقش ، الذى كان يجب ان يجدد بعد هطول الامطار المتكرر . كما ان السقف مصنوع من مادة عازلة مضافة الى الخشب . اما داخل البيت فلم يكن هناك سوى ارض ترابية وموقد اضافة الى روث الحيوانات ، لان الفلاحين ينامون مع حيواناتهم داخل البيوت طلباً للدفع الذى تشعه أجساد

(١) يظهر الوصف الشائع للاسكندنافيين ، يظهرهم وهم يرتدون خوفاً ذوات قرون . هذه مفارقة تاريخية او عارضة شاذة فى سياق التاريخ ، ففي زمن زيارة ابن فبسلان لم تكن مثل هذه الخوذات قد استعملت للتعزيز على الاف عام ، أى منذ العصر البرونزى الاول .

هذه الحيوانات ، ومن ثم يحرقون الروث لاشعال الثيران .
امر بيولف بأن نتجه الى ذلك البيت الريفي ، فانطلقنا عبر الحقول
التي كانت خضراء رغم انها كانت مشبعة بالرطوبة تحت اقدامنا .
وفي أكثر من مرة توقفت الجماعة لتتفحص الأرض قبيل استئناف
السير ، لكنهم لم يروا شيئا ذا قيمة بالنسبة لهم . اما انا شخصيا
فلم ار شيئا مطلقا .

الا ان بيولف عاد فاوقف الجماعة وأشار الى بقعة من الأرض
سوداء داكنة . وهناك رأيت بعيني آثار اقدام عارية - اقدام كثيرة
جدا . كانت اقداما مسطحة لم ار في الخلق ما هو أبشع منها .
فعند كل اصبع من اصابع القدم كنت ترى حفرة تدل على ظفر أو
مخالب كالفرن . وهكذا فقد كانت الاشكال تبدو بشرية ، ولكنها لم
تكن بشرية أيضا . لقد رأيت ذلك بعينين هاتين رغم أنني لم اكد
اصدق ما كانت تراه عيناي .

هز بيولف ومحاربوه رؤوسهم الى المشهد ، ثم سمعتهم يكررون
كلمة واحدة مرات ومرات : « وندول » أو « وندلون » أو كلمة
قريبة من ذلك . لم أدرك معنى هذا الاسم ، ولكنني أحسست بأنه
لا يجوز سؤال هرغر في تلك اللحظة ، لانه كان جزعا جزع الآخرين
كلهم . تابعنا السير باتجاه البيت الريفي ، وكنا نرى بين وقت
 وآخر آثارا جديدة لهذه الاقدام القرنية الاظفار على الأرض . كان
بيولف ومحاربوه يمشون ببطء ، ولكنه لم يكن بطئا مصدره الحذر
اذ لم يستل أحدهم سيفه ، الا انه كان نوعا من الخوف لم أدرك
كنهه ، غير اني مع ذلك شعرت بما يشعرون .

واخيرا وصلنا الى المنزل الريفي ودخلناه . وفي داخل ذلك
المنزل رأيت ، ويا هول ما رأيت ! رأيت بعيني هذا المشهد الرهيب:
كان هناك رجل في مقتبل العمر متناسق الجسم رشيقه ، كان
جسده قد مزق اربا اربا . كان الجلد في مكان والذراع في مكان
والرجل في مكان . وكان الدم مسكوبا في برك سمكة على الأرض
وعلى الجدران وعلى السقف وعلى كل سطح داخل البيت بشكل
بدا معه البيت وكأنه طلى بالدم الاحمر . وكانت هناك أيضا امرأة
وقد قطعت أيضا بنفس الطريقة . وكان هناك طفل ذكر عمره

ما يقارب العامين فصل رأسه عن جسده وقد ترك الجسد كتلة دامية .

كل هذا رأيته بعيني ، وكان أروع منظر شاهدته في حياتي .
أفرغت معدتي من الرهبة وأغمي على قرابة ساعة أو أكثر عدت بعدها لأفرغ معدتي ثانية بصورة لا ارادية .

مهما عشت لن أدرك عقلية هؤلاء الشماليين ، لأنني حتى وأنا مغشى على كانوا هم يزادون هدوءا وثمنا لمشهد هذا الرعب . كانوا ينظرون لكل ما يرونه بهدوء عجيب : ناقشوا آثار المخالب على أعضاء الأجساد الممزقة وطريقة تمزيق اللحم البشري . كما وجهوا انتباهها خاصا لكون جميع الرؤوس كانت قد اختفت ، وايضا لاحظوا بانتباه أكثر المناظر بشاعة وشيطانية من كل ما راوا والذي حتى وأنا أكتب عنه في هذه اللحظة أشعر برعب شديد وهلع : كان جسد الطفل الذكر قد مضغ بأنياب شيطانية رهيبة من ناحية اللحم الطرى على أعلى الفخذ ، كما مضغت بنفس الطريقة منطقة الكتف . لقد رايت هذا المنظر الرهيب بأمر عيني .

بدأت الرهبة والوقار على وجوه مقاتلي بيولف وكانوا يدمدمون غضبا وهم يغادرون البيت الريفى . كما استمروا في توجيه انتباه شديد الى الأرض الطرية حول البيت ، وقد لاحظوا أنه لم تكن هناك آثار حوافر خيول . بدأ وكان هذا أمرا ذا أهمية كبرى بالنسبة اليهم . لكننى لم أفهم السبب ، كما لم أفر ذلك أى اهتمام اذ كنت مازلت خائر القوى ضعيف القلب وأهن الجسد .

وبينما نحن نعبث الحقول اكتشف اكتشفوا اكتشافا كان على شكل قطعة صغيرة من الحجر أصفر من قبضة طفل وكانت مصقولة ومنحوتة بطريقة فجأة . تجمع المحاربون ليستمعوا فيها وكنت أنا بينهم . وجدت أنه كان جذع أنثى حامل . لم يكن له رأس ولا ذراعان ولا ساقان ، بل الجذع فقط ببطن منتفخ كبير وفوقها ثديان منتفخان متدليان (١) . وكان هذا المخلوق في رأيي فجأ قبيحا الى أبعد الحدود ولم يعن لى شيئا أكثر من ذلك . أما الشماليون فقد أصيبوا فجأة

(١) هذا التمثال الموصوف يتطابق الى حد كبير مع منحوتات عديدة اكتشفها علماء الآثار في فرنسا والنمسا .

بعندمة جعلتهم يبدون شاحبين من الجبن والخوف ، وكانت ايديهم تهتز وهى تقترب لتلمس التمثال حتى القى به بيولف الى الارض اخيرا وحطمه بقبضة سيفه ، فانتشر على الارض قطعاً متناثرة من الحجر . وبعدها اصيب عدد من المحاربين بالفتيان وافرغوا معداتهم اذ كان الهلع عظيماً جداً بينهم دون ان افهم لذلك سبباً .

انطلقنا جميعاً باتجاه قاعة الملك روثغار . لم ينطق اى منهم بحرف طيلة الرحلة التى استغرقت قرابة ساعة ، فقد كان كل واحد من الشماليين يبدو وكأنه متلفع بأفكار مريرة استغرقت كل حواسه ، ومع ذلك فلم تبد عليهم اى من مظاهر الخوف .

واخيراً استقبلنا مناد من منادى الملك على ظهر حصان قاطعاً علينا الطريق . اشار الى الاسلحة التى كنا نحملها والى ملامح جماعة بيولف ، ثم صاح بكلمات انذار .

خاطبني هرغر قائلاً : « انه يريد ان يعرف اسماءنا وبسرعة أيضاً » . اجاب بيولف المنادى ، ومن لهجة حديثة ادركت ان بيولف لم يكن على مزاج يسمح بالاحاديث الودية . قال لى هرغر « اخبره بيولف باننا من رعايا الملك هفلغ ، من مملكة يتلم ، ونحن قد اتينا بمهمة من اجل الملك روثغار ونود ان نتحدث اليه شخصياً » ثم اضاف هرغر قائلاً « يقول بيولف ان روثغار ملك عظيم » ، لكن لهجة هرغر كانت توحى بعكس ذلك .

رجانا هذا المنادى ان نستأنف سيرنا الى القاعة الكبرى وننتظر هناك بينما يتجه هو لىبيء الملك بوصولنا . فعلنا ماطلب رغم ان بيولف ورجاله لم يكونوا مسرورين من هذه المعاملة ، بل كان هناك دمدمة وبهمهمة وعدم رضى ، لان من عادة الشمالى ان يكون كريماً مضيفاً ولم يبد هذا التصرف مهذباً اذ ابقوا فى الخارج . ومع ذلك فقد انتظروا بعد ان خلعوا اسلحتهم وسيقوهم ورماعهم دون اللدروع وتركوها جميعاً خارج ابواب القاعة الكبرى .

الفصل الثانى عشر

كانت القاعة محاطة من كل الجوانب بمساكن متعددة على طريقة اهل الشمال . وكانت هذه البيوت طويلة محدبة الجوانب كما كانت

الحال في تولبرغ ، الا انها كانت مختلفة من حيث الترتيب فلم يكن هنا اى مربعات بين البيوت ، كما لم يكن هناك اى تحصينات أو خنادق محفورة . وبدلا من ذلك كانت الارض بدءا من القاعة الكبرى والبيوت المحيطة بها تنحدر على شكل سهل أخضر منبسط طويل يتخلل هنا وهناك بيت ريفى أو آخر ، ثم تاتى بعد ذلك وفيما وراء هذا السهل التلال واطراف الغابات .

استفسرت من هرغر عن هم اصحاب هذه البيوت الطويلة ، فقال لى « بعضها يخص الملك ، وبعضها الاخر يخص العائلة المالكة ، وبعضها يخص النبلاء ، كما أن بعضها يقيم فيه الخدم وموظفو البلاط الأدنى رتبة » . كما قال ايضا انه مكان صعب ولكنى لم ادرك ماكان يعنيه بهذا .

ثم اذن لنا بالدخول الى قاعة الملك روثغار الكبرى والتي وجدت حقا انها تعد من عجائب العالم الكبرى ، وما يزيد في ذلك كونها واقعة في بلاد الشمال العذراء . وقد كانت تسمى بين قوم روثغار باسم هاروت ، لان اهل الشمال يعطون اشياء حياتهم استثناء بشر كما يعطون هذه الاسماء للابنية والسفن وخاصة للأسلحة . وانى اقول بحق ان هاروت هذه ، اى قاعة روثغار العظيمة ، كانت بحجم قصر الخليفة كله ، ومطعمة بالفضة وحتى ببعض الذهب والذي هو معدن نادر جدا في بلاد الشمال . وفي كل جانب منها كانت هناك رسومات وزينات كما تكون اروع الزينات والرسومات وروعة الفن . كانت في الحقيقة نصبا يرمز الى قوة الملك روثغار وعظمته .

اما الملك روثغار هذا فقد جلس في النهاية القصوى لقاعة هاروت، والتي كانت من السعة بحيث بدا الملك بعيدا الى حد لم نستطع ان نراه الا بصعوبة . وكان يقف عند كتفه الايمن نفس ذلك المنادى الذى اوقفنا . القى المنادى خطابا ترجمه لى هرغر على الشكل التالى : « هاهنا ايها الملك عصبة من المحاربين جاءوا من مملكة يتلم . وقد وصلوا حديثا من البحر ، واما قائدهم فرجل يسفى يبولف . وهم يطلبون الاذن لهم بان يحدنوك عن مهمتهم . ايها الملك لا تجرمهم من الدخول ، فلهم اخلاق النبلاء ومن ملامح زعيمهم ارى انه مقاتل

شجاع . فعاملهم كنبلاء أيها الملك روثغار . » وهكذا طلب الينا الاقتراب من الملك .

بدا الملك روثغار رجلا يقترب بسرعة من الموت . لم يكن شابا ، بل كان شعره ابيض ناصع البياض وكان جلده شاحبا شديدا الشحوب وكانت أخايد وجهه يملؤها الاسى والخوف . نظر الينا نظرة ريبة وشك وهو يجعد عينيه أو ربما انه كان اعمى أو يكاد فلم استطع التاكيد من ذلك . وأخيرا بدا يلقي خطابا قال لى هرغر ان فحواه كالتالى : « انا اعرف من هو هذا الرجل ، لاننى ارسلت بطلبه ليقوم بمهمة بطل . انه بيولف وقد عرفته طفلا حين سافرت عبر البحار الى مملكة يتلم . انه ابن هفلغ الذى كان مضيفى الكريم وهذا هو ابنه يأتى الى الان ساعة الحاجة والالم . »

ثم دعا روثغار المحاربين للاجتماع فى القاعة الكبرى حيث قدمت الهدايا وأقيمت الاحتفالات .

بعدها التى بيولف خطابا طويلا لم يترجمه هرغر لى ، اذ كان التحدث اثناء القاء بيولف خطابه يعتبر مظهرا من مظاهر قلة الاحترام . وعلى كل حال فقد كان المعنى كالاتى : وهو ان بيولف قد سمع بمشاكل روثغار ، وانه كان أسفا حزينا لهذه المشاكل ، وان مملكة ابيه هو قد هدمت بسبب هذه المشاكل نفسها ، وانه قد اتى الان لينقذ مملكة روثغار من الشياطين التى حلت بها فاقلقتها . وحتى الان لم اكن قد عرفت ماذا يسمى هؤلاء الشماليون اولئك الشياطين ، أو كيف ينظرون اليهم ، رغم انى رايت افعال هؤلاء الوحوش الذين يقطعون الرجال اربا .

ثم تحدث الملك روثغار ثانية وبشئ من التردد . ادركت من طريقة حديثه انه كان يرغب فى ان يقول بعض كلماته قبل ان يصل محاربوه ونبلأؤه . هذا ماقاله وترجمه لى هرغر : « يا بيولف ، لقد عرفت اباك يوم كنت انا نفسى رجلا شابا حديث العهد بالعرش . وانا الان عجوز كسير القلب منحنى الراس عيناي تبكيان خجلا وانا اعترف بضعفى . فكما ترى يكاد عرشى يكون بقعة جرداء ، وارضى أصبحت اماكن موحشة . ولست ادرى ماتضمرة الشياطين لمملكتى . وغالبا مايقسم محاربى اثناء الليل وقد اثار شجاعتهم الخمرة -

يقسمون بأن يحطموا هذه الشياطين . الا انه ما أن تزحف أضواء
الفجر المظيرة فوق الحقول الضبابية حتى نرى الاجساد المدماة في
كل مكان . ذلك هو مصدر الاسى في حياتي ، ولن اتحدث عنه بعد
هذا أبدا .

ثم اتى بطاولة خشبية كبيرة صفت عليها ألوان الطعام ، بينما
كنت أسأل هرغر مامعنى كلمة « الشياطين » التي ردها الملك .
غضب هرغر وهددنى بعنف ان انا سألته أى سؤال آخر .

في ذلك المساء اقيمت حفلة كبرى ترأسها الملك روثغار وملكته
ويليو التي كانت ترتدى ثوبا يتلألأ بالأحجار الكريمة والذهب . ترأس
الملك والملكة احتفال النبلاء والمحاربين في مملكة روثغار . هؤلاء
المحاربون كانوا قوما تافهين حقيرين ، كانوا رجالا مسنين كثيرى
الشراب ، كما ان الكثيرين منهم كانوا كسبيين أو جرحى . وفي عيني
كل منهم كانت تسكن نظرة خوف فارغة ، وكان هناك فراغ وعقم
في فرحتهم ايضا .

ثم كان هناك الابن المسمى وغلف ، الذى تحدثت عنه سابقا ، وهو
ابن روثغار الذى قتل ثلاثة من اشقائه . كان هذا الشاب صغير
السن رشيق القوام ذا لحية شقراء وعينين لم تكونا تستقران على
شيء بل تقفزان باستمرار من شيء الى آخر ومن مكان الى آخر ،
كما أنه لم يكن لينظر الى أحد ينظر في وجهه أبدا . رآه هرغر فقال :
« انه ثعلب » . وعنى بذلك أنه زئبقى متغير متلون وداهية مكر ،
لان أهل الشمال يعتقدون أن الثعلب حيوان يستطيع أن يتخذ أى
صورة يريد .

وفي منتصف هذه الاحتفالات أرسل روثغار مناديه الى ابواب
قاعة هاروت ، فعاد هذا المنادى ليخبره بأن الضباب لن يحل في ذلك
المساء . فعمت الفرحة الكبيرة لدى سماع الخبر بأن المساء سيكون
صافيا ، وسر الجميع الا وغلف .

وفي لحظة معينة نهض وغلف على قدميه وقال ، « انى أشرب
نخب ضيوفنا ، وخاصة بيولف ، وهو المحارب الشجاع الحق الذى
اتى لمؤازرتنا في وقت المحنة - رغم أنها قد تثبت أنها معضلة

سينستحيل عليه حلها . « همس هرغر بهذه الكلمات في اذني ،
فادركت انها كانت مديحا واهانة في نفس الوقت .

التفتت كل العيون الى بيولف انتظارا لجوابه . وقف بيولف ونظر
الى وغلف ثم قال « لست اخاف من اى شيء على الاطلاق ولا حتى
من الشيطان الغر الذي يزحف ليلا ليقتل الناس اثناء نومهم . »
ادركت من هذا انه يشير الى « الوندول » ، لكنى رايت وجه وغلف
ينقلب شاجبا ويده تقبض بشدة على الكرسي الذي كان يجلس عليه .
« هل تقصدني انا ؟ » صاح وغلف بلسان مرتجف . فأجاب بيولف
بما يلي : « كلا ولكنى لا اخافك ابدا كما لا اخاف وحوش الضباب » .

واستطرد الشاب وغلف متحمدا مع ان الملك روثغار دعاه
للجلوس . خاطب وغلف كل النبلاء الحاضرين قائلا : « ان بيولف
هذا ، والذي وصل الينا من شواطئ اجنبية بعيدة ، يملك كما هو
واضح فخرا عظيما وقوة اعظم . الا اننى رتب الامر لامتحان
حماسه ، اذ كثيرا ما يعنى الصلف والخيلاء عيني اى انسان » .

في هذه اللحظة رايت محاربا قويا كان يجلس الى الطاولة قرب
الباب خلف بيولف ، رايته ينهض بسرعة ليستل رمحه ويفرزه في
ظهر بيولف . حدث كل هذا في اقل من الوقت اللازم لشهقة . التفت
بيولف رافعا رمحه ثم غرزه في صدر المقاتل رافعا اياه على سارية
الرمح فوق راسه ثم ضربه بالحائط . وهكذا تسمر المحارب في
الحائط بواسطة الرمح بينما قدماء تتدليان فوق الارض وهو يرفس
بهما . كان قضيب الرمح مدفونا كله في جدار قاعة هاروت ، وقد
مات المحارب دون أن ينطق بحرف .

الفصل الثالث عشر

حدثت الان ضجة كبيرة حين التفت بيولف مواجهها وغلف ثم قال
« هكذا ساقضى على كل شر » ثم تحدث هرغر بصوت جهرير موجها
عدة اشارات الى . شعرت بالاضطراب بسبب هذه الاحداث ، وفي
الحقيقة كانت عيناه مثبتتين على ذلك المحارب الميت المسمر الى
الجدار . ثم التفت هرغر الى وقال باللاتينية « عليك أن تغنى اغنية

لبلاط الملك روثغار : فالكل يرغب في ذلك . « سألته « وماذا أغنى؟
لست أعرف ولا أغنية . « فأجاب بما يلي « عليك أن تغنى شيئاً يسر
القلب . « ثم أضاف « لا تقل شيئاً عن الهك الواحد ، فليس هنا
من يهتم . « وفي الحقيقة لم اكن أعرف ماذا أغنى ، فلم اكن مغنياً
في حياتي . مضى وقت محرج بينما الكل يحدقون بى ثم عم القاعة
صمت كامل . وهنا قال لى هرغر « غن أغنية ملوك وبطولات فى
المعارك . « قلت اننى لا أعرف مثل هذه الاغنيات ولكنى أستطيع
ان احدثهم بقصة خرافية والتي كانت تعتبر فى بلادى مضحكة مسلية .
قال انى أحسنت الاختيار ، فأخبرتهم - الملك روثغار وملكنه ويلىو
وابنه وغلف وكل النبلاء والمحاربين المجتمعين - بقصة حذاء أبى
القاسم الطنبورى التى يعرفها الجميع . تحدثت بارتياح وكنت ابتسم
طيلة الوقت ، وقد سر الشماليون فى بادئ الامر وضحكوا وضحكوا
على بطونهم . ولكن فجأة وقع مايلى . بينما كنت مستمر فى حكايتى
توقف الشماليون عن الضحك وانقلبوا بالتدريج الى حالة من البؤس
والتجهم . وما أن أنهيت حكايتى حتى انقطع الضحك نهائياً وكان
هناك صمت قاتل .

قال لى هرغر « ربما كنت لاتعرف ذلك . ، ولكن هذه حكاية لا تدعو
الى الضحك ، وعليك الآن ان تصلح مايمكن اصلاحه » ، وبعدها
تحدث حديثاً اعتقد انه كان نكتة القيت على حسابى فسببت ضحكا
بين الجميع وعاد الجميع يتمتعون بحفلةهم .

(قصة حذاء أبى القاسم قديمة فى الثقافة العربية وكانت معروفة
لابن فضلان ولمواطنيه من أهل بغداد .

هذه القصة تروى بأشكال مختلفة ، ويمكن سردها مقتضبة او
مطولة . حسب حماس الراوى . وهى باختصار تحكى حكاية أبى
القاسم ، وهو تاجر غنى وبخيل يرغب بأن يخفى حقيقة غناه لكي
يمقد صفقات أكبر وأفضل فى تجارته . وليوحى بمظاهر الفقر ،
فانه يرتدى زوجاً من الاحذية قميء بائس قديم أملاً بأن يضل
الناس ، لكن حيلته مكشوفة ، اذ بدلا من ذلك يعتقد الناس حوله
بانه سخيف وان تصرفاته منافية للعقل .

وفى احد الايام يمقد ابو القاسم صفقة رابحة فى تجارة الزجاج ،

فيقرر أن يحتفل ليس كما جرت العادة بدعوة أصدقائه الى حفلة كبيرة وإنما بدعوة نفسه شخصيا الى ترف زيارة الى الحمام العمومي . يترك ثيابه وحذاءه في الغرفة الخارجية ، فيعاقبه صديق له بارتدائه حذاء باليا غير مناسب لمقامه . يجيبه أبو القاسم بأن الحذاء مازال فيه روح ، ثم يدخل الحمام مع صديقه . وبعد قليل يصل قاض كبير الى الحمام ويخلع ثيابه تاركا وراءه حذاء فخما . في تلك الاثناء يغادر أبو القاسم الحمام فلا يجد حذاءه القديم بل يجد مكانه حذاء جديدا جميلا ، وظنا منه بأنه هدية من صديقه فينتعله ويغادر الحمام .

وحين يغادر القاضي الحمام يكتشف اختفاء حذائه ، ولا يجد سوى حذاء مهترىء بالئس يعرف الجميع أنه حذاء البخيل أبي القاسم . يغضب القاضي ، ويتوزع الخدم في كل أرجاء بغداد بحثا عن الحذاء المفقود ، وسرعان ما يجدونه في قدمي اللص الذي يؤتى به الى المحكمة ليقف امام القاضي ويغرم غرامة باهظة .

ويندب أبو القاسم حفظه ، وما أن يعود الى البيت حتى يلقي بحذائه المشوم خارج النافذة حيث يسقط في نهر دجلة المليء بالطين . وبعد عدة أيام يخرج بعض الصيادين شبابهم فيجدون مع السمك حذاء أبي القاسم ، ويجدون أن مسامير الحذاء قد قطعت شبابهم فيقذفون الحذاء المشبع بالطين والماء بغضب باتجاه إحدى النوافذ المفتوحة فيصادف أن تكون تلك النافذة نافذة أبي القاسم فيسقط الحذاء على الاواني الزجاجية المشتراة حديثا ويحطمها جميعا .

ويتحطم قلب أبي القاسم ويحزن كما يحزن أي بخيل عفن . فيقسم يمينا بالا بصيبه الحذاء اللعين بأي أذى بعد الآن ، وللتأكد من ذلك ، يذهب الى حديقة ومعه مجرفة حيث يدفن الحذاء . ويحدث أن جار أبي القاسم يراه وهو يقوم بالحفر ، وهو عمل وضيع لا يليق إلا بخادم . عندها يقول الجار لنفسه : أن كان صاحب البيت يقوم بهذا العمل القذر بنفسه فلا بد أن يكون من أجل دفن كنز كبير . فيذهب الجار الى الخليفة ويقص على الخليفة قصة أبي القاسم ، إذ طبقا لقوانين البلاد فإن أي كنز يكتشف في البلاد فإنه يصبح ملكا للخليفة .

يستدعى أبو القاسم الى حضرة الخليفة ، وحين يبلغ بانه لم يدفن الا زوجا من الاحذية البالية يضحك الحاشية مفهقين لاكتشاف محاولة التاجر ان يخفى هدفه الحقيقي وغير الشرعى . يفضب الخليفة اذ يجروا احدهم على الظن بانه من الحمق بحد يمكن معه ان تنطلى عليه كذبة كهذه فيضاعف لهذا حجم الغرامة . ويصناب أبو القاسم بصدمة شديدة حين يصدر الحكم ولكن لا مفر له من الدفع .

ويصمم أبو القاسم مرة أخرى على التخلص من حذائه مرة وإلى الأبد . ولكي يتأكد من استحالة وقوع مشاكل جديدة فإنه يقوم برحلة خارج المدينة ويلقى بالحذاء في بركة بعيدة ويظل يراقبه حتى يفرق ثم يعود راضيا . ولكن تلك البركة تغذى قنوات الماء التي تشرب منها المدينة كلها وأخيرا يسد الحذاء الانابيب . ويكتشف الحرس الذين يذهبون لازالة العائق - يكتشفون الحذاء ويميزونه بسهولة ، لان كل الناس الان صاروا يعرفون حذاء هذا البخيل سيء السمعة . ويستدعى أبو القاسم مرة أخرى الى حضرة الخليفة بتهمة تلويث مياه المدينة وتكون غرامته هذه المرة اعظم من كل سابقتها كما يعاد الحذاء اليه .

ثم يقرر أبو القاسم ان يحرق الحذاء ، وحيث انه مازال رطباً ندياً فإنه يضعه على الشرفة ليجف . فيراه كلب ويبدأ باللعب به . وهنا تستقط إحدى فردتي الحذاء من بين فكي الكلب الى الشارع تحته ، حيث تصيب امرأة كانت تمر في الشارع في تلك اللحظة كانت المرأة حاملاً فسببت قوة اللطمة اجهاضها . يتوجه زوجها الى المحكمة ويطالب بالتعويض عن الاضرار ، فيحكم له بها وبسخاء ، ويجبر أبو القاسم الذي أصيب بالافلاس والدمار على الدفع .

ان ماتوحي به هذه القصة العربية هو ما تستطيع الشرور ان توقعه بانسان ما لا يغير حذائه في الوقت المناسب الا أنه لاشك ان هناك معنى ضمناً أعمق بكثير في هذه الحكاية : الا وهو فكرة الانسان الذي لا يستطيع ان يثور على قدره وهذا هو ما اقلق الشماليون بالفعل)

وهكذا مضى الليل مابين مرح وطرب واحتفالات ، ومتع محاربو بيولف انفسهم بالنساء بطريقة اباحية مطلقة . وقد رايت وغلف

الابن يحدق بيولف قبل مغادرة القاعة ، لكن بيولف لم يفره اى اهتمام مفضلا الاستمتاع بالاماء والجوارى والاستمتاع بالنساء الحرات . وبعد وقت غلبنى النعاس فنمت .

وفي الصباح استيقظت على صوت المطارق ، وحين اطلت من قاعة هاروت الكبرى رايت كل شعب مملكة روثغار يعملون بجهد في بناء الدفاعات . وقد كانت هذه الدفاعات تبني بطريقة بدائية : كانت الخيول تجر اعدادا من اعمدة السياج التى كان المحاربون يقومون بتقليم رءوسها حتى تصبح مدبة . وكان بيولف نفسه يوجه اوامره بتحديد مواقع بناء الدفاعات وذلك بوضع علامات على الارض برأس سيفه . لم يستعمل لهذا الغرض سيفه العظيم رندنج ، ولكنه استعمل سيفا آخر ، ولم ادر ان كان هناك سبب لهذا التصرف .

وعند منتصف النهار ، وصلت الحزبون المسماة بملاك الموت (1) والقت بالعظومات على الارض متممة تمتعات غامضة فوقها ، ثم اعلنت ان الضباب لابد ان فى ذلك المساء . ولدى سماع بيولف لهذا امر بايقاف كل اعمال البناء وبدا الاعداد لوليمة كبرى . وقد شارك الكل فى هذه المهمة بعد ان اوقفوا كل جهودهم الاخرى . سالت هرغر عن سبب اقامة تلك الوليمة ، فاجابنى باننى اسال اسئلة كثيرة لا داعى لها . كان ذلك صحيحا كما كان صحيحا ايضا اننى اسات اختيار الوقت لالقاء هذا السؤال لان هرغر كان فى تلك اللحظة يقف امام فتاة شقراء جميلة يغازلها بينما كانت تبتسم بحرارة وهى تنظر الى .

فى اواخر ذلك النهار ، استدعى بيولف اليه كل محاربيه وقال لهم ، « استعدوا للمعركة » وقد قبلوا المهمة وتمنوا الحظ السعيد لبعضهم البعض ، بينما كانت تجهز الوليمة الكبرى فى كل مكان حولنا .

(1) ملاك الموت هذه ليست هى نفسها التى كانت مع الشماليين على سفاف الفولفا واضح ان لكل قبيلة امرأة عجوزا تقوم بوطيفة التنبؤ واعمال السحر الاخرى . يطلق عليها اسم « ملاك الموت » . فالاسم على هذا هو اسم نوع او تعبير يدل على النوع .

الفصل الرابع عشر

كانت وليمة المساء كبيرة الشبه بوليمة الليلة السابقة ، رغم أن عددا اقل من نبلاء ووجهاء روثغار كان حاضرا . وفي الحقيقة علمت أن كثيرا من النبلاء لن يحضروا الوليمة خشية وتحاشيا لما كان سيقع في قاعة هاروت تلك الليلة ، اذ بدا واضحا أن ذلك المكان كان مركز اهتمام الشيطان في تلك المنطقة ، الذي كان يطمع بقاعة هاروت أو بشيء شبيه آخر - ولكنى لم استطع أن اتأكد من المعنى .

لم تثرني حفلة ذلك المساء بسبب خوض من الاحداث القادمة . وعلى كل حال فقد وقعت الحادثة الالية . كان احد كبار النبلاء سنا يتكلم بعض اللاتينية ، كما كان يتكلم بعض اللهجات الاندلسية ، لانه كان قد سافر الى بلاد خلافة قرطبة وهو شاب . تحدثت الى ذلك النبيل ، وفي تلك الظروف وجدت لزاما على أن ادعى معرفة لم اكن ادرکها كما ستعرفون بعد قليل .

حدثني النبيل فقال : « اذن فانت هو الاجنبى الذى سيكون رقم ١٣ ؟ » فأجبت بآنى هو . فقال الرجل المسن « لايد وأن تكون فائق الشجاعة ، واننى احببك احتراما لهذه الشجاعة » واجابة على هذا رددت باستجابة مهذبة بسيطة لشعورى بانى كنت جيانا بالمقارنة بالآخرين من رجال بيولف ، والذى كان هو الصحيح فى الواقع .

« هذا ليس مهما » قال النبيل الشيخ معلقا ، وقد أسكرته خمرة تلك المقاطعة - وهى مشروب قمىء يسمونه (ميد) ولكنه مشروب قوى - « ولكنك مع هذا رجل شجاع لمجاهتك الوندول » .

احسست الان اننى قد استطيع فى آخر المطاف أن اتعلم بعض الامور الهامة . اعدت على مسامع هذا الشيخ قولاً من اقوال الشماليين كان هرغر قد قاله لى مرة ، قلت « الحيوانات تموت ، والاصدقاء يموتون ، وانا سأموت ، ولكن شيئا واحدا لن يموت ابدا ، الا وهى السمعة التى نخلقها وراءنا بعد موتنا » .

لدى سماعه هذا الكلام فوق الشيخ العجوز من فم خال من الاسنان ، فقد سره كثيرا أن يرى اننى كنت أعرف مثلاً شعبيا

شماليا . قال « تلك هى الحقيقة ، ولكن الوندول لهم شهرة
ايضا » . فاجبته بأقصى حدود اللامبالاة : « حقا ؟ لم أكن أدرك
ذلك » .

اجابنى الشيخ بقوله اننى كنت اجنبا ، وانه لهذا يوافق على ان
ينورنى ، فقص على مايلى : الاسم (وندول أو وندون) هو اسم قديم
جدا قدم اى شعب من شعوب بلاد الشمال ، وهو يعنى (الضباب
الاسود) . وبالنسبة لاهل الشمال فان هذا يعنى ضبابا يأتى تحت
جنح الظلام بشياطين سوداء تصرع وتقتل وتاكل لحم الكائنات
البشرية (١) . وهؤلاء الشياطين غزيرو الشعر كزهرهو الملمس والرائحة

(١) من الواضح ان الاسكندنافيين كانوا اكثر تاثرا وخوفا من خلصة ولؤم ووحشية
هذه المخلوقات اكثر من خوفهم من كونها آكلة لحوم البشر ويعتقد جنسين ان اكل
لحوم البشر قد يكون رهيبا وربما بالنسبة لاهل الشمال لانه اى اكل لحوم البشر يجعل
الدخول الى عالم الخلود بعد الموت (قال هالا) اكثر صعوبة . ولكن ليس هناك اى
دليل على صحة هذا الرأى .

وعلى كل حال فانه بالنسبة لابن فضلان والملاحه الواسع ربما كانت فكرة اكل لحوم
البشر تنفسم أو توحى ببعض الصعوبات فى الحياة الأخرى أو فى حياة الخلود .
وأكل الاموات هو مخلوق معروف جيدا فى الاساطير المصرية ، وهو على شكل وحش
مخيف له رأس تمساح وذئع اسد وظهور فرس النهر . وأكل الاموات هذا يلتهم
الاشترار بعد حسابهم .

ومما يستحق الذكر انه بالنسبة لعظم تاريخ الانسانية فان اكل لحوم البشر كجزء
من العقيدة الدينية ، بشكل أو بآخر ولسبب ما أو لآخر لم يكن أمرا نادرا كما لم
يكن أمرا بارزا . فانسان يكين وانسان نياندرتال كانا بالتأكيد من آكلة لحوم البشر ،
وكذلك كان ايضا وبأوقات مختلفة السكاثيون ، والصينيون ، والايرلنديون ، وأهل
اليرو وسكان جزر الماريانا ، والجاغا ، والمريون ، والاستراليون الاسقليون ،
والوار ، واليونانيون و **Hurons** والمراقيون وقبائل اليونا والاشانتى .
وفى الفترة التى كان ابن فضلان خلالها فى اسكندنافيا كان تجار عرب آخرون قد
وصلوا الى الصين ، حيث سجلوا وكتبوا ان لحم البشر - الذى كان يشار له باسم
لحم الطائر ذى الرجلين - كان يباع فى الاسواق وبشكل مكشوف وقانونى .

ويعتقد مارتش أن الشماليين وجدوا فى اكل لحم البشر من قبل الوندول أمرا متلرا
ومتكررا لانهم كانوا يعتقدون أن النساء كن ياكلن لحم المقاتلين الإبطال ، وخاصة أم
الوندول الكبرى . ليس هناك من دليل على صحة هذا الرأى ايضا ولكن مجرد احتماله
يجعل مية مقاتل شمال بهذه الطريقة اكثر علوا وشجلا .

وهم قساة ماكرون ، لا يتكلمون أى لغة من لغات البشر ومع ذلك فانهم يتحدثون فيما بينهم . - وهم يأتون مع ضباب الليل ويختفون عند طلوع النهار أما الى أين يذهبون فلم يجرؤ ابن امرأة يوما أن يتبعهم . »

وأضاف العجوز يحدثنى فقال : « يمكنك أن تتعرف على المناطق التى يسكن فيها شياطين الضباب الاسود وذلك بطرق عديدة . فمن وقت لآخر قد يصطاد المحاربون الفرسان ايللا بواسطة الكلاب بعد مطاردته عبر التلال والوديان وخلال اميال عديدة من الغابات والأرض العراء . حتى اذا وصل الإبل الى مستنقع رطب ورقراق ضحل توقف عن الجرى مفضلا أن تقطعه كلاب الصيد اربا على أن يدخل الى ذلك المكان الكريه . وبهذا الشكل نتعرف على المناطق التى يعيش فيها الوندول ونعرف أيضا انه حتى الحيوانات لا تجرؤ على الدخول الى ذلك المكان .

أظهرت دهشة عظيمة حين سماعى هذه القصة ، وما ذلك الا لاستدرج الرجل العجوز لمزيد من الحديث . وفي تلك اللحظة رأتى هرغر فرمانى بنظرة لئيمة لكنى لم اعره أى انتباه .

استطرد الشيخ قائلا : « فى قديم الايام كان كل اهل الشمال وفى كل أصقاعهم يخافون الضباب الاسود . ولكن منذ ايام أبى وجدى وجد أبى قبله لم يرا شمالى الضباب الاسود أبدا ، وينظر الينا المحاربون الشباب على أننا مجانين أو حمقى حين نتذكر الحكايا القديمة عن الرعب والجزع الذى كان الوندول يسبونه . الا أن زعماء الشمال فى كل ممالكهم حتى فى التروج ، كانوا دائما يتوقعون عودة الضباب الاسود . وكل مدنا وقلاعنا محمية ومحصنة من ناحية البر . ومنذ ايام أبى وجدى وجد أبى يقوم الناس بهذه الاعمال والتحصينات ولكننا لم نر الضباب الاسود أبدا . أما الان فقد عاد الينا » .

استفسرت عن سبب عودة الضباب الاسود ، فخفض صوته وهو يقول مجيبا : « لقد عاد الضباب الاسود بسبب صلف وخيلاء وضعف ووثغار الذى أساء الى الالهة بتباهيه الاحق فحرض الشياطين وأغراهم ببناء قاعته الكبرى فى الموقع الذى اختاره والذى

لا يتمتع بأى حماية من ناحية البر . وروثغار اليوم مسن هرم وهو يعلم علم اليقين بأنه لن يذكر بمعارك خاضها أو ربحتها ، ولهذا بنى هذه القاعة الفخمة التى أصبحت حديث الدنيا بأكملها وأرضت غروره وخيلاءه . ان روث غار يتصرف كاله ، ولكنه انسان ولهذا بعث الالهة بالضباب الاسود ليصغقه وليعلمه معنى التواضع » .

قلت لهذا الشيخ الهرم انه ربما كان اهل المملكة يكرهون روثغار . فأجاب قائلا : « ليس هناك من رجل فاضل الى حد الخلو من كل الشرور ، كما انه ليس هناك من رجل شرير الى حد لايساوى معه شيئا . ان روثغار ملك عادل ولقد ازدهر شعبه ابان حياته . وان حكمه وغنى حكمه هما هنا ، فى قاعة هاروت وهما حقاً رائعان ، اما خطيئته الوحيدة فهى انه نسى أن يبنى دفاعاته لان عندنا قولا مفاده : « لايجوز لرجل أن يخطو خطوة واحدة بعيدا عن أسلحته . » وروثغار بلا سلاح وهو فاقد الاسنان ضعيف ولهذا يسرح الضباب الاسود ويمرح حرا فوق أرضنا » .

تمنيت لو يحدثنى باكثر من هذا ، لكن الشيخ الهرم سرعان ما شعر بالتعب وابتعد عني ، ورايته يفغو بسرعة . واقول الحق بأن طعام وشراب روثغار كان كثيراً بالغ الكرم ، وقد أصيب العديد من النبلاء والوجهاء بالنعاس لكثرة ما أكلوا وشربوا .

اما عن طاولة روثغار نفسه فاليكم ما رأيت عليها : كان كل رجل جالس اليها قد وضع امامه غطاء طاولة وصحن وملعقة وسكيناً ، اما الوجبة فكانت لحم خنزير وماعز مطبوخ ، كما كان هناك بعض السمك ايضا ، لان الشماليين كانوا يفضلون اللحم المطبوخ على المشوى . وكان هناك الملفوف والبصل بكميات هائلة ، كما كان هناك تفاح وجوز . وقد اعطيت لى قطعة لحم محلاة دسمة لم اذقها من قبل . قيل لى انها لحم غزال .

الفصل الخامس عشر

اما الشراب الكريه المسمى (ميد) فانه يصنعونه من العسل ثم يخمرونه . وهو اشد مادة صنعها انسان سوادا وحموضة وقلادة ، ولكنها رغم كل ذلك مبعث قوة وعزيمة لاتعرف الحدود ، فما أن

شرب الواحد بضع كئوس حتى يدور العالم به ويدوخ . ولكننى لم
أشرب والله الحمد .

وقد لاحظت الان ان بيولف ورفاقه لم يشربوا تلك الليلة وان
شربوا فلعماما ، ولم يعتبر روث غار ذلك اهانة له ، بل اعتبره منطق
الامور الصحيح . لم يكن هناك اى ريح تلك الليلة حتى قناديل
ومشاعل قاعة هاروت لم ترتعش ، ومع ذلك فقد كان المساء رطبا
وقارس البرودة . ولقد رايت بأم عيني ان الضباب خارج الابواب
كان يتدحرج هابطا من على التلال فيحجب ضوء القمر الفضى ويجل
كل شيء بالسواذ . وبينما كانت حفلة المساء مستمرة غادر الملك
روث غار وملكته القاعة ليناما ، بينما اغلقت واوصدت ابواب قاعة
هاروت بواسطة القضبان الحديدية اما النبلاء والوجهاء الذين بقوا
هناك فقد سقطوا فى نوبة من النوم السكران وراحوا يشخرون
باصوات عالية .

اما بيولف ورجاله ، وكانوا لا يزالون مرتدين دروعهم ، فقد
راحوا يتجولون فى القاعة يصلحون من القناديل ويصلحون النار لكى
تشتعل ببطء وبضعف . سألت هرغر عن معنى كل هذا ، فطلب الى
ان اصلى وادعو لنجاتى ، وان اظهر بالنوم . ثم اعطيت سلاحا
كان عبارة عن سيف قصير ولكنه لم يمنحنى من الراحة الا القليل ،
فما كنت يوما محاربيا وانا اعرف ذلك حق المعرفة .

وهكذا تظاهر كل الرجال بالنوم ، حتى بيولف ورجاله تمددوا
بجانب اجساد نبلاء الملك النائمة والذين كانوا يشخرون بعمق .
لا ادرى كم مضى علينا من الوقت ونحن ننتظر لاننى اعتقد اننى قد
سهوت بعض الوقت . وفجأة استيقظت وانا بحالة من التنبه والفرع
غير الطبيعيين . لم اكن نعسانا ولكننى كنت متنبها متوترا الى ابد
الحدود ، بينما كنت لا ازال مضطجعا على القماش المصنوع من جلد
الدب على ارض القاعة الكبيرة . كانت ليلة مظلمة حالكة السواد ،
وكانت القناديل فى القاعة تحترق بضوء هزيل ، بينما كانت نسمة
ناعمة خفيفة تهمس وهى تتسلل الى القاعة وتراقص اللهب الاصفر .
ثم سمعت صوت دمدمة خفيض وكأنه عواء خنزير حملته الى
النسمة ثم شممت رائحة كريهة مؤذية كأنها رائحة جثة متعفنة مضى

على موتها شهر من الزمان ، وشعرت بالخوف الشديد . هذا الصوت المدمدم المفزع ، ولا اجد له وصفا خيرا من هذا ، هذا الصوت المبهم المدمدم الشاخر بدأ يعلو شيئا فشيئا وبدأت تشتد ثورته . كان يأتى من خارج الابواب من احد جانبي القاعة . ثم أتى من الجانب الاخر ثم من الجانب الثالث ثم الرابع . وفي الواقع كانت القاعة مطوقة تطويقا كاملا . جلست متكئا على احد كوعى وقلبي يدق كمطرقة ، ثم نظرت في انحاء القاعة . لم يتحرك اى من المحاربين النائمين ، لكن كان هرغر مستلقيا بجانبى وعيناه مفتوحتان . ثم رايت بيولف أيضا يتنفس بعمق متصنعا الشخير ، بينما عيناه مفتوحتان استنتجت من هذا كله ان كل مقاتلى بيولف كانوا بانتظار المعركة مع الوندول الذين كانت اصواتهم الان تملأ الجو في الخارج .

ليس هناك والله خوف اعظم من خوف الانسان حين لا يعرف السبب . ترى كم مضى على وانا مستلق فوق جلد الدب اصغى الى همهمة الوندول واستنشق رائحتهم الكريهة ! وكم مضى على انتظر ما لا اعرف ماهو : ربما بداية معركة اكثر ارهابا في الخيال مما هي عند النزال ! وهنا تذكرت مايلى : وهو ان اهل الشمال يرددون دائما قول المديح الماثور الذى يحفرونه على قبور نبلاء المحاربين ، والذى يقول « انه لم يهرب من معركة يوما » وفي الحقيقة لم يهرب تلك الليلة اى من رفاق بيولف رغم ان الاصوات والروائح العفنة كانت تحيط بهم من كل جانب ، ترتفع حيننا وتنخفض حيننا آخر ، وحيننا تأتى من هذه الجهة وحيننا من تلك . ورغم ذلك فقد انتظروا وانتظروا .

ثم جاءت اشد اللحظات رعبا . توقفت كل الاصوات وساد صمت رهيب لم يكن يقطعه الا شخير الرجال وعصمه النار الهامسة . وحتى الان لم يأت اى من رجال بيولف باقل حركة .

وفجأة جاء صوت تحطم هائل على ابواب قاعة هاروت الصلب ثم انفتحت هذه الابواب وكانها عاصفة . تبع ذلك دفقة من الهواء العفن اطفا كل الانوار ثم دخل الضباب الاسود . لم استطع عدهم ، لكنهم كانوا يبدون وكانهم آلاف مؤلفة من اشكال سوداء مدمدمة ، ورغم ذلك فقد لا يكونون اكثر من خمسة او ستة من اشكال سوداء

ضخمة لا يكادون يشبهون الرجال ، ومع ذلك فقد كانوا أشباه رجال .
وعبق الجو برائحة الدم والموت ، وأحسنت ببرد يذهب بالعقل
وارتجفت . ورغم كل ذلك فلم يتحرك مقاتل واحد .

ثم وبصرخة تجمد الدم في العروق وكافية لايقاظ الموتى قفز بيولف
واقفا وهو يلوح بذرعيه السيف الهائل رندنغ الذى كان يدوى
كالسنة اللهب المتأججة وهو يقص الهواء . وقفز كل محاربيه معه
وانضموا الى المعركة . واختلطت صيحات الرجال بهمهمات الخنازير
وروائح الضباب الاسود ، وكان هناك رعب وفوضى وتخريب
وتمزيق في كل مكان من القاعة الكبيرة .

اما فيما يتعلق بى فلم يكن لى رغبة في القتال ، ومع ذلك سقط
على أحد هذه الوحوش الضبابية الذى كان قريبا منى الى حد رايت
بريق عينيه الحمراوين - وفي الحقيقة رايت عينين تشعان كالنار ،
ثم شممت رائحة العفن ثم رفعت كلى في الهواء وطوح بى عبر القاعة
ثم القيت كما يلقي طفل حصة . ارتطمت بالجدار وسقطت على
الارض ، ثم اصابتنى غيبوبة لبضع لحظات تالية فبدأ كل ما حور
مضطربا فوضويا أكثر مما كان حقيقة أراها . استمرت المعركة من
لا اعرف طولها ولكنها انتهت نجاة وبرمشة عين ثم اختفى الضباب
الاسود هكذا وانسل مبتعدا وهو يدمدم ويلهث تاركا وراءه روائح
الكريهة ومخلفا وراءه أيضا الدمار والموت الذى لم يستطع أن نحدد
مداه حتى أضانا مشاعل جديدة .

واليكم وصفا لما جرى في المعركة : بالنسبة لجماعة بيولف فقد
مات منهم ثلاثة ، وهم رونت وهلفا ، وهما نيبلان ، وادغشو وهو
محارب . أما الاول فقد شطر صدره شطرين ، وأما الثاني فقد
كسر عموده الفقرى أما الثالث فقد قطع رأسه بالطريقة التى وصفتها
سابقا . كل هؤلاء المحاربين أصبحوا الآن موتى .

كما جرح اثنان آخران ، هما هلتف ورثل وقد فقد هلتف إحدى
أذنيه وفقد رثل أصبعين من كف يمينه . ولم تكن جراحهما خطيرة
كما لم يعبرا عن أية شكوى أو ألم . لانه من عادة رجال الشمال أن
يتحملوا آلام جراح الممارك بمرح ، وأن يمجدوا فوق كل شيء بقاء
الحياة .

أما بالنسبة لبيولف وهرغر والآخرين فقد كانوا غارقين بالدماء ، كما لو كانوا قد استحموا فيها .

أما الآن فسأروى ما لن يصدقه الكثيرون . ومع هذا فقد وقع : لم تقتل جماعتنا أيا من وحوش الضباب إذ انسلاوا جميعا هارين وربما مجروحين جراحا بليغة ومع ذلك فقد هربوا جميعا .

هذا ما قاله هرغر : « لقد رأيت اثنين منهم يحملان ثالثا كان ميتا » . ربما كان الأمر كذلك لأن الكل وافقوه عليه . وقد علمت بأن وحوش الضباب لا تترك أيا من أفرادها لاقوام البشر وهم يفضلون أن يتعرضوا لمخاطر جسيمة مقابل أن يستعيدوه من أيدي البشر . كما أنهم يرضون بتحمل المشاق الطويلة لكي يحتفظوا برأس ضحيتهم ، ولذلك لم نجد رأس ادغثو في أى مكان فقد حملته الوحوش معهم .

ثم تحدث بيولف وترجم هرغر كلماته لى على النحو التالى : « انظروا لقد احتفظت بتذكارة لامجاد الليلة الدامية . انظروا هامى ذراع أحد الشياطين » .

وتصديقا لكلماته رفع بيولف ذراع أحد وحوش الضباب وقد بترت من الكتف بقوة ضربة السيف العظيم رندنج . تجمع كل المحاربين حوله ليتفحصوا الذراع وقد تراءى لى على الشكل التالى : بدا صغيرا له كف كبيرة الحجم مما يفوق حدود الطبيعة الا أن العضد والساعد كانا صغيرين بشكل لا يتفق وحجم الكف رغم أن العضلات كانت قوية جدا . كما كان هناك شعر أسود طويل وكثيف فوق كل أجزاء الذراع ماعدا راحة الكف . بقى أن نقول ان الذراع كانت تفيض برائحة كتلك التى كانت تنطلق من جسم كل ربحس . يضاف اليها رائحة عفن وحش الضباب الاسود .

عند ذلك حى جميع المقاتلين بيولف وسيفه رندنج وعلقت ذراع الشيطان من عارضة خشبية فى سقف القاعة الكبيرة . لينظر اليه بالدهشة والاستغراب كل سكان مملكة روثغار . وهكذا انتهت المعركة الاولى مع الوندول .

الفصل السادس عشر

الاحداث التى تلت المعركة الاولى

الحقيقة ان اهل بلاد الشمال لا يتصرفون ابدا كما يتصرف البشر العاقلون والمنطقيون . فبعد الهجوم الذى قامت به وحوش الضباب وبعد صدهم من قبل بيولف وجماعته ، وانا بينهم طبعا ، لم يفعل رجال مملكة روث غار اى شئ على الاطلاق .

لم يكن هناك اى احتفالات ولا ولائم ولا تظاهرات فرحة ولا تعبير عن السعادة . انما جاء شعب المملكة من قاصى الاصقاع ودانيها ليشاهدوا يد الشيطان المعلقة التى كانت تتدلى فى القاعة الكبرى ، وقد ابتهجوا لهذا المشهد بكثير من الاستغراب والتعجب . الا ان روث غار نفسه ، ذلك الرجل الشيخ نصف الاعمى ، لم يبد اى سرور كما لم يقدم لبيولف ورجاله اى هدايا ولم يقم لهم اية ولائم ، كما لم يقدم لهم اية اماء او عبيد ، ولم يقدم لهم الفضة او الثياب الثمينة ولم يقدم اى تعبير عن التقدير والاکرام .

بل خلافا لاي تعبير عن المسرة فان الملك روث غار اظهر تقززا واشمئززا راسما على وجهه تعابير الجذ ، كما كان يبدو أكثر خوفا مما كان فى الماضى . حتى انا نفسى ، وان لم اقل ذلك بصراحة ، كنت اشك بان روث غار كان يفضل الحالة السابقة قبل ان يهزم الضباب الاسود .

حتى بيولف لم يكن حاله مختلفا عن هذا ، فلم يدع الى اى احتفالات او شراب او اقامة ولائم على الاطلاق . اما النبلاء الذين ماتوا ميتة الشجعان فى معركة الليلة الماضية فقد وضعوا سريعا فى حفر ذات سقوف خشبية فى اعلاها ، وتركوهم هناك لمدة عشرة الايام المقررة . وكان هناك تسرع فى هذه القضية .

ومع هذا لم يعبر بيولف ورفاقه عن سمادتهم الا حين بدءوا بوضع المقاتلين الموتى فى حفرهم فعندئذ فقط سمحوا لانفسهم بالابتسام . وبعد كل هذا الوقت الذى قضيه بين اهل الشمال

صرت أدرك أنهم يتسمون لاي ميتة فى ساحة المعركة اذ ان هؤلاء مسرة يعبرون عنها نيابة عن الشخص الميت وليس نيابة عن الاحياء . فهم يفرحون حينما يموت اى منهم ميتة المحاربين . وعكس ذلك صحيح ايضا بالنسبة اليهم : فهم يظهرون الالم والامتعاض حين يموت احدهم فى نومه او فى فراشه . فهم يقولون عن مثل هذا الرجل « انه مات ميتة بقرة بين القش » . وليست هذه اهانة ولكنها السبب الذى يبدونه لرثاء الميت .

ويعتقد اهل الشمال ان كيفية موت انسان هى التى تحدد وضعه فى الحياة الاخرى « حياة الخلود » ، وهم يعتبرون موت المقاتل فى المعركة اسمى مراتب الموت . اما « ميتة القش » فهى ميتة مخجلة . وحين يموت اى انسان منهم فى نومه فانهم يقولون عنه انه قد خنقه « الماران » ، اى كابوس الليل . هذا المخلوق ، اى كابوس الليل ، هو امرأة ، وهو الامر الذى يجعل مثل هذه الميتة عارا مخجلا ، اذ ان الموت على يدى امرأة هو أخط الامور عندهم على الإطلاق .

وهم يقولون ايضا ان الموت بلا سلاح مهين ، ولذلك ينام المقاتل الشمالى وسلاحه دائما معه ، حتى اذا اتى كابوس الليل يكون سلاحه فى متناول يده . ونادرا ما يموت مقاتل من مقاتليهم بسبب المرض او بسبب وهن الشيخوخة . وقد سمعت بملك اسمه آن ، عاش من العمر طويلا حتى اصبح كالطفل الرضيع مرة اخرى ، لا استنان له ويعيش على طعام الاطفال ، حتى انه قضى بقية ايامه فى فراشه يشرب الحليب من قربة وعل . ولكن قيل لى ان هذا نادر وغير عادى فى بلاد الشمال . ولقد رايت بام عينى عددا قليلا منهم فقط يعمر حتى سن الشيخوخة ، واعنى بذلك التعمير حتى بلوغ السن الذى لا تصبح للحية فيه بيضاء فحسب بل ايضا تتساقط عن الدقن والوجه .

اما نساؤهم فكثيرات منهن يعشن حتى سن الشيخوخة خاصة تلك الحيزيون التى يدعونها ملاك الموت ، فانهم يعتقدون بان مثل هؤلاء النسوة يملكن قوى سحرية فى شفاء الجراح والقاء التعاويذ والرقية ، وفى ابعاد الانار الشريرة وفى التنبؤ عن احداث المستقبل .

ونساء بلاد الشمال لا يتقاتلن فيما بينهن أبدا ، وكثيرا ما رأيتهن يتدخلن لحل نزاع أو مبارزة بين رجلين ويطفئن الغضب المتصاعد . هذا ما يفعله خاصة إذا كان المقاتلون قد أصيبوا بالخجل بسبب السكر الشديد ، فهذا ما يحدث فى العادة .

لكن هؤلاء الشماليين الذين يفرطون بشرب المسكرات طيلة ساعات الليل والنهار لم يشربوا قطرة واحدة طيلة اليوم الذى تلا المعركة . ونادرا ما كان شعب روث غار يعرض على أحدهم كأسا ، وإن حصل هذا كانوا يرفضون الكأس . وقد وجدت هذا مدعاة للاستغراب الشديد فحدثت هرغر عنه مستفسرا . هرغر كتفيه على الطريقة الشمالية فى التعبير عن اللامبالاة ثم قال « الكل خائفون » وحين سألت عن سبب الخوف قال لى ما يلى : « لانهم يعلمون حق العلم ان الضباب الاسود سيعود ثانية » .

وهنا اعترف باننى أصبت للحظفة بعدوى روح العداء التى تسيطر على المحاربين ، مع انى أعلم فى الواقع اننى لا أستحق مثل هذه الهيئة . ولكن رغم ذلك شعرت بالطرب والفرحة الغامرة لكونى ما زلت على قيد الحياة ، ولان شعب روث غار يعاملنى باعتبارى واحدا من جماعة المحاربين الابطال . قلت بشجاعة « ومن يهاب مثل هذا ؟ إذا ما عادوا ثانية فسنهزمهم مرة أخرى » .

فى الحقيقة كنت مختالا مغرورا اختيال ديك حديث السن ، وانى اذ تذكر ذلك الان أحس بالخجل من مباهاى السخيفة . أجاب هرغر : « ليس لملكة روث غار مقاتلون أو وجهاء يقاتلون : لقد ماتوا جميعا منذ وقت بعيد ، وعلينا نحن فقط ان ندافع عن المملكة . بالامس كنا ثلاثة عشر . اما اليوم فنحن عشرة ، ومن بين العشرة اثنان جريحان ولا يستطيعان ان يقاتلا كرجلين كاملين . والضباب الاسود غاضب وسينتقم انتقاما رهيبا » . قلت لهرغر الذى كان قد أصيب ببعض الجروح الطفيفة اثناء المعركة ، والتى لم تكن شديدة شدة آثار المخالب على وجهى والتى كنت أتباهى بها . قلت له اننى لا اخاف شيئا يمكن لهذه الشياطين ان تفعله . أجاب باقتضاب اننى عربى واننى لا افهم شيئا من عادات بلاد الشمال . ثم أخبرنى بأن انتقام الضباب الاسود سيكون رهيبا .

عينيًا ، ثم أضاف « انهم سيمودون كالكورغن » . لم أفهم معنى الكلمة فسألت « وماهو الكورغن ؟ » فقال لي « انه تنين الجباب ، والتي تطير هابطة في الجو » . الا ان هذا بدا لي خيالا محضًا ، ولكنني كنت قد رأيت وحوش البحر كما وصفوا لي وحوشا تعيش بتلك الصفات ، رأيت وجه هرغر الممتنع والمجهد ، فاقنعت بأنه كان مقتنعا بوجود تنين الجباب . سألت « ومتى يأتي الكورغن ؟ » . اجاب هرغر « ربما هذا المساء » .

وفي الحقيقة بينما كان هرغر يتكلم رأيت ان بيولف ، رغم انه لم ينم طيلة تلك الليلة ورغم ان عينيه كانتا محمورتين مثقلتين بالاجهاد ، كان يشرف من جديد على بناء الدفاعات حول سور هاروت والبنابات الملاصقة ، والتي تشكل منسازل الملك روث غار وبعض نبلائه ، والاكواخ الوضيعة التي يعيش فيها عبيد هذه العائلات كما يعيش فيها بعض المزارعين الذين كانوا يعيشون اقرب ما يكون الى شاطئ البحر ، حول كل هذه المنطقة بنى بيولف نوعا من السياج من العصي المتصالبة وعواميد الخشب ذات الرؤوس المدببة . . ولم يكن السياج اعلى من كتف رجل ، ورغم ان هذه الرؤوس المدببة كانت حادة قاطعة مخيفة فأنني لم أستطع ان ارى او اقتنع بفاعلية هذا الدفاع لان اى رجل يستطيع صعوده على سلم بسهولة .

حدثت هرغر عن هذا فاجاب باننى لست سوى غيبى . وكان واضحا انه كان يعانى من مزاج سيئ للغاية .

ثم بنوا خط دفاع آخر ، كان عبارة عن خندق خارج سياج الاعمدة ، وعلى بعد خطوة ونصف من ذلك السياج . كان هذا الخندق غريبا حقا . فلم يكن عميقا ابدا بل هو لا يكاد يغمر رجلا الى ركبتيه وأحيانا اقل عمقا . وقد تم حفره بشكل غير متناسق بحيث كان في بعض الاماكن ضحلا للقاية وفي بعضها الاخر اكثر عمقا ، تتناوب حفر صغيرة . وفي بعض الاماكن غرزت بعض العصي القصيرة فى الارض ورؤوسها المدببة الى اعلى .

الا اننى عجزت عن تفهم مغزى وقيمة هذا الخندق الرديء عجزى عن فهم السياج ، ولكننى لم اسأل ولم أستفسر من هرغر ، لادراكى لما كان عليه فى تلك اللحظة من سوء المزاج . ولكن بدلا من ذلك

ساهمت فى اعمال البناء كافضل ما أستطيع المساهمة ، ولم اتوقف
عن العمل الا مرة واحدة لامتنع نفسى بجارية على الطريقة الشمالية ،
اذ انى نتيجة اثاره الليل الماضية والمركة التى تلت واستعدادات
النهار احسست بنشوة وقوة عظمتين .

الفصل السابع عشر

خلال ترحالى مع بيولف ومحاريبه على طول نهر الفولفا كان هرغر
قد حدثنى بأن النساء غير المعروفات ، وبخاصة ان كن جذابات
ومثيرات جنسيا ومغريات ، لا يجوز ان يوثق بهن . وقال لى هرغر
ان فى اعماق الغابات والاماكن الموحشة من بلاد الشمال تعيش نساء
يدعين نساء الغابات ونساء الغابات هؤلاء يغرين الرجال بجمالهن
وكلماتهن المسولة ، حتى اذا ما اقترب منهم الرجل ، وجدهن بلا
مؤخرة ووجد انهن لسن سوى اشباح . ثم تقوم هؤلاء النساء
باسقاط سحرهن ورقيهن على الرجل الذى اغرينهن فيصبح
اسيرهن .

الان وبعد ان حدثنى هرغر بهذا الشكل كنت حين اقترابى من
هذه الجارية خائفا مترددا ، لاننى لم اكن اعرفها . لذلك فاول
ما فعلت هو ان تحسست مؤخرتها بيدي فرايتها تضحك حتى
غشيت لانها عرفت سبب تلمسى لقفاها ، والذي كان الرغبة فى ان
اطمن نفسى انها لم تكن روحا من ارواح الغابات . وكم شعرت باننى
احمق سخيف فى تلك اللحظة ، وكم لعنت نفسى بتصديق خرافات
الوثنيين . الا اننى اكتشفت مع مرور الزمن انه ان كان جميع من
حولك يؤمنون بشيء ما فسرعان ما ستتجد نفسك مدفوعا لان
تشاركهم ذلك المعتقد ، وكان هذا ما حدث لى فعلا .

ونساء اهل الشمال نجيفات شاحبات كالرجال هنا ، وهن طويلات
طول الرجال ايضا ، حتى ان الكثيرات منهن كن ينظرن الى اسفل
ليبرين راسى . وللنساء عيون زرقاء وشعر طويل للغاية ولكن شعرهن
ناعم سهل شبكه . ولهذا فهن يعقدنه على شكل حزمة حول اعناقهن
وفوق رءوسهن . وتسهلا لهذه العملية فقد صنعن لانفسهن انواعا

كثيرة من اللاقط والدبابيس مصنوعة من الخشب أو الفضة المزخرفة . وهذا ما يشكل زينتهن الرئيسية . كما أن زوجة الرجل الفنى منهم ترتدى عقدا من الذهب أو الفضة كما قدمت آنفا . والنساء مفرمات بأساور الفضة المطروقة على شكل تنين أو أفعى ، يرتدينها على سواعدهن ما بين الكوع والكتف وتصاميم أهل الشمال معقدة مضفورة ، كما لو كانوا يريدون تصوير تداخل أغصان الشجر أو التفاف الأفعى حول نفسها . وهذه التصاميم جميلة جدا .

ويعتبر أهل الشمال أنفسهم حكماء حاذقين فى الحكم على جمال المرأة . ولكن فى الواقع بدت كل نسائهم لعينى نحيلات هزيلات ، كل أجسادهن تتوءات وزوايا وكتل من العظم .. وحتى وجوههن أيضا كانت ناتئة العظام وخدودهن مرتفعة . هذه الصفات يتقدها الرجال الشماليون ويمتدحونها مع أن امرأة فيها هذه المواصفات لن تجتذب ولو نظرة واحدة فى مدينة السلام وسينظر إليها على أنها ليست أفضل من كلب نصف جائع بارز الأضلاع . فنساء الشمال لهن أضلاع تبرز بنفس الطريقة .

لست أدري لم النساء نحيفات الى هذا الحد ، فهن يأكلن بشراسة الرجال ، ومع ذلك فهن لا يكسبن لحما يغطى أجسادهن أبدا .

كما أن النساء لا يظهرن أى « حياء » أو أى سلوك محتشم . فهن لا يتحجبن ، كما يخلصن أجسامهن من فضلاتها فى أماكن عامة كما تتطلب الحاجة . وبنفس الطريقة يندفعن نحو أى رجل يروق لخيالهن كما لو كن هن أنفسهن رجالا . ولا يوبخهن المحاربون على ذلك أبدا . والحال هى نفسها حتى ولو كانت المرأة جارية ، لأنه كما قلت سابقا يتصرف رجال الشمال بعطف شديد ومحبة تجاه عبيدهم خاصة إذا كانوا نساء .

مع تقدم ذلك اليوم نحو نهايته رايت بشكل واضح أن دفاعات بيولف لن تكتمل مع حلول الظلام ، سواء السياج المصنوع من الأعمدة المصنوعة من أغصان الأشجار المدبية أو الحفرة الضحلة . كما لاحظ بيولف ذلك أيضا نادى الملك رووث غار والذى استدعى بدوره الحيزبون العجوز . هذه الحيزبون التى كانت هزيلة بالية

ولها لحية رجل قامت بلذخ غنمة ونشر أوردتها على الأرض . ثم قامت بترديد أغان غديدة استمرت مدة طويلة وتخللها الكثير من التضرع الى السماء (١) .

حتى الآن لم أسال هرغر عن هذا بسبب مزاجه السيء . وبدلا من ذلك رحت أراقب محاربي بيولف الذين كانوا ينظرون الى البحر . كان المحيط أغبر هائجا ، والسماء ملبدة بالغيوم ، الا أن نسمة قوية كانت تهب نحو اليابسة . وهذا ما أشعر المقاتلين بالراحة ، وقد حلثت السبب : وهو أن نسمة المحيط باتجاه اليابسة لابد وأن تمنع الضباب من الهبوط من فوق التلال . وكان تخميني صحيحا .

وعند هبوط الليل توقف العمل في الاستحكامات والدفاعات ، ولشدة حيرتى ودهشتى أقام « روث غار » وليمة أخرى فخمة رائعة ، وفي هذا المساء وبينما أنا أراقب ما يجري راح بيولف وهرغر والمحاربون الآخرون يشربون الكثير من الميد ويمرحون ويمتعون انفسهم كما لو أنهم كانوا لا يحسون بأى من هموم الدنيا ، وتمتعوا كعادتهم بالاماء والجوارى ، ثم غرق الكل في نوم رتيب عميق .

ولقد علمت أيضا ما يلى : وهو أن كلا من محاربي بيولف كان قد اختار من بين الاماء والجوارى واحدة كان يفضلها على غيرها ، رغم أنه لم يكن يستثنى الاخريات . وقد حدثنى هرغر وهو مخمور منتش عن المرأة التى كان يفضلها قائلا « انها ستموت معى اذا اقتضى الامر » . ومن هذا استنتجت أن كلا من محاربي بيولف قد اختار امرأة ستموت من أجله فوق محرقة الدفن ، وأن هذه المرأة يعاملونها

(١) ان استعمال اين ففلان لتعبير « أوردة » قد أدى لبعض الاخطاء عند الباحثين . فقد كتبى د . د . كرهيم مثلا أن « الفايكنج كانوا ينتهون بالمستقبل عن طريق طقوس تعتمد على أوردة الحيوانات وتشرها على الأرض ، وهذا بكل تأكيد رأى خاطئ » ، فالتعبير العربى عن تنظيف الحيوان هو « قطع الأوردة والبراين » وابن ففلان هنا انما يشير الى ممارسة طقوس دينية عن طريق فحص الأوردة . واللغويون الذين يعالجون مثل هذه التمايز العامة المحلية طيلة الوقت منغمون بتناقضات وتعارضات المعانى : والمثل المفضل لها السند هو التعبير الانجليزى المستعمل فى التحذير « انتبه » الذى يعنى عادة على المرء أن يفعل المكس تماما وأن يفتس يفتنا عن ملجأ أو غطاء .

بمحبة واعزاز وتقدير أكثر من غيرها ، فهؤلاء المحاربون كانوا ضيوف المملكة ، ولم يكن لهم فيها اماء يملكونهن ويمكن أن يؤمرن بحكم القراة أن يفعلن ما يأمرونهن به .

الفصل الثامن عشر

خلال الفترة الاولى لاقامتى بين قوم الفندان كانت نساء الشمال يمتنعن عن الاقتراب منى بسبب سمرة جلدى وسواد شعرى ، ولكن كان هناك همس كثير ونظرات كثيرة تتجه منهن صوبى ، ثم كانت هناك ضحكات وقهقهات بين احداهن والاخرى . وقد وجدت أن هؤلاء النسوة السافرات كن رغم سفورهن يجعلن من ابديهن حجابا يغطى وجوههن بين وقت وآخر خاصة عندما كن يضحكن . وهنا سألته هرغر : « لماذا يفعلن ذلك ؟ » لاننى لم أكن أرغب فى أن اتصرف بطريقة مخالفة لعادات الشماليين .

وقد اجاب هرغر بهذا الجواب : « تعتقد النساء أن العرب كالخيول الاصيلة ، فقد كان هذا ما سمعته يتردد اشاعة بينهن » . ولم يثر هذا استغرابى وذلك للسبب التالى : ففى كل البلاد التى تجولت فيها وحتى ضمن اسوار مدينة السلام الدائرية ، وفى كل مكان يتجمع فيه الناس ليشكلوا لانفسهم مجتمعا تعلمت ان الاشياء التالية هى حقائق صحيحة . أولا ، ان شعوب بلد ما تعتقد بان عاداتها هى المناسبة وهى افضل من عادات اى من الشعوب الاخرى . ثانيا ، ان اى غريب ، رجلا كان او امرأة ينظر اليه باعتباره اقل قيمة فى كل مجال ما عدا قضية النسل والتوالد . وهكذا فالانتراك يعتقدون بان الفرس عشاق موهوبون ، وينظرون الفرس باحتقار الى البشر ذوى البشرة السوداء ، كذلك ينظر اليهم من قبل شعوب اخرى وهكذا .

ويستمر الامر كذلك ، أحيانا بسبب يقوم حول حجم الاعضاء التناسلية وأحيانا بسبب يعطى عن مدة الفعل الجنسى ، وأحيانا اخرى بسبب مهارات وأوضاع متعددة اثناء الممارسة الجنسية . لا استطع التاكيد أن نساء الشمال يعتقدن بحق ما قاله هرغر ، ولكنى فى الواقع اكتشفت أنهن كن شد مندهشات بسبب ختامى وهى عادة غير معروفة بين اهل الشمال لانهم كفرة قدرون . اما عن

ساعة الحمام أو اللقاء ، فهؤلاء النساء صاحبات عثقات ، تقوح
منهن رائحة كان تضطرنى لان اخنق انفاسى طيلة فترة المجامعة .
كما اتهم معتادات على اعتلاء الرجل والتلوى والخدش والعض الى
درجة يجد الرجل معها نفسه وقد أطيح به من فوق من هى تحته
كما يتحدث رجال الشمال . اما فيما يتعلق به فقد وجدت كل تلك
الممارسة مصدر ألم وعذاب اكثر مما هى متعة .

وتحدث رجال الشمال عن هذا قائلين : « لقد وقعت معركة
حامية بنى وبين هذه المرأة أو تلك » ويتفاخرون باظهار العلامات
الزرقاء والاورام التى يصابون بها فى تلك المعارك لاصدقائهم أو
لرفاقهم كما لو كانت حروبا حقيقية فى معركة من المعارك . وعلى
كل حال لم يكن الرجال ليؤذون اية امرأة ابداً استطعت ان ارى
آثاره .

فى هذه الليلة وبشما كان محاربو سولف يغطون فى سبات عميق ،
كنت خائفا جدا من الشرب أو من الضحك ، فقد كنت أخشى عودة
الندول . ومع هذا لم يعودوا ، ووجدت نفسى اخيرا اغفو ولكن
بقلق .

وفى اليوم التالى لم تكن هناك اية ربيع ، وعمل كل شعب .
مملكة « روث غار » بجدة واخلاص وخوف . كان هناك حديث فى
كل مكان عن « الكورغن » ، وعن حتمية عودتهم للهجوم اثناء الليل . كانت
جراح مخالبا الوندول على وجهى تؤلمنى ، فقد كانت تقرصنى وهى
تتمائل الى الشفاء ، كما كانت تؤلمنى كلما حركت فمى لاكل أو
أتكلم . واقول الحق ان عزيمة المحارب قد هجرتنى . فقد أصبت
بالخوف مرة اخرى ورحلت أعمل بصمت جنباً الى جنب مع النساء
والرجال .

حوالى الظهر زارنى النبيل المسن الادرد (ساقط الاسنان) الذى
كنت قد تحدثت اليه فى قاعة الوليمة . تنحى بى جانبا وقال
يحدثنى باللاتينية : « اريد ان اقول لك بضع كلمات » . ثم قادنى
بضع خطوات بعيدا عن العمال والتحصينات .

بدا باظهار اهتمام كبير بفحص جروحى التى لم تكن فى الواقع
خطيرة الى ذلك الحد ، وبينما كان يفحص تلك الجراح قال لى
« اريدك ان تنقل تحديرا وانذارا لجماعتك ، هناك ثورة وقلق فى
قلب الملك روث غار » . قال لى هذا باللاتينية .

سألت « وما السبب ؟ » قال النبيل الشيخ « انه المنادى والابن وغلف أيضا الذى لا ينى - يهمس فى أذن الملك . ثم هناك صديق وغلف . فوغلف يكرر على مسامع روث غار ان بيولف ورفاقه يخططون لقتل الملك وحكم المملكة » .

« وهذا ليس صحيحا » قلت هذا رغم اننى لم اكن اعرف الحقيقة . وبصدق كانت الفكرة تخطر على بالى من وقت لآخر ، فقد كان بيولف شابا قويا وكان روث غار هرما ضعيفا ، وفى حين كان صحيحا ان طرق وعادات الشماليين غريبة فانه صحيح وحقيقى ايضا ان كل الرجال متشابهون (فالانسان هو الانسان اينما كان) . تابع النبيل الشيخ قائلا « المنادى ووغلف ينظران بحسد الى بيولف . وهما يستمعان الجو بالهمس الدائم فى أذن الملك . اننى انما اخبرك بكل هذا لكى تخبر الآخرين لكى يكونوا على حذر ، فهى قضية تناسب زواحف الخوف القائلة » ثم أعلن ان جروحي كانت بسيطة وغادرنى .

ثم عاد النبيل الى مرة أخرى وقال « ان صديق وغلف هو رائغر » ثم ابتعد ثانية دون أن ينظر الى مرة أخرى . وبعد كبير رحت أحقر وأعمل فى بناء التحصينات حتى وجدت نفسى قرب هرغر ، كان مزاج هرغر ما زال كئيبا كما كان فى اليوم السابق . حياتى بهذه الكلمات : « لا أريد ان أسمع أسئلة مجنون » . قلت له انه ليس لدى أية أسئلة أطرحها ، ثم حدثته بما أخبرنى به النبيل الشيخ ، وأضفت قائلا بأنها قضية تلائم زواحف الخوف القائلة (١) وعندما أنهيت حديثى عبس هرغر وأقسم أغلظ الايمان

(١) ٧ يصف ابن فضلان زواحف الخوف الاسطورية هذه Baslisk

مفترضا كما يبدو ان قراءه يعرفون هذا المخلوق الاسطورى ، والذي يظهر فى المعتقدات الاولى لكل الثقافات الغربية تقريبا . والباسلسك أو زاحف الخوف ، والمعروف ايضا باسم كوكاتريس Cokatrice . هو عادة نوع من الديكة له ذب انسى ولبنانية أرسل . يحل احاثا سلما بدل الريش . وما هو صحيح دائما عن الباسلسك أو زاحف الخوف هو ان نظرتهم قاتلة ، كتنظرة الكورغون . كما ان سمه مميت لائق وطفا لمسح الحكايات فان أى شخص يطعن زاحف الخوف هذا يستطعم أى يرى السم وهو يصعد سلمه ثم يدخل فى يده . وسيكون هذا الانسان مرغما فيما بعد على ان يقطع يده ذاتها لينقذ حسنه .

ربما كان شعور الخوف والخطر هذا من زاحف الخوف هو الذى يشير لذكره هنا . فالنبيل الشيخ يخبر ابن فضلان بما معناه ان محاربة مباشرة مع مسبب الاضطرابات لن تحل المشكلة . ومن المضمح حقا ان نعلم ان إحدى طرق التخلص من زاحف الخوف كانت فى تركه يرى خياله المعكوس فى مرآة ، فقد كان عندما يقتل بنظرته ذاتها .

وهو يضرب الارض بقدمه ثم طلب الى أن أرافقه الى بيولف .
كان بيولف يوجه سير العمل على الخندق فى الجانب الآخر عن
المعسكر . تنحى هرغر به جانبا وحدثه بسرعة بلسان أهل الشمال
مع اشارات تكررت باتجاهى انا . عبس بيولف بدوره وأقسم
الايمان وضرب الارض برجله كما فعل هرغر ، ثم سال سؤالا . هنا
سألتى هرغر قائلا « ان بيولف يسأل من هو صديق وغلف ؟ هل
أخبرك الشيخ من هو صديق وغلف ؟ » .

أجبت بأنه قد فعل وأن هذا الصديق اسمه رنفر . عند سماعهما
هذا الخبر استأنف بيولف وهرغر حديثهما وتجادلا لمدة قصيرة
ثم ابتعد بيولف بعد أن تركنى مع هرغر . قال هرغر « لقد بت فى
الامر » .

وسالت « وما الذى تقرر ؟ » أجاب هرغر « ابق على أسنانك
مطبقة » وهو تعبير شمالي يعنى انه لا يجوز أن أتكلم .

وهكذا عدت الى عملى دون أن أفهم شيئا عن هذه القضية أكثر
مما كنت أعرف من قبل . ومرة أخرى صرت أشعر بأن هؤلاء
الشماليين هم أكثر الناس شذوذا وتناقضا على سطح البسيطة ،
اذ أنهم لا يتصرفون حول أية قضية من القضايا كما يتوقع من أناس
عاقليين أن يفعلوا . ومع ذلك استثمرت بالعمل فى تحصيناتهم
السخيفة وفى خندقهم الضحل ، ورحت أراقب وانتظر .

بعد صلاة عصر ذلك اليوم لاحظت بأن هرغر قد اتخذ موقعا
للعمل قريبا من شاب ضخيم قوى . وراح هرغر وهذا الشاب يعملان
جنباً الى جنب فى الحفرة لبعض الوقت . وقد بدا لطريقتى فى
رؤية الأشياء انه هرغر كان يحاول جاهدا أن يقذف بالغبار فى وجه
ذلك الشاب الذى كان فى الواقع أطول بحجم رأس كامل من هرغر
كما كان أصغر سنا أيضا .

احتج الشاب واعتذر هرغر ، الا انه سرعان ما عاد يقذف
الغبار فى وجهه مرة أخرى . ومرة أخرى اعتذر هرغر ، إلا أن
الشاب غضب الان واصطغخ وجهه بالحمرة من الغضب . لم يمض
سوى وقت قصير حتى عاود هرغر قذف الغبار ، فانتفض الشاب
وبصق الغبار والتراب بغضب شديد . وصاح فى وجه هرغر
بكلمات أخبرتنى هرغر بها فيما بعد رغم أن المعانى كانت واضحة بما
فيه الكفاية منذ البدء .

الفصل التاسع عشر

قال الشاب « أنت تحفر كالكلب » .

اجاب هرغر قائلا : « او تدعوني كلبا؟ » على هذا اجاب الشاب قائلا :
« كلا انما اقول بانك تحفر كالكلب وانت تنفض الفبار بلا انتباه
كالحيوان تماما » . وقال هرغر : « او تدعوني اذن حيوانا ؟ »
فاجاب الشاب « انت تخطيء فهم كلمائى » . وهنا قال هرغر
« هذا صحيح فان كلمائك ملتوية محدودة كامراة شمطاء هزيلة » .
صاح الشاب وهو يستل سيفه « هذه المراة ستديقك طعم الموت » .
وهنا استل هرغر سيفه ايضا ، فلم يكن ذلك الشاب الا رنفر
نفسه ، صديق وغلف . وهنا وعلى هذا الشكل رايت نيات بيولف
وقصده فى هذه القضية واضحة تماما .

هؤلاء الشماليون شديدا الحساسة فيما يتعلق بكرامتهم
وتجربى فيما بينهم مبارزات عديدة بعدد مرات تبولهم ، كما ان
معركة حتى الموت بهذا الصدد تعتبر امرا عاديا . وقد تقع هذه
المعركة فى موقع الاهانة ، اما ان كان لابد من المنازلة بشكل رسمى
فان المبارزين يلتقون عند ملتقى طرق ثلاث . وعلى هذا النحو تحدى
رنفر هرغر لمبارزته .

وعادة الشماليين فى هذا المجال تجربى على النحو التالى : فى
الوقت المحدد يتجمع اصدقاء واقارب المبارزين فى موقع المعركة
ويقومون حفرة سرية على الارض مغطاة بالجلد ، ويثبتون هذا الجلد
بواسطة أربعة اعمدة من الفار . ويجب ان تجربى المعركة فوق هذا
الجلد بحيث يضع كل من المبارزين قدما او قدمين على الجلد طيلة
الوقت وبهذا الشكل يبقى المتخاصمين قريبين من بعضهما طيلة
الوقت . ثم يصل المتحاربان ومع كل منهما سيف وثلاثة تروس ،
فان انكسرت التروس الثلاثة وجب عليه ان يحارب بلا حماية
وتستمر المعركة حتى الموت .

هكذا كانت القوانين كما رتلتها الحيزبون الشمطاء ، اى ملاك
الموت فى موقع الجلد الممدود ، بينما كل جماعة بيولف واهل مملكة
روث غار مجتمعون حول المكان . وكنت انا هناك ايضا ولكننى لم

اكن قريبا جدا من المقدمة . ولقد تعجبت كثيرا كيف يستطيع هؤلاء الناس أن ينسوا خطر الكورغن الداهم والذي كان قد أربهم قبل ذلك الى حد الجزع . اما الان فلم يكن أى منهم يهتم بأى شىء على الإطلاق سوى المبارزة .

وقد جرى النزال بين رنفر وهرغر على النحو التالى . ضرب هرغر ضربته الاولى فقد كان هو المتحدى ، وون صوت سيفه هائلا مرعبا وقويا على ترس رنفر . انا شخصا كنت خائفا على هرغر لان ذلك الشاب كان اضخم بكثير واغوى منه ، وفى الحقيقة قصبت ضربة رنفر الاولى ترس هرغر من عند القبض ، فطلب هرغر ترسه الثانى . ثم استؤنفت المعركة مرة أخرى وبوحشية شديدة . نظرت مرة أخرى الى بيولف فلم أرى على ملامح وجهه أى تعبير على الإطلاق ، ثم نظرت الى وغلف والمنادى على الجانب المقابل اللذين كانا ينظران بين حين وآخر الى بيولف بينما المعركة محتدمة .

ثم انكسر ترس هرغر الثالث وبدأ حال هرغر يائسا يأسا ما بعده هرغر شديد التعب والارهاق وقد علا وجهه الآخر العرق والجهد ، بينما بدا الشاب رنفر مرتاحا هادئا وهو يقاتل بجهد بسيط .

ثم انكسر ترس هرغر الثالث وبدأ حال هرغر يائسا يأسا ما بعده يأس ، أو هكذا بدا لى للحظة عابرة . وقف هرغر وقدماه جامدتان على الارض وانحنى وهو يلهم مرهقا تعباً الى أبعد حدود التعب وهنا اختار رنفر هذه اللحظة ليطبق عليه . وفى لمح البصر تنحى هرغر جانبا وكأنه رعدة جناح طير فانقرض سيف رنفر الشاب فى هواء الفراغ . وهنا رمى هرغر سيفه من يد الى أخرى ، فهؤلاء الشماليون يستطيعون أن يقاتلوا قتالا رائعاً بكلتا اليدين وبنفس القوة . وبسرعة فائقة استدار هرغر وقطع رأس رنفر من مؤخرته بضربة واحدة من سيفه .

ولقد رأيت بعينى الدم يتدفق من عنق رنفر بينما الرأس يطير فى الهواء ويقع بين حشد الناس ، ثم رأيت بعينى الرأس يصطدم بالارض قبل أن يصطدم الجسد أيضا بالارض . هنا تنحى هرغر جانبا وعندها فقط أدركت أن المعركة لم تكن الا مهزلة ، فقد اتوقف هرغر عن اللهاث والتفخ والتعب ووقوف دون اشارة اجهاد ودون

ان يرتفع صوته وينخفض من اللهاث وكان يحمل سيفه بخفة ويبدو وكأنه قادر على ان يقتل عشرة رجال آخرين من نفس النوع . ثم نظر الى وغلف وقال « كرم صدقك » وهو يقصد ان يعنى وغلف بأمر الدقن .

وبينما كنا نغادر موقع النزال قال لى هرغر انه كان يتصرف بجذ ودهاء لكى يعرف وغلف ان رجال بيولف لم يكونوا فقط محاربين اقوياء شجعانا ولكن مقاتلين دهاء ايضا . « سيزيد هذا من خوفه ولن يتجرا ان يقول شيئا ضدنا » . كان هذا آخر ما قاله هرغر فى ذلك الوقت .

ولقد شككت فى ان تمطى خطته هذا الاثر ، ولكن الحقيقة ان الشماليين يمتدحون المكر والدهاء وينظرون اليه باكبار اكثر مما ينظر اليه اكثر مقاتلى الهازار خداعا ومكرا ، بل اكثر من اكثر تجار البحرين كذبا والذين يشكل الدهاء بالنسبة اليهم نوعا من انواع الفن . فالذكاء فى المعركة والامور الرجولية تعتبر فضيلة اكبر من القوة المجردة فى عالم المقاتلين .

الا انه رغم ذلك كله لم يكن هرغر سعيدا ، كما انى لاحظت ان بيولف لم يكن سعيدا ايضا . وبينما كان المساء يقترب بدأت بواد الضباب تتجمع فوق التلال العالية . لقد اعتقدت انهم كانوا يفكرون برنغر الميت والذى كان شابا متيا قويا شجاعا والذى كان من الممكة ان يكون ذا فائدة عظيمة فى المعركة القادمة . لكن هرغر قال لى معلقا على ذلك : « ان الرجل الميت ليس مصدر نفع او فائدة لاي انسان » .

الفصل العشرون

هجوم تنين « الكورغن المضيء »

مع هبوط الظلام راح الضباب يزحف من على التلال ويلتف كالاصابع حول الاشجار وفوق الحقول الخضراء باتجاه قاعة هاروت ومحاربى بيولف الذين كانوا بانتظار الضباب . هنا حصل ارجاء

فى العمل ، فمن ثبع ماء عذب حول الماء باتجاه الخندق وعندما
فهمت مجمل الخطة ، اذ ان الماء أخفى العصى كما أخفى الحفر
العميقة ، مما جعل الخندق شركا خادعا لآى غاز .

واضافة الى هذا فان نساء روث غار رحن ينقلن قرب الماء
المصنوعة من جلد الماعز من البئر ويغمرن السياج بمائها والمنازل
وكل سطوح قاعة هاروت . وكذلك أيضا راح محاربو بيولف يصبون
الماء على أجسادهم وثيابهم وأسلحتهم من ماء النهر . وكان الليل
رطباً بارداً ، ولاعتقاد بان هذا كان طقساً من طقوسهم الوثنية
اعتذرت عن ممارسته أو قبوله ولكن عبثاً : فقد غمرنى هرغر بالماء
كالآخرين من قمة رأسى حتى قدمى . فوقفت والماء يقطر من جسمى
وأنا ارتجف حتى انى فى الحقيقة صرخت لصدمة الماء البارد وطالبت
بان أعرف السبب . فكان جواب هرغر « ان تنين ضوء الليل ينثف
النار » .

ثم قدم لى كاساً من شراب اليد ليخفف من شعورى بالبرد
فشربته جرعة واحدة وكنت سعيداً به . كان الليل مظلماً هالك
الظلمة وكان محاربو بيولف ينتظرون وصول التنين « كورغن » .
كانت كل العيون تنظر باتجاه التلال وقد غابت فى ضباب الليل .
الا بيولف نفسه الذى راح يقطع محيط التحصينات جيئةً وذهاباً
وهو يحمل سيفه العظيم رندنغ ويتمتم بكلمات التشجيع التى كان
يوجهها بصوت منخفض الى محاربيه . كانوا جميعاً ينتظرون بهدوء
باستثناء واحد منهم وهو الضابط اكثفو . واكثفو هذا هو معلم فى
استعمال فأس اليد ، وقد أقام عموداً قوياً من الخشب على مسافة
قريبة منه . وراح يتدرب على رمى بلطة اليد هذه على العمود
الخشبي مرات ومرات . وفى الحقيقة قدمت اليه كثير من البلطات
أو فتوس اليد حتى انى عددت خمساً أو ستاً كانت مربوطة الى
حزامه العريض وكانت هناك بلطات أخرى فى يديه وكثير منها منثور
على الأرض حوله .

وكان هرغر يتدرب على قوسه وحسامه بنفس الطريقة ، وكذلك
كان يفعل سكلد ، لان هؤلاء الثلاثة كانوا أكثر الرماة مهارة بين
المحاربين الشماليين . كانت سهام الشماليين مزودة برؤوس

حديدية . وهى ممتازة الصناعة قناها مستقيمة كجبل مشدود .
وفى كل قرية أو معسكر لهم هناك رجل غالبا مايكون كسيحا او
اعرجا يسمى صانع السلاح يفصل السهام وأقواسها ايضا لمحاربى
منطقته ويدفع له مقابل هذه الحسنات ذهباً او صدفاً او وكما رايت
بأم عيني طعاما ولحما (١) .

وأقواس الشماليين تكاد تكون بطول اجسادهم ومصنوعة من
قضبان شجر البتولا . اما اسلوب اطلاق السهام فهو كالتالى تشد
قناة السهم حتى الاذن وليس حتى العين ومن هناك تترك لتنتقل ،
وهى قوية لدرجة ان هذه القناة قد تمر بسهولة مخترة جسم
الانسان من طرف الى اخر دون ان تستقر فيه ، كما تستطيع هذه
القناة ان تخترق ضفيحة من الخشب بسماكة قبضة يد الانسان .
ولقد رايت بعيني مثل هذه القوة فى سهم ، حتى انى حاولت ان اتقلد
واستمع ل أحد أقواسهم ، ولكن عبثا لانه كان اطول واعصى من ان
استطيع تدبير امره . والشماليون ايضا مهرة فى كل فنون الحرب
والقتل بأسلحتهم المختلفة التى يعتزون بها ايما اعتزاز . وهم
يتحدثون عن اتساق الحرب ، والذى لا يعنى شيئا ابدا كترتيب
الجنود مثلا لانه كل قتالهم ومعاركهم هى قتال رجل لآخر يكون
عدوه . اما خطأ القتال فيختلفان باختلاف السلاح المستعمل .
فبالنسبة للسيوف العريضة التى يلوح بها دائما على شكل قوس ولا
تستعمل ابدا فى الطعن فهم يقولون عنها : « هذا السيف يبحث عن
خط الانفاس » والذى يعنى بالنسبة اليهم العنق وبالتالى تعنى هذه
الجملة قطع الرؤوس عن الاجساد . اما بالنسبة للرمح والسهم
والبلطة والخنجر وادوات الطعن الاخرى فانهم يقولون عنها : « هذه

(١) واضمح ان هذا القطع هو مصدر التعليق الذى نشره عام ١٨٦٩ العالم الاب نوبل
هارلى ، والذى يقول فيه : انه بين الفايكنج البرابرة كانت القيم الاخلاقية مكسوة
مقلوبة الى حد من التضاد كانت تبدو معه مفاهيم الصدقات على انها واجبات او صدقات
تدفع لصانعى الاسلحة . وقد تجاوز تأكيد هارلى الفيكترى حدود معرفته اللغوية .
فالكلية الشمالية Alm وهى تعنى Elm ، وهو الخشب الطرى
الذى يصنع منه الاسيكتندافيون أقواسهم ورمحهم ، وبعض الصدفة كان لهذه الكلمة
معنى فى اللغة الانجليزية ايضا . فالكلية الانجليزية Alms والتى تعنى
الهباء الخيرية هى كلمة يعتقد عادة بانها مشتقة من الكلمة اليونانية Eleos
ومعناها يشفق على .

الاسلحة تبحث عن الخط الدم . « (١) بهذه الكلمات هم يقصدون الجزء المركزي من الجسد بدءا من الرأس وحتى الاربية أو اصل الفخذ فالجرح في هذا الخط المركزي يعنى بالنسبة اليهم الموت المحقق لعددهم . ويعتقدون ايضا انه من الاولى ان تظعن المعدة لطراوتها من ان يظعن الصدر أو الرأس .

وفي الحقيقة استمر بيولف وجماعته بالمراقبة اليقظة طيلة تلك الليلة ، وكنت أنا بين الساهرين . ولقد عانيت الكثير من التعب والاجهاد وفي هذا النفر وسرعان ما شعرت بتعب شديد كما لو اني خضت معركة حامية ، الا ان معركة من هذا النوع لم تقع أبدا . أما الشماليون فلم يكونوا متعبين ولكنهم كانوا متأهين مستعدين في كل لحظة . صحيح انهم اعظم الناس حيوية ويقظة على سطح البسيطة دائمو الاستعداد لاية معركة أو خطر داهم ، كما انهم

(١) **Linea Adeaps** : تعنى حرفيا - الخط أو الخيط الدم - مع ان الحكمة التشريحية في هذا المقطع لم يشك فيها يوما جندي خلال الالف سنة التي مضت على هذا الكلام - لان خط الوسط في الجسم هو المكان الذي تتجمع فيه أكثر الاصابات والاورية حيوية في كل الجسم - فان الاشتقاق الدقيق لهذا التعبير كان غامضا . وفي هذا المجال من المفيد ان نبين ان احدى السير الايسلندية تتحدث عن محارب مجروح عام ١٠٣٠ م يسحب سهما من صدره ويرى قطعاً من لحمه معلقة على رأسه . عندما يقول انه ما زال لديه بعض الدم أو الدهن حول قلبه . ويتفق معظم العلماء على ان هذا تعليق ساخر من المحارب الذي كان يدرك تماما انه كان قد جرح جرحا قاتلا ، وهو ما يعطينا حسا تشريحيًا رائعا .

في عام ١٨٧٤ اشعار المؤرخ الامريكي روبرت ميلر الى هذه الفقرة من مخطوطة ابن فضلان حين قال ، « رغم ان الفايكنج ، هم محاربون قساة فان اطلاعهم على المعلوم التشريحية شئيل محدود . فقد كان يطلب من محاربهم ان يبحثوا عن خط الوسط العمودي في جسم الخصم ، ولكنهم عندما كانوا يفعلون ذلك بالضبط كانوا يخطئون القلب الذي موضعه في يسار الصدر » .

وحقيقة القول ان ضالة المعرفة والاطلاع هي من صفات ميلر - نفسه لا من صفات الفايكنج . . فعل امتداد مئات السنين العديدة الماضية كان الفرييون العاديون يعتقدون دائما بان موقع القلب هو على يسار الصدر ، والامريكيون يضعون أيديهم على قلوبهم عندما يقسمون بين الولاء للمعلم .

والحقيقة هي ان القلب هو بناء من ابناء خط الوسط في الجسد ، وهو البناء الذي يعتمد بدرجات متفاوتة الى يسار الصدر ، الا ان جرحا في خط الوسط في الصدر لابد وأن يخترق القلب دائما .

لايشعرون بالتعب ابدا من استمرارية هذا الوضع والذي هو امر طبيعى بالنسبة لهم منذ ولادتهم . فهم فى كل الاوقات متنبهون يقظون .

بعد مرور بعض الوقت غفوت ولكن سرعان ما احسست بهرغر يوقظنى بعنف : شعرت بهزة شديدة وبصفير قرب راسى ، وعندما فتحت عينى رايت سهما يهتز ويصطدم بالخشب على مسافة عرض شعرة من انفى . كان هذا سهما أطلقه هرغر الذى راح هو والآخرين يضحكون طربا لحالة الهلع التى اصابتنى . ثم قال لى « اذا نمت فستتغيب عن المعركة . » فقلت مجيبا بان هذا لن يكون مأساة كبيرة طبقا لطريقة تفكيرى .

استعاد هرغر رمحه وحين رأى اننى كنت غاضبا لمزاحه الخشن جلس بجانبى وراح يحدثنى بطريقة ودية صادقة . وقد كان هرغر هذه الليلة ذا مزاج واضح الرغبة للتنكيت والضحك والسخرية . شاطرنى قدحا من شراب الميد ثم حدثنى قائلا « ان سكلد مسحور » ثم ضحك لهذا طويلا .

لم يكن سكلد بعيدا عنا فناداه هرغر بصوت عال وعندها أدركت انه كان يفترض بسكلد ان يكون قد سمع ماقلناه عنه ، الا ان هرغر حدثنى باللاتينية التى لم يكن سكلد يفهمها ، لهذا ربما كان هناك سبب اخر لم اكن اعرفه . فى هذه المرة راح سكلد يبرىءوس سهامه منتظرا المعركة . وهنا سألت هرغر : « وكيف هو مسحور ؟ » فقال هرغر مجيبا « ان لم يكن مسحورا فانه ربما بدا ينقلب عربيا ، لانه بدا يغسل ثيابه الداخلية ويفسل جسده كل يوم الم تلاحظ هذا بنفسك ؟ » اجبت باننى لم الاحب ذلك فيه . فقال هرغر وقد غرق فى ضحكة طويلة « ان سكلد انما يفعل ذلك من اجل هذه المرأة الحرة او تلك التى قد ملكت عليه ليه وفؤاده . فمن اجلها يغتسل بالماء كل يوم ويتصرف كأحمق خجول رقيق ، الم تلاحظ كل ذلك ؟ » ومرة اخرى اجبت باننى لم الاحب مثل ذلك ، فسألنى هرغر بحدة « اذن ما الذى تراه بدلا من ذلك ؟ » ثم ضحك كثيرا اعجابا بنباهته الشخصية ، وهو اعجاب لم اكن اشاركه فيه ولا حتى تظاهرت بذلك لاننى لم اكن فى مزاج يدفعنى الى الضحك ابدا وهنا قال هرغر ،

« أنتم العرب شديدو القسوة والصرامة . وأنتم تهمهمون شاكين طيلة الوقت . وليس هناك من شيء في نظركم يثير الضحك ؟ » .

هنا قلت له بأنه يخطيء الظن . فتحدثني أن اقص عليه قصة مرة . حدثته بقصة الموعظة التي القاها ذلك الواعظ الشهير . أنتم بالطبع تعرفون هذه القصة جيدا . فهي تتحدث عن واعظ شهير يقف على منبر الجامع وقد تحلق حوله الرجال والنساء ليسمعوا كلماته الكريمة . في هذه الاثناء يقوم رجل اسمه حميد بارتداء ملابس امرأة ويضع على وجهه وشاحا ويجلس بين النساء . يقول الواعظ المشهور : « طبقا للاسلام ، يستحسن الا يدع رجل أو امرأة شعر العانة ينمو طويلا جدا . » فيسال احدهم : « ومتى يصبح طويلا جدا ايها الواعظ ؟ » - الكل يعرف هذه القصة طبعا فهي نكتة قليلة الحياء - يجيب الواعظ « لا يجوز أن يطول الى ما هو أطول من سنبله شعير . » وهنا يسأل حميد المرأة الجالسة بجانبه : « اختاه أرجوك أن تفحصي شعر عانتى وتخبريني ان كان أطول من سنبله شعير . » وتمد المرأة يدها تحت رداء حميد لتتحسس شعر العانة عندما تصطلم يدها بعضوه فتطلق صيحة وهي في حالة ذهول . ويسمع الواعظ هذه الصيحة فيسر كثيرا ويتجه الى الحضور قائلا : « يجب عليكم جميعا أن تتعلموا اصول الاصفاء الى موعظة كما تفعل هذه السيدة ، فانكم ترون بانفسكم كم مست شفاف قلبها . » وهنا تصبح المرأة مجيبة ومازالت الصدمة تهزها : « انه لم يمس شقف قلبي ايها الواعظ انما مست يدي . »

الفصل الحادى والعشرون

اصفى هرغر لقصتى بلامح محايدة تماما . ولم يضحك حتى ولم يتسم . وبعد أن أنهيت حديثى سألنى ببلاهة ظاهرة « ماذا تقصد بالواعظ ؟ » عندها أجبتة بأنه شمالي غبى لم يكن يعرف شيئا عن مدى اتساع هذا الكون وهذا العالم . فضحك لتأنيبى هذا ضحكا شديدا بينما لم تضحكه ولا مرة واحدة قصتى الخيالية .

وفى هذه اللحظة اطلق سكلد صيحة التفت بعدها كل محاربى

بيولف وأنا بينهم لينظروا باتجاه التلال فيما وراء طبقات الضباب .
وهاكم مارايت : على ارتفاع كبير في الهواء رأيت نقطة ضوء نارية
متوهجة وكأنها نجمة متألقة وعلى بعد كبير منا . ولقد رآها المحاربون
جميعا ، فحدث بينهم لفظ واستغراب وتعجب .

وسرعان ما ظهرت نقطة اضاءة اخرى ثم ثانية ثم ثالثة عدت
اكثر من عشرة ثم توقفت عن العد ، فقد بدت هذه النقاط المضيئة
وكانها في نسق كانت تتلوى كالافعى او كجسد التنين المتلوى .

« تها الان » قال هرغر لى مضيفا القول الشمالى المأثور : « اتمنى
لك حظا جيدا في المعركة القادمة . » رددت له أمنيته هذه بأفضل
منها ثم ابتعد عنى .

كانت نقط النار المضيئة مازالت بعيدة ولكنها كانت تقترب شيئا
فشيئا . في هذه اللحظة سمعت صوتا ظننته الرعد . كان هذا
رنين دمدمة عميقة كانت تملأ الهواء العابق بالضباب كما تفعل كل
الاصوات في الضباب . فمن المعلوم ان همسة انسان في الضباب
يمكن سماعها على بعد مائة خطوة واضحة كما لو كان يهمس في اذنك .

رحت اراقب واصفى في حين شد مقاتلو بيولف قبضاتهم على
اسلحتهم وراحوا يرقبون ويصفون بانتباه شديد ، بينما تنين
الكورغن المضى راح ينهال علينا متلفعا بالرعد واللهيب .

وشيئا فشيئا كانت كل نقطة مضيئة تتنامى وتكبر حمراء كالحجر
تومض . اما جسد التنين فكان طويلا متلألئا ، وهو منظر
مثير لاشد الرعب ، الا اننى مع ذلك لم اشعر بالخوف ، لاننى أدركت
الان ان هؤلاء لم يكونوا سوى خيالة او فرسان يحملون المشاعل ،
وقد ثبت لى ان ذلك كان صحيحا .

وهكذا فسرعان مابرز الخيالة من الضباب هياكل سوداء تحمل
مشاعل مرفوعة فوق خيول سوداء تزفر وتنفقض . واحتدمت
المعركة . وسرعان ما امتلا جو الليل باصوات صراخ مرعب وصيحات
الموت لان اول موجة من هجوم الخيالة كانت قد اصطدمت بالخندق
فانقلبت خيول كثيرة وسقطت لاطمة راكبيها بالارض بينما غرقت
المشاعل بالماء . وقد حاولت خيول كثيرة ان تقفز فوق السياج
ولكنها علقت بنهايات العصي المدببة . وانتشرت النيران في جزء من

هذا السياج . أما المحاربون فقد راحوا يترافضون في كل اتجاه .

رايت أحد هؤلاء الخيالة يقفز بجواده فوق القسم الملتهب من السياج ، وقد تمكنت من رؤية هذا الوندول يوضح تام ولأول مرة في حياتي . ولقد رايت مايلي : على ظهر جواد أسود كان يركب شكل بشرى ملفع بالسواد ، لكن رأسه كان رأس دب . وقد ذهلت لبعض الوقت عند رؤية هذا المنظر المريب حقاً وخشيت أن أموت من الرعب وحدي لأنني لم أر كابوساً كهذا في حياتي حتى ولا في المنام . ولكن في نفس تلك اللحظة كانت بلطة اكثغو تنغرز عميقاً في ظهر الفارس الذي انقلب وسقط ويسقطه تدحرج رأس الدب عن جسده فرايت عندها أنه كان له رأس إنسان تحت رأس الدب .

وبسرعة البرق قفز اكثغو فوق المخلوق الساقط وطعنه طعنة عميقة في صدره ثم قلب الجثة على قفاها واستعاد بلطته من ظهرها وجري لينضم الى المعركة ثانية . وانضمت أنا الى المعركة أيضاً ، لأنني أصبت بطلمة جعلتني الف وأدور على قدمي . كانت لطة من رمح أصبح كثير من الخيالة الآن في قلب السياج ومشاعلم متوهجة ، بعضهم كان له رعوس اللبية وبعضهم لم يكن له مثل تلك الرعوس . وقد تحلقوا في حلقة وحاولوا أن يضرموا النار في الابنية وفي قاعة هاروت وقد حارب بيولف ورجاله ضد هذه المحاولة بعنف شديد .

استقرت على قدمي في اللحظة التي انقض فيها أحد وحوش الضباب على فوق حصانه المندفع . وقفت ثابتاً وقد رفعت رمحي عالياً ، وقد اعتقدت لوهلة بأن شدة الضغط سوف تعصرني ولكن الرمح مر خلال جسد الفارس فصاح صيحة مرعبة لكنه لم يسقط عن حصانه بل ظل راكباً . أما أنا فقد سقطت على الأرض وأنا ألث من الألم الذي كان يقطع معدتي ولكني لم أكن حتى ذلك الحين قد جرحت جرحاً حقيقياً .

وخلال المعركة أطلق هرغر وسكلد سهامهم العديدة وامتلأ الجو بصغيرهم وأصابوا أهدافاً كثيرة أيضاً . ولقد رايت أحد سهام سكلد يخترق عنق أحد الفرسان ليستقر هناك ، ثم رايت مرة ثانية سكلد وهرغر يطعنان معاً أحد الفرسان في صدره ثم يعودان بسرعة لسحب

سهامهم من غمدها واطلاقها على نفس هذا الفارس حتى استقرت اربعة منها في جسده ، بينما صراخه يملأ الجو رعبا وهو يعدو بعيدا بجواده .

ومع ذلك علمت بأن هذا العمل اعتبر قتالا هزليا يمارسه هرغر وسكلد ، لان الشماليين يعتقدون أن لاشيء مقدس في الحيوانات ، وهكذا فبالنسبة اليهم كان الاستعمال الملائم للسهام ينحصر في قتل الخيول لايقاع الراكب . وهم يقولون في ذلك : « أن رجلا ساقطا عن حصانه هو نصف انسان ، وفرص قتله مضاعفة . » وهكذا يتقدمون دونما ابطاء أو تردد(١) .

ثم اندفع احد الفرسان في قلب المعسكر وقد انحنى قدر المستطاع فوق فرسه الاسود المنطلق كالسهم ثم امسك بجسد الوحش الذى كان اكثفو قد قتله ووضع على عنق حصانه وجرى الحصان مبتعدا . فكما قلت سابقا ، لا يترك وحوش الضباب هؤلاء ايا من قتلهم ليكتشف في ضوء الصباح .

احتدمت المعركة مدة من الوقت طويلة وعلى ضوء النار المتأججة في قلب الضباب . وقد رايت هرغر مشتبكا في معركة حياة او موت مع احد هؤلاء الشياطين . فاخذت رمحا جديدا وغرزته في ظهر ذلك المخلوق ، فرفع هرغر يده الى شاكرا والدماء تقطر منه ثم عاد ليفرق في حمم المعركة . وهنا شعرت بفخر وزهو عظيمين .

حاولت مقلدا ان استعيد رمحي ولكنى وبينما كنت احاول ذلك اصبت بصدمة من خيال عابر اطاحت بى بعيدا ، واقول الحقيقة اننى منذ تلك اللحظة لم اعد أتذكر الا القليل . رايت بيت احد نبلاء روثغار يحترق بالسنة اللهب المتدفقة ، ولكنى رايت أن قاعة هاروت النائمة كانت لانزال سليمة لم يمسها سوء ، فشعرت بسرور عظيم كما لو كنت انا شماليا ، وكانت هذه آخر افكار ولدتهسا مخيلتى .

(١) طبقا للقانون الدينى يمتنع المسلمون بأن « رسول الله قد حرم القسوة فى معاملة الحيوانات » . واضافة الى ذلك كان العرب يمتنون بصورة خاصة بتربية وتدريب الخيول . اما الاسكندنافيين فليس لديهم أى شعور خاص تجاه الحيوانات وقد نوه كل المراقبين العرب تقريبا بانعدام الشعور تجاه الخيول عند الاسكندنافيين .

الفصل الثاني والعشرون

ومع اطلالة الفجر إبقظني ما يشبه غسلا على صفحة وجهي ، وقد سرتني اللمة اللطيفة . وسرعان ما أدركت بعدها أنني كنت اتلقى عناية كلب لاعي ، وكم شعرت عندها بشعور الاحمق السكران ، ثم أصابني رعب شديد لا أشك بأنكم تستطيعون تصويره (١) .

وجدت نفسي ملقى في الخندق حيث كان الماء أحمر كالدم . نهضت ومشيت عبر المسكر العابق بالدخان وبما لا يوصف من الموت والدمار . رايت الأرض نفسها مشبعة بالدماء كما تكون مشبعة بالامطار وقد تكونت فوقها برك من الدماء كثيرة . رايت أجساد النبلاء المقتولين ونساء وأطفالا موتى أيضا . كما رايت ثلاثة أو أربعة أجساد وقد احترقت في النيران حتى تفحمت . كانت كل هذه الأجساد منشورة في كل مكان على الأرض وكنت مجبرا على أن أبقى

(١) كان معظم المترجمين الأوائل المخطوطة ابن فضلان من المسيحيين الذين لم يكونوا يملكون أية معرفة بالثقافة العربية ، وكانت ترجمتهم لهذا المقطع غالبا ما تمكس جهلهم ففي ترجمة مسترسلة يقول الإيطالي لاسيلا (١٨٤٧) « في الصباح استيقظت من غفوتي السكرانة وكانني كلب مشرد ، وكم شعرت بالخجل لحالتي هذه » . ويستنتج سكوف مانه في تعليق له عام ١٩١٩ ويقول انه « لا يستطيع أى إنسان أن يضع ثقته أو يصدق قصص ابن فضلان ، لانه كان سكرانا مخمورا أثناء المارك ، وهو يشترط بذلك » ، ويلطف أكثر قليلا من ذلك يقول دوشاتلبيه وهو مختص موثوق به بتأريخ الفايكنج ، يقول في تعليق له عام ١٩٠٨ : « وسرعان ما اكتسب العرب شهرة السكر من المارك ، وهو جوهر روح البطولة الشمالية والنورسية » .

أنا مدين لمسعود فرزان العالم الصوفى بتفسير الإشارة أو التلميح التي يقدمها ابن فضلان هنا . وهو في الواقع يقارن نفسه هنا بشخصية إحدى التكات المربية القديمة جدا : يستقل رجل مخمور في بركة على جانب الطريق . يمر كلب ويبدو بلحس وجهه ، فيظن المخمور أن شخصا لطيفا ينظف له وجهه فيقول بامتنان ، « ليجعل الله أطفالك طيبين لك » . عندها يرفع الكلب رجله الخلفية ويبول على السكران ، الذي يقول ردا على ذلك « وليباركك الله يا أخى لانك أتيت بالماء الدافئ لغسل وجهي » .

في اللغة العربية تحل هذه النكتة مضامين مألوفة عند السكر والتذكير الذكي بأن المشروب ما هو الا خمرة وقذارة كالبول تماما .

ربما كان ابن فضلان يتوقع من قارئه أن يدرك ليس انه كان مخمورا أبدا ولكن انه لحسن الحظ استطاع أن يتحاشى أن يبول عليه كلب كما استطاع في وقت سابق أن يتحاشى الموت في المعركة : انها بتعبير آخر إشارة الى نجاة أخرى من خطر داهم محقق .

نظري مثبتا على الارض ثلثا ادوس على اى منهم فقد كان القتلى
كثيرين ومنتشرين بغزارة في كل مكان .

اما عن منشآت الدفاع فقد احترق شياح العواميد كله تقريبا .
وفي اقسام اخرى منه كانت الخيول تتولى معلقة باردة ، والمشاعل
منشورة هنا وهناك . لكننى لم ار ايا من مقاتلى بيولف .

لم تكن تاتى اية صيحات او نحيب من مملكة روثغار ، فاهل
الشمال لا يتدبون موتاهم ابدا ، ولكنهم على العكس كان يسود الجو
هدوء غير عادى . سمعت صياح ديك ثم نباح كلب ولكننى لم اسمع
اى صوت انساني مع انبلاج الصبح .

ثم دخلت قاعة هاروت الكبرى ، فوجدت جسيدين ممددين على
افصان نبات السمار وقد وضعت خوذاثهم فوق صدورهم . كان
هناك سكلد وهو احدى نبلاء بيولف ، ثم هلتوين الذى كان قد جرح
سابقا اما الان فكان باردا شاحبا . كان كلاهما ميتين ، ثم كان هناك
رثل وهو اصغر المحاربين سنا ، وقد جلس منتصبا فى احدى
الزوايا بينما كانت تعنى بجراحه عدد من الجوارى . كان رثل قد
جرح سابقا ولكنه كان الان يعانى من جرح جديد فى معدته
والدماء تنهمر منه بغزارة وكان واضحا ان ذلك كان يؤلمه الى حد
كبير ومع ذلك لم يبد الا الابتسامة والحبور ، وكان يبتسم دائما
ويعاكس الجوارى بقرصه انداءهن وافخاذهن ، وكن غالبا مايوبخنه
لانه كان يسبب لهن الالتواء وتشتت الدهن بينما كن يحساوون
تضميد جراحه .

واليكم طريقة معالجة الجراح طبقا لعاداتهم وطباعهم . ان كان
جرح المحارب بليغا سواء فى ساعده او فى ساقه فقد كانت تربط
حول هذا الطرف او ذاك دعامة ، ثم توضع قطع من القماش المفلى
بالماء فوق الجرح لتغطيته . كما قيل لى بان نسيج العنكبوت وقطعا
من صوف الحمل قد توضع فى الجرح ليتخثر الدم ويتوقف تدفقه .
ولكننى لم ار مثل هذا ابدا .

اما ان جرح المقاتل فى راسه او فى عنقه فكان الجرح يغسل
حتى ينظف ثم تفحصه الجوارى . فان كان الجلد ممزقا ولكن العظم
سليم يسمون مثل هذا الجرح ، « جرحا لا اهمية له . » ولكن ان

كانت العظام محطمة او مكسورة بشكل او بآخر فانهم يقولون ،
« ان حياته تنطلق من جسده وسرعان ماستهرب . »

اما ان جرح المقاتل في صدره فانهم يتحسسون يديه وقدميه .
فان كانت هذه دافئة قالوا عن مثل هذا الجرح . « انه لا اهمية
له . » اما ان كان هذا المقاتل يسعل ويتقيأ دما ، قالوا « انه ينطق
دماء » ، ويعتبرون ذلك خطيرا جدا . وقد يموت الرجل من مرض
النطق بالدم ، وقد لا يموت حسب قدره .

اما ان جرح المحارب في بطنه ، فانهم يقدمون له حساء من البصل
والاعشاب ، ثم تبدأ النساء بتشتم ماحول جرحه ، فان هن شمن
رائحة البصل قلن « انه مصاب بمرض الحساء » ويعرفن عندها
انه سيموت .

ولقد رايت النساء بأم عيني وهن يحضرن حساء البصل لرثل الذى
شرب كمية منه ، ثم راحت الجوارى يشمن جراحه ، وشمن
رائحة البصل . عندها ضحك رثل وقام بالقاء نكتة مضحكة للغاية
ثم طلب شراب الميد الذى احضر له . وطيلة ذلك الوقت لم يظهر
اى اثر للخوف او المبالاة .

في هذه الاثناء كان القائد بيولف ومحاربوه يعقدون اجتماعا في
مكان آخر من القاعة الكبرى . انضمت اليهم ولكنى لم اتلق اية
تحية منهم . حتى هرغر الذى انقذت حياته لم يعرنى اى انتباه ،
فقد كان المقاتلون جميعا في حديث جدى خطير . كنت قد تعلمت
بعضا من لغة الشماليين ولكن هذا البعض لم يكن كافيا ليتمكننى من
تتبع كلماتهم السريعة المنخفضة ، وهكذا سرت الى مكان آخر وشربت
بعض الميد وتحسست الام جسدى . ثم جاءت جارية لتغسل لى
جراحي التى كانت عبارة عن قطع او جرح في ابطى فخذى وآخر
في صدرى . هذه الجراح لم اكن اعى وجودها الى ان جاءت هذه
الجارية تعرض خدماتها على .

يفسل الشماليون الجراح بماء المحيط لاعتقادهم بان هذا الماء
يحتوى على قوى شافية اكثر مما يختويه الماء العذب . وغسل
الجراح بماء البحر ليس ملائما للجراح . وفي الواقع رحت ائن واتالم

من ذلك بينما رثل يضحك ويحدث الجارية قائلا : « انه مازال عريا . » وعندها شعرت بالخجل .

كما يفسل الشماليون الجراح بيول البقر المسخن ولقد رفضت هذا حين عرض على .

يعتقد الشماليون بأن بول البقر مادة رائعة وهم يخزنونها في اوعية خشبية وفي الظروف العادية يفلونها حتى تصبح كثيفة ومخرشة للأنوف ثم يستخدمون هذا السائل المقرف للفسيل وخاصة لفسل الثياب البيضاء (١) .

وقد اخبرت ايضا عدة مرات ان الشماليين قد يذهبون في رحلات بحرية طويلة دون أن يتوفر لهم الماء العذب الكافي . عندها يشرب كل انسان بوله ، وبهذا الشكل يبقون على قيد الحياة حتى يصلوا شاطئ الامان . هذا ما قيل لى ولكنى لم اره ابدا بحمد الله .

والان اقترب هرغر منى بعد أن انتهى مؤتمر المحاربين . اما الجارية التى كانت تعتن بجروحي فقد جعلت هذه الجراح تحرقنى حتى طار لى . ومع ذلك فقد كنت مصمما على أن اتحلّى بمظهر أهل الشمال من المرح والحبور . فقلت لهرغر « اية قضية تافهة ستكون مهمتنا فيما بعد ؟ » نظر هرغر الى جراحي وقال « انت تجيد ركوب الخيل . » سألت والهلح يتملكنى عن الوجهة التى سأركب فيها الخيل وقد فقدت لبرهة من الزمن كل مرجى وحبورى لانى كنت مرهقا شديدا التعب ولم اكن املك من القوة شيئا الا مايكفى للراحة . فقال هرغر « هذا المساء سيعود التنين المضى للهجوم ثانية ولكننا الان منهكون مرهقون وقد أصبح عددنا قليلا جدا ، ودفاعاتنا محروقة مدمرة . سيقتلنا التنين المضى جميعا . » قال لى هذه الكلمات بهدوء . ولقد رايت ذلك واضحا وقلت لهرغر : « الى أين اذن سنتجه بخيولنا ؟ » وكنت اعتقد انه بسبب خسائرهم الفادحة قد يحاول بيولف وجماعته أن يغادروا مملكة رووثغار . لم يعترض على رأيى هذا .

قال لى هرغر : « ان ذئبا يحتمى دائما فى وكرة لايمكن أن يحصل على اللحم ، كما أن رجلا نائما لايمكن أن يحصل على النصر . » هذا

(١) البول هو مصدر من مصادر الاموتيا (النشادر) وهو مركب منظف ممتاز .

مثل شمالى ومنه ادركت الخطة المغايرة تماما : وهى اننا كنا سنغير على ظهور الخيل ونهاجم وحوش الضباب حيث يختبئون فى الجبال أو فى التلال . ويقلب يملؤه الخوف سالت هرغر عن الوقت الذى سنبدأ فيه هذه المهمة فأجاب باننا سنبدأ عند ظهيرة ذلك اليوم .

فى هذه اللحظة رايت طفلا يدخل القاعة وهو يحمل بيديه شيئا من حجر . أخذه هرغر وفحصه بامعان وكان نحتا حجريا آخر بلا رأس لامرأة حبلى مشوه قبيح . أطلق هرغر صيحة غضب ثم اسقط الحجر من يديه المرتجفتين . ثم صاح بالجارية التى اخذت الحجر وألقت به فى النار التى جعلته حرارة لهيبها يتحطم ويتناثر قطعاً صغيرة . هذه القطع الصغيرة حملت ورميت فيما بعد فى البحر . هذا ما أخبرنى به هرغر .

سالت عن معنى الحجر المنحوت فقال لى : « انها صورة أم أكلة الموتى وهى التى ترأسهم وتوجههم عند الاكل . » وهنا رايت أن بيولف الذى كان واقفا فى منتصف القاعة الكبرى كان ينظر الى ذراع أحد الشياطين التى كانت مازالت معلقة فى خشب السقف . ثم تحول ببصره الى جسدى رفيقه المقتولين ثم الى رثل الدابل ورايت كتفيه تهبطان بياس وذقنه تفرق فى صدره . ثم مشى مارا بجانبهما ورايته يرتدى درعه ويأخذ سيفه ويهين نفسه للمعركة من جديد .

الفصل الثالث والعشرون

صحراء الرعب

طلب بيولف سبعة من الخيول القوية ، وانطلقنا فى ضحى ذلك اليوم من قاعة روثغار الكبرى باتجاه السهول المنبسطة الفسيحة ومن هناك توجهنا الى التلال الجائمة خلفها . كان معنا أيضا أربعة من كلاب الصيد البيضاء الناصعة البياض وهى حيوانات عظيمة اميل لان تكون ذئابا من أن تكون كلابا ، وقد كانت ملامحها موحشة

مرعبة . وهذا ماشكل مجمل قواتنا المهاجمة ، وكنت انظر اليها على انها تعبير ضعيف امام خصم بهذه الرهبة ، ومع ذلك كان الشماليون يضعون املا كبيرا في عنصر المفاجأة وفي هجوم مباغت . وبحسابهم ايضا كانوا يعتبرون كل واحد منهم مساويا لثلاثة او اربعة مقاتلين دفعة واحدة .

لم اكن ميالا للانطلاق بمغامرة اخرى من مغامرات الحرب ، وكما كانت دهشتي عظيمة لان الشماليين لم يكونوا يعكسون مثل هذا الرأي ، لان راى هذا كان ينبع من ارهاق جسدى . وعن هذا قال لى هرغر : « ان الامر لكذلك دائما هنا والان وفي عالم الحياة الخالدة » وهو تعبير عن فكرتهم عن السماء والجنة . في هذه الجنة ، والتي هي بالنسبة اليهم قاعة كبيرة ، يتقاتل فيها المحاربون من الفجر حتى الفسق . وأولئك الذين يموتون يعودون فيحيون ليشاركوا جميعا في وليمة كبرى في السماء فيها مالا ينتهى من الطعام والشراب . وما ان يعود ضياء الصبح حتى يعودا للقتال ، والموتى يعودون فيحيون وتكون هناك وليمة وهكذا دواليك . هذه طبيعة الجنة في عالم الخلد عندهم (١) . وهكذا فانهم لايعتبرونه امرا غريبا ان يحتدموا في معارك متواصلة يوما بعد يوم وهم مازالوا على الارض .

تم تقرير وجهتنا بموجب ذيل متواصل من الدمار تركه الخيالة المتقهقرون من الليلة السابقة . كانت الكلاب تقودنا وهي تعدو على طول هذا الاثر من النقاط الحمراء . ولم نتوقف الا مرة واحدة فوق السهل المنبسط وذلك لاستعادة سلاح سقط من احد الشياطين الهارين . هاكم وصفا لهذا السلاح : كان عبارة عن بلطة لها مقبض من نوع من الخشب وشفرة مصنوعة من الحجر المصقول مربوطة الى المقبض بواسطة سير جلدية . اما حد هذا الفأس فكان حادا جدا ، وكانت الشفرة مصممة بمهارة خارقة كما لو كان هذا الحجر حجرا كريما يراد صقله ليرضى خيلاء سيدة غنية . كانت مهارة الصنع

(١) تشير بعض المراجع اللاهوتية الى ان الاسكندنافيين لم يكونوا يمدعي هذه الفكرة عن المعركة الابدية . ولكن هذه الفكرة هي مفهوم كلتي اد سلتس . وبها كانت الحقيقة فمن المقبول والمطلق جدا ان يكون رفاق ابن فضلان قد تبينوا هذا المفهوم ، لان الاسكندنافيين ، كانوا على صلة بالكلتيين لمدة تزيد عن مائة وخمسين عاما في ذلك الوقت .

بهذا الحد وكان السلاح مخيفا بسبب حدة شفرته . لم اكن قد رايت في حياتي شيئا من هذا القبيل على سطح الارض . وقد اخبرني هرغر ان الوندول يصنعون كل ادواتهم واسلحتهم من هذا الحجر ، او هذا ماكان يعتقدوه الشماليون .

ومع هذا اغزينا السير قدما وبسرعة كبيرة تقودنا الكلاب النابحة التي كان نباحها يسعدنى . وبعد وقت طويل وصلنا الى التلال . وتعمقنا داخل التلال دون ابطاء ودون طقوس بينما كان كل محارب من محاربى بيولف عازما على تحقيق قصده ، وكنا جميعا مجموعة من الرجال الصامتة المكفهرة الوجوه . كانوا يحملون علائم الخوف على وجوههم ومع ذلك لم يتوقفوا ولم يترددوا بل اغزوا السير قدما غير مباليين .

كان البرد شديدا فوق التلال وفي غابات الاشجار الخضراء الداكنة . وكانت ريح مثلجة تهب على ثيابنا وكنا نرى انفاس الخيول الصافرة ودفقات النفس البيضاء المنبعثة من الكلاب الجارية ولكننا رغم كل هذا اغزينا السير غير مباليين . وبعد بعض الوقت من السفر والرحيل الذى استمر حتى الظهر وصلنا الى منطقة جديدة . هنا راينا ثلة او رائية او هضبة داكنة او قل هي ارض قفر شديدة الشبه بالصحراء ، غير انها ليست رملية وليست جافة ولكنها رطبة مستنقعية ، وفوق هذه الارض كانت تطفو طبقات رقيقة من الضباب . ويسمى الشماليون هذه المنطقة صحراء الرعب (1)

ولقد رايت بأم عيني ان هذا الضباب كان يحل على الارض على شكل جيوب او تجمعات صغيرة وكأنه سحببات دقيقة قد وقعت على الارض . كنت تحد الهواء نقيا في منطقة ما ثم في منطقة اخرى

(1) هي حرفيا « صحراء خوف » في مقال ظهر عام ١٩٢٧ ، كتب جى دجى توم لنسون مبينا ان نفس تلك الجملة تظهر في كتاب Volsunga Saga ولذلك فهو يناقش مطولا ان هذا التعبير انما يمثل تعبيرا اصيلا يقصد به الاراضى المحرقة . وواضح ان توم لنسون لم يكن مدركا ان Volsunga Saga لم تكن شيئا من هذا القبيل ، كما ان ترجمة وليم مورس التى ظهرت في القرن التاسع عشر تحتوى على السطر او البيت الذى يقول : هناك صحراء رعب في اقصى اقاصى الدنيا . لكن هذا البيت كان من اختراع موريس نفسه ، وهو يظهر في واحد من العديد من المخطاط حيث يضيف ويزيد على هذه السيرة الجرمانية الاصلية .

كنت تجد فقاعات ضبابية صغيرة معلقة قريبا من الارض على ارتفاع رتبة حصان . وفي مثل هذه الامكنة كنا نضيع اثر الكلاب التي كان يلغها الضباب . وبعد لحظة من الزمن كان الضباب يتبدد لنجد انفسنا مرة اخرى في فضاء رحب مكشوف . هكذا كانت معالم هذه الهضبة .

لقد أعجبني هذا المنظر كثيرا ولكنه لم يكن يعنى شيئا بالنسبة للشماليين . قالوا بان في الارض في هذه المناطق مستنقعات كثيرة مالحة كريهة كما كان فيها ينابيع حارة دائمة الغليان كثيرة الفقاعات تخرج من شقوق في الارض . في هذه الاماكن كان يتجمع ضباب قليل ويبقى هناك طيلة الليل والنهار . وهم يسمون : هذا المكان بارض البحيرات البخارية .

والارض هنا صعبة على الخيول لذا أصبح تقدمنا بطيئا . كما ان تقدم الكلاب أصبح اكثر بطئا . ولاحظت ان نباها أصبح اقل قوة . وسرعان ماغيرت جماعتنا سيرها من عدو على ظهور الجياد وكلاب قافزة امامها الى مشية بطيئة مع كلاب صامتة تود لو لم تكن في المقدمة . وبدلا من ذلك بدأت الكلاب تتراجع حتى صارت تحت حوافر الخيول مسببة لها صعوبة اضافية في السير . كان الهواء لايزال باردا جدا بل في الواقع اكثر برودة مما كان ، وكنت ترى هنا وهناك بقعا صغيرة من الثلج على الارض ، مع ان هذا الفصل كان حسب أدق تقديراتي جزءا من فصل الصيف .

وببطء شديد تقدمنا مسافة لا بأس بها وكنت اتساءل عن احتمال ان نضيع دون ان نجد طريق العودة عبر هذه الهضبة . وفجأة وفي مكان ما توقفت الكلاب . لم يكن هناك أى فرق في طبيعة الارض او أى شيء على الارض ، ومع ذلك توقفت الكلاب كما لو كانت قد وصلت الى سياج او حاجز لا يمكن تجاوزه . توقفت جماعتنا في هذا المكان وراحت تنظر في هذا الاتجاه أو ذاك . لم تكن هناك أى ريح أو أية أصوات ولا حتى صوت طير أو حيوان حتى بل كان هناك الصمت والصمت العميق .

قال بيولف « هنا تبدأ أرض الوندول » ، بينما راح المحاربون يربتون على أعناق خيولهم ليخففوا من قلقها لان الخيول نفسها

كانت مضطربة ناثرة الاعصاب فى هذه المنطقة . كذلك كان الخيالون ايضا . ابقى بيولف شفثيه مطبقتين بينما بدا اكنفو ترتجفان وهو يقبض على اعنة جواده . أما هرغر فقد كان شاحبا كالاموات وعيناه تقفران بين هذا الاتجاه او ذاك . وكان الاخرون يفعلون الشيء ذاته كل بطريقته .

يقول الشماليون « للخوف قم ابيض » وكنت الان استطيع ان ارى ذلك بوضوح تام ، فقد كانوا جميعا شاحبين حول الشفاه والفم . لكن لم يتحدث أى من الرجال عن خوفه أبدا .

والان تركنا الكلاب خلفنا وتقدمنا بأرض كانت سماكة الجليد تردداد فيها شيئا فشيئا ولو انها كانت فى البدء رقيقة تتكسر تحت الاقدام كما كانت كثافة الضباب تتزايد . لم ينطق أى منا بحرف الا حين كان يخاطب حصانه . وعند كل خطوة كنا نخطوها كانت هذه الحيوانات أكثر عنادا فى التقدم ، وكان المقاتلون يجدون انفسهم مضطرين لحضها على التقدم بكلمات ناعمة ورفسات حادة . بعد حين بدانا نرى اشكالا كالظلال فى الضباب أمامنا رحنا نتقدم منها بحذر . رايت مايلي بام عيني : على جانبى الممر وفوق اعمدة قوية علقت جماجم حيوانات هائلة وافكاكها مفتوحة بوضع هجومى . استمرينا فى السير وهنا رايت ان هذه الجماجم كانت لدبية هائلة الحجم بعدها الوندول . وقد اخبرنى هرغر بان جماجم الدبية تحمى حدود ارض الوندول .

ثم راينا عائقا آخر اغبر بعيدا كبيرا . هنا كانت صخرة هائلة الحجم هالية علو سرج حصان ومنحوتة على شكل امراة حبلى ومعدتها مندلقة الى الامام وكذلك ثدياها ، دون أن يكون لها رأس او ذراعان او ساقان . كانت الصخرة مغطاة بدماء القرايين ، والحقيقة انها كانت تقطر بسيول من الدم الاحمر وكانت رهيبة المنظر شنيعة .

الفصل الرابع والعشرون

لم يتحدث أى من الرجال عما رآى . واستمرينا فى التقديم راكبين ، بينما استل المحاربون سيوفهم واشرموها متجهين للقتال . وبهذه

المناسبة هاكم أحد مزايبا الشماليين : وهى أنهم فى حين أنهم كانوا يظهرن بعض الخوف فى السابق ولكنهم ما أن دخلوا الى أرض الوندول قريبا من منبع الخوف حتى اختفت كل مظاهر الخوف عندهم . وهكذا كانوا يبدون وكأنهم يفعلون كل شئ بشكل معكوس وبأسلوب محير لانهم فى الواقع كانوا يبدون الان مطمئنين . ولكن الخيول وحدها بدت أكثر عنادا فى التقدم الى الامام .

بدات أشم الان رائحة الجثث المتعفنة التى كنت قد شممتها من قبل فى قاعة روثغار الكبرى ، والتى ما أن صدمت انفى من جديد حتى كذا يعنى على وهبط قلبى . اقترب هرغر منى وقال بصوت خفيض « كيف حالك ؟ » . ولانى لم اكن قادرا على اخفاء عواطفى قلت له « اننى خائف . »

اجاب هرغر « ماذلك الا لانك تفكر فيما سياتى وتتخيل اشياء مرعبة قد توقف الدم فى عروق اى انسان . فلا تفكر فى المستقبل وكن أكثر جبورا بأن تعرف انه ما من انسان يعيش ابد الدهر . »

ولقد رايت مدى صدق كلماته فقلت مجيبا « فى مجتمعى نردد قولا ماثورا يقول : اشكروا الله لانه فى حكمته وضع الموت فى نهاية الحياة وليس فى بدايتها . » ابتسم هرغر لهذا وضحك ضحكة قصيرة ثم قال « فى حال الخوف حتى العربى يقول الحقيقة » ثم عدا بجواده قدما وهو يبتعد عنى لينقل كلماتى الى بيولف الذى ضحك بدوره . وكم سر محاربى بيولف أن يستمعوا الى نكتة فى هذه الظروف . بعدها وصلنا الى تلة ما أن وصلنا الى طرفها حتى توقفنا ورحنا ننظر الى معسكر الوندول تحتها . هاكم وصفا لامتداده امامنا كما رايتة بعينى : كان هناك واد وكان فى الوادى دائرة من الاكواخ الحقميرة المصنوعة من القش والطين ، هزيلة البناء يستطيع طفل صغير أن يبنى أفضل منها . وفى مركز الدائرة كانت نار كبيرة تشتعل وقد بدات تخدم . ومع ذلك لم تكن هناك أية خيول أو حيوانات أو أية حركة ، كما لم تكن اية بادرة حياة من أى نوع ولقد راينا كل ذلك من خلال رقائق الضباب المتقلبة .

ترجل بيولف عن حصانه وفعل المقاتلون نفس الشئ وأنا بينهم . وفى الحقيقة كان قلبى يدق واخذت انفاسى تتسارع بينما كنت أنظر الى المعسكر المتوحش لهؤلاء الشياطين . سألت هامسا « ولماذا ليس هناك اى نشاط ؟ » اجاب هرغر قائلا « ان الوندول هم من مخلوقات

الليل كالיום والخفاش ، وهم ينامون طيلة ساعات النهار . ولهذا فهم نائمون الآن ، وسوف تنقض عليهم ونذبحهم وهم يخلمون . « قلت وأنا انظر الى الاكواخ الكثيرة . التي كنت أراها في الاسفل « ولكننا قليلون » فاجاب هرغر وهو يقدم لى كأسا من شراب الميد « عددنا كاف » فآخذت الشراب منه بامتنان حامدا لله على انه غير محرم ولا حتى مكروه (١) . وفي الحقيقة بدأت احس بتدق لسانى وترجيبي بهذه المادة التي كنت اظنها في الماضي قدارة كريمة : وهكذا تتوقف الاشياء الغريبة من أن تكون كذلك بفعل التكرار . وبنفس الطريقة لم أعد أهتم برائحة الوندول النتنة المخيفة لائنى كنت قد تعودت على استنشاقها لمدة طويلة ولم أعد احس بمبقها .

وأهل الشمال غريبو الاطوار جدا فيما يتعلق بالشم . فهم كما قلت غير نظيفين ، وهم يأكلون كل أنواع الطعام والشراب السيئ ، ولكنها حقيقة أيضا أنهم يقدرون أنوفهم تقديرا ما بعده تقدير وفوق كل أجزاء الجسد الاخرى . فققدان اذن في المعركة لا يعتبر أمرا عظيما ، كما أن فقدان أصبع يد أو أصبع قدم أو حتى فقدان اليد هو قضية أكثر خطورة ولكنها أيضا ليست ذات بال ، ولكنهم يعدون فقدان الانف مساويا للموت نفسه وحتى لو كان ذلك الفقدان خسارة أرببة الانف وحدها والتي قد تنتظر اليها الشعوب الاخرى على أنها إصابة طفيفة جدا .

وكسر عظم من عظام الانف بسبب معركة أو لطمة ليس أمرا ذا بال ، فالكثيرون منهم لهم أنوف محطمة لهذا السبب . ولكنى لا أدري سببا لهذا الخوف الكبير عندهم من قطع الأنوف (٢) .

(١) ان تحريم الاسلام للكحول هو حرقيا تحريم لفاكهة العنب المخمر ، أى الخمرة . بينما مشروبات العسل المخمر فهي مباحة للمسلمين .

(٢) ان التفسير النفسى المتداد لمثل هذه المخاوف من فقد بعض أعضاء الجسم من أنها تمثل القلق من التشوه (قلق النفس) . في دراسة أجريت عام ١٩٣٧ عن تشوهات صورة الجسد في المجتمعات البدائية يلاحظ النكهوات أن الكثير من الثقافات لها رأى واضح ومباشر في هذه المعتقدات . فقبائل الناناماني في البرازيل مثلا ، تعاقب الخاطئين جنسيا بقطع أذنه اليسرى ، وهو عقاب يعتقد بأنه يضيف القوة الجنسية . بينما مجتمعات أخرى تعطي أهمية كبيرة لفقدان الأصابع وأصابع الارجل أو كما هي الحال عند الشماليين ، لفقدان الانف . وهى خرافة شائعة في كثير من المجتمعات تلك القائلة بأن حجم انف الرجل يمتس حجم قضيبيته .

ويقول أرسون ان الأهمية المعلقة للانف في المجتمعات البدائية تمكس قيمة وظيفية منذ الايام التي كان فيها الناس صيادين ويعتمدون الى حد كبير على حاسة الشم لايجاد الفرائس ولتعايش الأعداء . فلى صيابة مثل هذه كان فقدان حاسة الشم اذى خطيرا حقا .

ترك محاربو بيولف وقد أصابهم الرعب ، وأنا طيعا بينهم ، تركوا خيولهم فوق التلال ، وبما أن هذه الحيوانات لا يمكن أن تترك وحدها لأنها كانت خائفة جزعة . فكان لابد أن يبقى أحد أفراد مجموعتنا معها ، وكنت آمل أن أكون أنا المختار لذلك المهمة ، إلا أنها كانت من نصيب هلتف ، إذ كان قد أصيب بجرح وكان ذا فائدة محدودة جدا . وهكذا رحنا نحن الآخرون نهبط التلة بتعب ظاهر مابين الشجيرات الضعيفة والاجمات الميتة عبر المنحدر باتجاه معسكر الوندول . كنا نتحرك خلسة ولم نسمع أى انذار بل سرعان ما كنا فى قلب قرية الشياطين .

لم ينطق بيولف بحرف بل كان يعطى كل أوامره وتوجيهاته بيديه ومنه أدركت أن علينا أن نتحرك ضمن مجموعات كل منها من مقاتلين وكل مجموعة تتحرك باتجاه مختلف . كان على أنا وهرغر أن نهاجم أقرب الاكواخ الطينية وكان على الآخرين أن يهاجموا الاكواخ الأخرى . وقد انتظر الجميع حتى استقرت المجموعات خارج الاكواخ ثم وبصيحة كانت اشارة رفع بيولف سيفه العظيم وندبغ وقاد الهجوم . اندفعت مع هرغر داخل احيد الاكواخ والدم يغلى فى راسي وسيفى خفيف كبريشة فى يدي . وكنت والله مستعدا لأعظم معركة فى حياتي . لكنى لم أر شيئا فى الداخل إذ كان الكوخ مهجورا عاريا أيضا باستثناء بعض الفراش القشى الحقر الذى كان قمىء المنظر الى حد كان يشبه معه أعشاش بعض الطيور .

فاندفعنا خارجين وهاجمنا الكوخ الطينى التالى . ومرة أخرى وجدناه خاليا . فى الحقيقة كانت جميع الاكواخ خالية وقد أصاب رجال بيولف غضب كان من الشدة بحيث راح الواحد منهم يحدق بالآخر وعلى وجوههم تعابير الدهشة والتعجب .

وبعد ذلك دعانا اكثفوا فتجمعنا عند واحد من هذه الاكواخ كان اكبر من الاكواخ الباقية . وقد وجدته أيضا مهجورا ككل الاكواخ الباقية ، ولكن داخله لم يكن عاريا أجرب ، فافرض الكوخ كانت مغطاة بعظام هشة راحت تنكسر تحت أقدامنا كعظام الطيور رقيقة هشة متكسرة . أصابتنى من ذلك دهشة عظيمة فانحنيت لأتعرف على طبيعة هذه العظام . ويا للصدمة التى أصبت بها عندما رأيت الخطوط المنحنية لحجر عین هنا وبعض اسنان هناك .

فى الحقيقة كنا نقف على سجادة عظام الوجوه البشرية ، وكبرهان اضافى على هذه الحقيقة الرهيبة كانت قد الصمت فوق احد الجدران اجزاء من جماجم البشر وقد وضعت مقلوبة كما توضع كثير من قدور الفخار ولكنها كانت بيضاء متألقة البياض . شعرت بالغثيان وغادرت الكوخ لافرج معدتى . هنا اخبرنى هرغر ان الوندول ياكلون ضحاياهم كما ياكل الكائن البشرى البيض او الجبن . هذه هى عادتهم ورغم شناعة هذا الامر عندما نتامله فانه مع ذلك حقيقة اكيدة .

فى هذه اللحظة نادانا محارب آخر لندخل كوخا آخر . وهنا رايت مايلى : كان الكوخ اجرد عاريا ما عدا كرسى كبير يشبه العرش محفور من قطعة هائلة الحجم من الخشب . وكان لهذا الكرسى ظهر عال يشبه المروحة ومحفور على شكل اقاعى وشياطين . وعند اسفل الكرسى كانت بقايا عظام الجماجم وعلى ذراعى الكرسى حيث يريح صاحب الكرسى يديه كان هناك دم وبقايا مادة جينية بيضاء كانت عادة مخ بشرى . اما رائحة هذه الغرفة فكانت لانطاق ابدا .

وحول هذا الكرسى وفى كل اتجاه كانت هناك نحوت حجرية صغيرة تمثل امرأة حبلى كالتى وصفتها آنفا . وكانت هذه النحوت تشكل محيط دائرة حول الكرسى

قال هرغر « هذا هو عرشها حيث تحكم » وكان صوته خفيضا مرتعبا .

ولم اكن قادرا على ادراك مغزى ما قال وكنت اشعر بالغثيان فى قلبى وفى معدتى . وسرعان ما وجدت نفسى افرغ معدتى على التراب . وحتى هرغر ويولف والاخرون جميعا اصيبوا بامتاعض شديد . ولكن لم يفرغ اى منهم معدته ، ولكن بدلا من ذلك تناولوا جمرات متاججة من النار واضرموا النار بالاكوخ التى راحت تحترق ببطء لانها كانت رطبة .

وهكذا صعدنا التلة . وامتطينا جسادنا تاركين ارض الوندول وغادرنا صحراء الرعب . كان الحزن والاسى يرسم الان على وجوه بيولف ومحاربيه جميعا لان الوندول قد تجاوزهم فى الدهاء

والذكاء بتركهم اوكارهم توقعنا لهذا الهجوم . اما حرق اكواخهم فان
الوندول لن يعدوه خسارة كبيرة .

الفصل الخامس والعشرون

مؤتمر الاقزام

عدنا كما رأيتنا ، الا ان جياندا كانت تعدو بسرعة اكبر لانها الان
كانت اكثر حماسا . واخيرا هبطنا من التلة ورأينا السهل المنبسط
يمتد امامنا وعن بعد وراءه رأينا طرف المحيط والمستوطنة وقاعة
روث غار الكبرى .

وفجأة استدار بيولف مبتعدا عن وجهتنا وقادنا باتجاه آخر نحو
جرف صخري عال ، تتلاطمه رياح المحيط . عدوت بحصاني حتى
وصلت الى هرغر وسألته عن سبب ذلك فأجاب بأن علينا ان نبحث
عن اقزام تلك المنطقة .

اصبت بدهشة عظيمة لسماعي هذا الكلام لان اهل الشمال ليس
بينهم او في مجتمعهم اقزام على الإطلاق ، وهم لا يرون ابدا في
الشوارع وما رأيت احدا منهم يجلس عند اقدام الملوك ، ولن تجد
ابا منهم يعد النقود او يدون الحسابات او يقوم باى من تلك
الحسابات التى اعتدنا ان نرى الاقزام يفعلونها (١) . ولم يذكر
امامى اى من اهل الشمال هؤلاء الاقزام قبلا وكنت افترض دائما
ان شعبا من المردة كشعب الشمال لا يمكن ان ينتج اقزاما (٢) .

وصلنا الان الى منطقة ملاي بالكهوف تعصف فيها الرياح
والاصداء . ترجل بيولف عن حصانه وفعل كل محاربته نفس الشيء
وراحوا يتقدمون على الاقدام . سمعت صوت صغير ثم رايت فقاعات

(١) فى منطقة البحر الابيض المتوسط ومنذ الصور الفرعونية كان ينظر الى الاقزام
على انهم خارقو الذكاء واهل للثقة ، كما ان مهمات مسك دفاتر الحسابات والتعامل
المالى كانت تتركز اليهم دائما .

(٢) من بين التسمين ميكللا عظيما تقريبا الذى يمكن ان تنسب وبثقة الى فترة الفايكنج
باسكتدنا قبا نان الطول الوسطى للرجل هنالكو حوالى ١٧٠ سم .

من البخار تتصاعد من هذه الكهوف العديدة . دخلنا أحد هذه الكهوف وهناك التقينا بالاقرام .

كان مظهرهم كالتالى : الواحد منهم فى حجم القزم العادى ولكنه يتميز برأس هائل الحجم ، وبعلامح يبدو عليها الهرم المفرط . كان هناك اقرام ذكور واثاث وكانوا جميعا يبدو عليهم السن المتقدمة . كان الذكور منهم ملتحين وقورين ، والنساء ايضا كان لهن بعض الشعر على وجوههن ولذا كن يحملن مظهر الرجال وكان كل قزم يرتدى معطفا من الفراء او جلد السمور ، كما كان يرتدى حزاما رقيقا من الجلد مزينا بقطع من الذهب المطروق .

عند وصولنا حيانا الاقرام بادب ودون اى خوف . قال لى هرغر بان هذه المخلوقات ذات قوة سحرية وهى لذلك لا تخاف اى انسان على سطح الارض . ولكنهم مع ذلك يخشون الخيول ، ولهذا السبب تركنا خيولنا خلفنا . واضاف هرغر ان قوى القزم الخارقة انما تكمن فى هذا الحزام الرقيق ، وان القزم على استعداد لان يفصل اى شيء لاستعادة حزامه اذا ما فقده .

كما اضاف هرغر قائلا ان مظاهر السن المتقدم على وجوه الاقرام هى امر صحيح ، لان القزم كان يعيش عمرا اطول من عمر اى انسان عادى . وقال لى ايضا ان هؤلاء الاقرام بالغون جنسيا منذ اول سنوات شبابهم ، وانهم يولدون وقد نبت لهم شعر العانة او ملتقى الفخذين كما ان الواحد منهم يملك عضوا ذكرا بحجم غير عادى . وفى الحقيقة فان الوالدين انما يميزان لاول وهلة فيما اذا كان طفلهما قزما بهذه الميزة كما يميزان بهذه الطريقة ان طفلهما مخلوق سحرى يجب ان يحمل الى التلال ليعيش مع الاخرين من جنسه ، فاذا ما تم هذا يتقدم الابوان شكرهما الى الالهة ويذبحان القرابين ، لان ولادة قزم تعتبر بنظرهم حظا عظيما عاليا للوالدين .

هذا هو ما يمتقده اهل الشمال كما حدثنى عنه هرغر ، ولكننى لست على علم بحقيقة الامر ، وانما اقص ما قيل لى .

قلت اذن اننى رايت ان الصغير والبخار كانا يتصاعدان من حلل عظيمة (قدور) هائلة الحجم كانت تغطس فيها شفرات من الفولاذ المصقول لتنقية معدنها ، فهؤلاء الاقرام يصنعون اسلحة عالية الجودة

ومفضلة هند أهل الشمال . ولقد رأيت محاربى بيولف يعجلون
أبصارهم فى أركان الكهوف بشوق واهتمام كما لو كانوا نساء فى
سوق تباع أغلى أنواع الحرير .

سال بيولف هذه المخلوقات أسئلة كثيرة ، طلب اليه بعدها ان
يتجه الى أعلى قمة الكهوف حيث كان يجلس قزم وحيد أكبر سنا
من الآخرين له لحية وشعر شديد البياض صافيا ، وله وجه
مجعد مقضن . هذا القزم كان يدعى « تن غول » ، أى قاضى الخير
والشر كما تعنى أيضا العراف .

لا بد انه قد كان هذا العراف تلك القوى السحرية التى قال
الجميع انه يملكها ، لانه حيا بيولف باسمه قورا ، ورجاه ان يجلس
معه . جلس بيولف بينما تجمعنا واقفين على مسافة غير بعيدة
منهما .

لم يقدم بيولف الى الـ « تن غول » اية هدايا ، كما ان رجال
الشمال لم يقدموا أى مظهر من مظاهر الاحترام والانحناء لهؤلاء
البشر الصغار : فهم يعتقدون ان اعطيات الاقزام يجب ان تقدم
مجانا ، ومن الخطأ ان تستحث عطاءات الاقزام بالهدايا . وهكذا
جلس بيولف وراح « التن غول » ينظر اليه بامعان ثم أطبق عينيه
وبدا يتكلم وهو يهز جذعه الى الخلف والامام وهو جالس . كان
التن غول يتحدث بصوت عال حاد التبرات كصوت طفل وقد نسر
لى هرغر معانيه كما يلى :

« يا بيولف انت محارب عظيم ولكنك التقيت بمعركة حياتك
وبندك فى وحوش الضباب ، أكلة الموتى . سيكون هذا صراعا حتى
الموت ، وستكون بحاجة الى كل قوتك وحكمتك لتتغلب على هذا
التحدى » . واستمر يتحدث بهذا الشكل لبعض الوقت وهو يهتز الى
الامام والى الخلف . وكان فحوى حديثه ان بيولف كان يواجه قدرا
صعبا كنت أدركه كما كان يدركه بيولف نفسه بما فيه الكفاية . ومع
ذلك حافظ بيولف على صبره وهدوئه .

كما لاحظت أيضا ان بيولف لم يظهر أى انزعاج حين راح القزم
يسخر منه ، وهى السخرية التى كررها القزم عدة مرات . قال
القزم : « لقد أتيت الى لانك هاجمت الوحوش فى المستقبل الاسن

المالِح ، دون أن يجديك ذلك شيئا . ولهذا جئت الى تطلب النصيحة والتحذير ، كما يطلب الطفل ذلك من والده تسألنى ماذا على أن افعل لأن كل خطي قد أوقعت بى وفشلت . ثم ضحك العراف طويلا لهذا الحديث . عاد وجهه بعدها الى الجسد والوقار مرة اخرى .

« اى بيولف » استأنف العـراف حديثه قائلا : « اننى أرى المستقبل ولكننى لا أستطيع أن أخبرك الا بما تعرفه تماما . فانت وكل محاربك الشجعان قد استنفرتكم كل مهارتكم وشجاعتكم لتشنوا هجومكم على الوحوش فى صحراء الرعب . بهذا خدعتم انفسكم لان هذا لم يكن أبدا بطل حقيقى .

سمعت هذه الكلمات بكثير من الدهشة لان ما جرى بدا لى بطوليا حقا وبما فيه الكفاية .

ثم أضاف « التـن غول » قائلا « كلا كلا يا بيولف النبيل ! فقد انطلقت لتنجز مهمة كاذبة ، وكنت تدرك فى أعماق قلبك البطل انها لم تكن أهلا لذلك . وكذلك ايضا كانت معركتك مع « تنين الكورغن » المضىء لا تستحق النزال ، تلك المعركة التى كلفتك حياة محاربين كثيرين شجعان . فما القصد وما الهدف من كل خطئك هذه ؟ » ولكن بيولف لم يحر جوابا ، بل جلس الى جانب القزم وانتظر .

استأنف القزم حديثه قائلا : « ان تحدى بطل عظيم انما هو فى القلب وليس فى الخصم . ماذا يهم اذا انقضضت على الوندول فى أوكارهم وقتلت العديد منهم وهم نائمون ؟ قد تستطيع قتل الكثيرين الا ان هذا لن ينهى الصراع اكثر مما يمكن لبر الأصابع أن يقتل انسانا . فلكى تقتل انسانا عليك أن تغرز سيفك أو رمحك فى الرأس أو فى القلب ، وكذلك الامر مع الوندول . أنت تعرف كل هذا جيدا ولست بحاجة لاستشارتى أو لنصيحتى لتدركه . وبهذه الطريقة راح القزم وهو يهتز الى الامام والى الخلف يطهر نفس بيولف . ولقد تقبل بيولف توبيخاته وملامته برحابة صدر ، لانه لم يجب ولكنه اطرق برأسه فقط .

ثم استأنف «التن غول» خطابه قائلا « لقد قتت بعمل رجل ، مجرد رجل ، وليس عمل بطل حقيقى . فالبطل ينجز من الاعمال

ما لا يجرؤ رجل على القيام به . فلكي تقتل الوندول عليك ان تضرب في الرأس وفي القلب . عليك ان تقهر امهم في كهوف الرعد » . لم افهم معنى هذه الكلمات ابدا ، في حين استمر القزم يقول « انت تعرف هذا وتعرف ان هذا كان الصحيح دائما ، خلال كل عصور الانسان . هل سيموت محاربوك الشجمان واحدا تلو الاخر ؟ ام انك ستضرب امهم في الكهوف ؟ انا لا اقدم لك بهذا نبوءة انما اقدم لك الخيار ما بين البطل والانسان » .

هنا تتم بيولف باجابة ما ولكنه تحدث بصوت منخفض ضاعت كلماته على مع صفير الريح التي كانت تعصف بمدخل الكهف . الا انه مهما كان فحوى هذه الكلمات فقد استأنف القزم حديثه قائلا : « ذلك هو جواب البطل يا بيولف ولم اكن اتوقع اى جواب آخر منك ، ولهذا فسادع مسماك » . ثم دعا القزم بعض بنى جنسه ليقربوا منه خارجين من زوايا ظلمة الكهف الى النور . وعندما كشفهم الضوء كانوا يحملون بأيديهم اشياء كثيرة .

قال التن غول « هاك هذه الحبال المصنوعة من جلود الفقرة التي اصطدناها في اول ذوبان الجليد . ستساعدك هذه الحبال على ان تصل مدخل كهوف الرعد من ناحية البحر » . قال بيولف « انا اشكرك على هذا » . بعدها اضاف « التن غول » يقول « وهاك ايضا سبعة خناجر طرقت بالبخار والسحر اقدمهمسا لك ولمحاريك . السيوف العظيمة لن تكون ذات فائدة او جدوى في كهوف الرعد . فاحملوا هذه الاسلحة بشجاعة . وستنجزون مهمتكم وامنيتمكم » . اخذ بيولف الخناجر وشكر القزم عليها ، ثم وقف وهو يقول : « ومنى تقوم بهذه المهمة ؟ » .

اجاب « التن غول » قائلا « امس افضل من اليوم ، وغدا افضل من اليوم الذي يليه . لذا اسرع وتقد نياتك بقلب ثابت وساعد قوى » .

ويعود بيولف للسؤال قائلا : « وما الذي سيحدث ان نحن نجحنا ؟ » . ويجب القزم على الفور « عندها سيخرج الوندول جرحهم الميت ، وسيقلب الوندول وامهم الراى في اكثر من امر وهى في نوع الموت الاخير وللمرة الاخيرة . وبعد هذا المصاب الاخير

سيحل السلام في هذه الأرض وسيعود نور الشمس خالدا فيها أبدا . أما اسمك فسيحل في أغاني المجد والخلود في تصور بلاد الشمال إلى أبد الأبد . »

هنا يتم بيولف قائلا « هكذا تغني أغاني الرجال الأموات » . ويحبب القزم وهو يضحك ثانية ويقهقه تشبه ضحك الأطفال أو البنات الصغار « ذلك صحيح . وتغني كذلك أفعال الأبطال الذين يعيشون بهذا الشكل أيضا ، لكن أفعال الرجال العاديين لا تغني أبدا ولا تصير أناشيد أبدا . أنت تعرف ذلك جيدا » .

ويغادر بيولف الكهف بعد أن يقدم لكل منا خنجرا من خناجر الاقزام . ونهبط خارجين من تلك الشقوق الصخرية التي تمصف بها الريح ونمود إلى المملكة وإلى قاعة روث غار الكبرى بينما الليل يهبط بطيئا .

كل هذه الأمور حدثت ورأيتها بأم عيني .

الفصل السادس والعشرون

أحداث الليلة السابقة للهجوم

لم يات الضباب تلك الليلة فقد هبط من على التلال ولكنه توقف بين الأشجار ولم يوحف باتجاه السهل . في قاعة روث غار الكبرى أقيمت وليمة عظيمة شارك فيها بيولف ورجاله باحتفال عظيم . وقد ذبح كبشان عظيمين وألتهما بالكامل (١) . وقد شرب الجميع كميات هائلة من شراب الميد ، وضاجع بيولف لوحده أكثر من نصف دزينة من الفتيات الجوارى وربما أكثر من ذلك . ولكن رغم كل هذا المرح لم يكن لا هو ولا رجاله مسرورين حقا . فمن وقت لآخر كنت أراهم ينظرون إلى جبال جلد الفقمة وخناجر الاقزام التي كانت قد كومت في إحدى زوايا القاعة .

وانضمت أنا إلى صخب المحتفلين ، فقد صرت أشعر أنني واحد منهم ، أو هذا ما بدا لي على الأقل بعد أن قضيت كل هذا الوقت

(١) يقول دالمان (عام ١٩٢٤) « انه في مناسبات الاحتفالات كان يؤكل لحم الكبش لزيادة الحيوية الجنسية لان الحيوان الذكر ذا القرون كان يعتبر متفوقا على الانثى » ولكن في الواقع فان كلا الكبش والنسجة كان لهما قرون هذه الفترة .

فى صحبتهم . والحقيقة اننى فى تلك الليلة شعرت اننى قد وُلدت شماليا .

اما هرغر وقد اخذت منه نشوة الخمر كل ماخذ فقط حدثنى بصراحة عن أم الوندول فقال : « أم الوندول هذه عجوز مفرقة فى الهرم وتعيش فى كهوف الرعد . وتقع كهوف الرعد هذه فى صخرة من صخور الجرف غير بعيدة من هنا . ولهذه الكهوف فتحتان واحدة عن طريق البر والثانية من البحر ، ولكن المدخل البرى عليه حراسة مشددة يقوم بها الوندول الذين يحمون أهمهم العجوز ، ولهذا فنحن لانستطيع أن نهاجمهم من ناحية البر لاننا بهذه الطريقة سنقتل جميعا . لهذا سنهاجم من البحر . »

سألته : « وماهى طبيعة أم الوندول هذه ؟ » فأجاب هرغر قائلا انه ما من شمالى يعرف ذلك معرفة صحيحة ، ولكن يحكى أنها عجوز هرمة ، أكبر سنا من الحيزبون الشمطاء التى يدعونها ملاك الموت ، وأنها ايضا كانت مخيفة المنظر ، وأنها كانت ترتدى الانامى فوق رأسها وكأنها اكانيل الغار ، وأنها ايضا قوية فوق كل تصور . وأضاف أخيرا أن الوندول كانوا يلجأون اليها لترشدهم فى كل مناحى حياتهم (١) . ثم أشاح هرغر بوجهه عنى وغاب فى سبات عميق .

(١) قال جوزيف كاترل ان « هناك نزعته فى الاسطورة الجرمانية والتورسية المنظر الى النساء على أن لهن قوى خاصة ومزايا سحرية ولهذا تجب خشيتهم وعدم الثقة بهن . كل الالهة الرئيسية من الرجال ، ولكن الفالكاريز **Valkyries** والذى يعنى حرفيا « مختارى القتل » ، هن نساء يتقلن المحاربين الاموات الى الجنة . وكان يعتقد أن هناك ثلاثة اقدار تخلق مع ولادة كل انسان وتقرر مصير حياته . هذه الاقدار تدعى أوث أى الماضي ، ليرتهانى أى الحاضر وسكلد أى المستقبل . هذه الاقدار « تحيك قدر الانسان » ، والحيابة هى عمل النساء . وفى التصويرات الشعبية كانت هذه الاقدار والالهة تصور على أنها صبايا شابات . أما وورد **wyrd** وهو الاله الانجلى سكسونى الذى كان يتحكم بالقدر فقد كان أيضا الها ويفعوى أن الربط ما بين النساء وقدر الرجل كان استمرارية لمهامهم سابقة عن النساء باعتبارهن رموز الحب فلهذا الحب كن يتحكمن بنمو وازهار المحاصيل وكل الاشياء الحية على الارض .

وبلاحظ كاترل أيضا ان « فى الواقع العمل ندر أن العرافة والقاء التعاويذ ومطوسا عرافية أخرى إنما كانت توكل للنساء المسنات فى المجتمع التورسى او الشمال . وأضاف الى ذلك فان الافكار الشعبية او العامة عن النساء كانت تتضمن عنصرا قويا من الشك . فلفظا **Havamal** لا يجوز لاحد أن يثق بكلمات فتاة أو امرأة متزوجة ، لان قلوبهن قد صنعت على شكل دوائر . إضافة الى انهن غير ثابتات على أمر بطبيعتهم » .

يقول بتديكسن « كان يوجد بين أوائل الاسكندنافيين نوع من تقسيم القوة حسب الجنس : فالرجال كانوا يتحكمون بالقضايا الطبيعية والمادية فى حين أن النساء يتحكمن بالقضايا النفسية » .

والآن حدثت هذه الحادثة ، في أعماق الهزيع الأخير من الليل ، وبينما كانت الاحتفالات تقترب من نهايتها والمحاربون على وشك النوم طلب بيولف الى أن اذهب اليه . تجلس بجانبه وراح يشرب الميد من قرن تحول الى كأس . لم يكن مخمورا ، كما رايت ، وكان يتحدث ببطء بلغته الشمالية بحيث أفهم مقصده . قال لي أولا : « هل أدركت معنى كلمات القزم الشبه غول ؟ » فاجبت باننى فهمت ما قال بمساعدة هرغر الذى كان يشخر الآن قربنا . قال لي بيولف : « اذن فانت تعلم اننى ساموت . » قال هذا بعينين مضيتين وب نظرة ثابتة . لم ادر بم احيب او اى استجابة ابدتها الا اننى فى آخر الامر قلت له على الطريقة الشمالية « لا تصدقن اى نبوءة حتى تثمر (١) » .

قال لي بيولف ايضا : « لقد رايت وتعرفت على كثير من عاداتنا . قل لي الحقيقة . هل ترسم الاصوات ؟ » فاجبته بأن نعم . « اذن تكن حريصا على سلامتك ، ولا تبالي فى جرائك وشجاعتك . انت الان تلبس وتحدث كشمالي وليس كاجنبى . فاعمل جهدك لان تبقى حيا . »

وضعت يدي على كتفه كما رايت رفاقه المحاربين يفعلون عندما يحيون فابتسم عندها وقال « انى لا أخاف شيئا ولست بحاجة الى الترويج عنى . انى اطلب اليك أن تعمل من اجل سلامتك ولمصلحتك انت . اما الان فافضل شيء نفعله هو أن ننام . »

قال هذا وأشاح بوجهه عنى مكرسا كل انتباهه الى احدى الجوارى التى راح يضاجعها على مسافة لا تزيد عن بضعة خطوات منى . فادرت وجهى بعيدا وأنا أسمع أنات وضحكات تلك المرأة ، غير انى سرعان مارحت فى سبات عميق .

(١) هذه صياغة معدلة شائعة بين الشماليين وهى بصيغتها الكاملة على الشكل التالى : « لا تمتدحن النهار حتى ياتى المساء ، ولا المرأة حتى تحرق ، ولا السيف حتى يجرب ولا الصبيبة العذراء حتى تتزوج . ولا الجليد حتى يتبدد ، ولا تمتدحن شرايا حتى يشرب » . هذه النظرة الحكيمه الواقعية والساخرة الى حد ما الى الطبيعة البشرية وإلى العالم انما هى امر يشاطر العرب الاسكندنافيين الايمان به . فالاسكندنافيين تماما غالبا ما يعبر العرب عن هذا بالفاظ ساذجة او ساخرة . وهناك قصة صولية عن رجل سأل حكيمًا : « لفترض اننى كنت مسافرا فى الريف وكان على أن اتوضأ فى نهر . قال أى جهة على أن اولى وجهى وأنا اتوضأ ؟ » ويجيب الحكيم قائلا « اتجه باتجاه ثيابك حتى لا تسرق » .

كهوف الرعد

قبل أن تضىء أولى خيوط الفجر السماء ، كان بيولف ورجاله وأنا بينهم ننطلق على ظهور الجياد تاركين مملكة روثغار شاقين طريقنا على حافة الجرف المطل على البحر . لم اكن اشعر بأنى على مايرام فى ذلك اليوم فقد كان راسى يؤلمنى ، كما كانت معدتى تؤلمنى من آثار احتفالات الليلة السابقة . ومن المؤكد أن كل محاربى بيولف الاخرين كانوا فى حالة مشابهة ، ومع ذلك لم يبد أى من هؤلاء الرجال أى علامة من علامات الضيق . عدت خيولنا بقوة وهى تلفت على اطراف الجروف التى كانت على طول ذلك الساحل عالية مخيفة وسحيقة ، والتى كانت تتهاوى على شكل صفيحة من الحجر الأغبر باتجاه البحر المزدب الهائج تحتها . وفى بعض المناطق على هذا الشريط الساحلى كنت ترى بعض الشيطان الصخرية ، الا أن الارض الخضراء والبحر غالبا ماكانا يلتقيان مباشرة والامواج تتحطم كالرعد على الصخور . هكذا كان الوضع فى معظم اجزاء الساحل .

رايت هرغر وهو يحمل فوق حصانه جبال جلد الفقمة التى اخذناها من الاقزام فأسرعت خطى جوادى لالحق به . سألته من هدفنا فى ذلك اليوم ، ولو انى فى الحقيقة لم اكن مهتما كثيرا بهذا الهدف فقد كان راسى يؤلمنى ومعدتى تحترق احتراقا اليما .

قال هرغر « فى هذا الصباح سنهاجم ام الوندول فى كهوف الرعد . وسنقوم بهذا الهجوم من البحر كما قلت لك بالامس » .

وبينما كنت راكبا نظرت من فوق جوادى الى البحر فى الاسفل الذى كانت امواجه تتحطم فوق الجروف الصخرية ، وسألت « هل سنهاجم بواسطة السفن ؟ » اجاب هرغر وهو يضرب بيده على جبال جلد الفقمة « كلا » . عندها أدركت قصده فى اننا سيكون علينا أن نتدلى من فوق الجروف بواسطة الجبال ثم بطريقة ما او بأخرى سندخل تلك الكهوف . كان خوفى لا يوصف لمجرد هذا التصور فلم

أكن أحب أبدا أن أكون معرضا للسقوط من الأماكن العالية . حتى
البنابات العالية في مدينة السلام كنت أتحاشاها . عندما عبرت عن
أحاسيسى هذا لهرغر قال لى « اعترف بالجميل فانك محظوظ » .
سألت عن مصدر حظى فأجاب هرغر قائلا « إن كنت تخاف الأماكن
العالية فانك اليوم ستتغلب على هذا الخوف وهكذا ستكون قد
تغلبت على تحد عظيم وستعد بين الأبطال » . فقلت له « أنا لا أريد
أن أكون بطلا » . وما أن سمع هذا حتى ضحك وقال اننى انما أعبّر
عن مثل هذه الآراء لأننى عربى وحسب . ثم أضاف اننى متحجر
الرأس وهو تعبير كان الشماليون يعنون به حالة مابعد الشرب أو
السكر . وكان ذلك صحيحا كما سبق وبيئت .

وكان صحيحا أيضا اننى كنت شديد الحزن والقلق لأجرد التفكير
بأن على هبوط الجرف بتلك الطريقة ، وفى الحقيقة كان شعورى
كما يلى : كنت على استعداد أن أضاجع امرأة فى الحوض ، بل كنت
على استعداد أن أشرب من كأس ذهبية أو أكل روث خنزير ، وأن
أقتلع عينى حتى وأن أموت أو أن أفعل كل هذه الأشياء مجتمعة
على أن أهدر من على ذلك الجرف الملون . وإضافة لذلك كنت أعانى
من مزاج متعكر . قلت لهرغر « قد تكون أنت وبيولف وكل جماعتكم
أبطالا كما قد يروق لمزاجكم ولكن لا علاقة لى أنا بكل هذا الأمر ولا
أريد أن أكون واحدا منكم » . ضحك هرغر لكلماتى ثم نادى بيولف
وحده بسرعة . أجابه بيولف وهو ينظر من فوق كتفه وكأنما
يقمز بى . وهنا قال لى هرغر : « بيولف يقول إن عليك أن تفعل كما
نفعل . » وفى الحقيقة أحسست الآن بأننى أغرق فى حالة يأس فقلت
لهرغر ، « أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك . وإن أنتم أجبرتمونى على أن
أفعله فساموت حتما . » سال هرغر « كيف ستموت ؟ » أجبت
« اننى سأفعل قبضتى عن الجبال . » هذا الجواب جعل هرغر
يضحك من أعماقه مرة أخرى وراح يعيد كلماتى على مسمع من جميع
الشماليين فضحكوا جميعا لما قلت . بعد ذلك تحدث بيولف بكلمات
قليلة . قال لى هرغر « إن بيولف يقول أنك ستحل قبضتك إذا
أرخيت الجبال من يديك ، ولن يفعل ذلك إلا أحمق مجنون . وبيولف
يقول أنك عربى . ولكنك لست مجنونا . » وهاكم وصفا حقيقيا لطبيعة

الرجال : قال بيولف اننى كنت أستطيع الهبوط على الحبل ، وانه نتيجة كلامه صرت اعتقد به وأصدقته قدر ما يصدق هو وشعرت بالسعادة تدخل قلبى ولو بقدر قليل . وقد لاحظ هرغر ذلك فقال : « كل انسان يحمل فى طياته نوعا من الخوف خاصا به ومقصورا عليه . وهكذا تجد رجلا يخاف الاماكن المقلقة وآخر يخاف الفرق ، بينما كل منهما يضحك على الآخر ويدعوه غيبا . وهكذا فان الخوف ليس الا مجرد هواية مفضلة يجب ان تعتبر من نوع تفضيل امرأة على أخرى أو لحم الضان على لحم الخنزير أو الملقوف على البصل وما الى ذلك . نحن نقول الخوف هو الخوف »

لم اكن فى مزاج يسمح لى بتأمل فلسفاته ، وقد أخبرته بذلك وفى الحقيقة صرت احس باننى اكثر قربا الى الغضب منى الى الخوف . ومرة أخرى ضحك هرغر فى وجهى وقال هذه الكلمات : « الحمد لله الذى وضع الموت فى نهاية الحياة وليس فى بدايتها » .

قلت مجيبا باقتضاب اننى لم اكن ارى فائدة فى استعجال النهاية ، فأجاب هرغر قائلا « فى الواقع لا أحد يرى ذلك » ، ثم اضاف « انظر الى بيولف . لاحظ كيف يجلس منتصباً وكيف يهزم حصانه متقدماً مع انه يعرف بما لا يقبل الشك بأنه سيموت عما قريب . » أجبت « أنا لا أعلم انه سيموت . » ويجيب هرغر قائلا « نعم ولكن بيولف ان يعرف ذلك » ثم امتنع هرغر عن اضافة أى شيء آخر وانطلقنا على ظهر خيولنا لبعض الوقت حتى استقرت الشمس ساطعة مشرقة فى كبد السماء . وأخيراً أعطى بيولف اشارته آمراً بالتوقف فترجل كل الرجال وبدءوا بالاستعداد لدخول كهوف الرعد .

كنت أعلم حق العلم أن هؤلاء الشماليين كانوا شجعاناً الى حد التهور ، ولكننى حينما نظرت الى انحدار الجرف تحتتنا شعرت بقلب يلتوى وينقلب رأساً على عقب داخل صدرى ، وظننت لوهلة اننى سافرغ معدتى فى أية لحظة . وفى الحقيقة كان الجرف سحيقاً بلا حدود ليس فيه أى مقبض ليد أو قدم ، وكان ينحدر لمسافة ربما تصل الى اربعمائة خطوة . وفى الحقيقة كانت الامواج المتلاطمة بعيدة سحيقة تحتنا الى درجة بدت معها وكأنها صور أمواج مصفرة ، دقيقة رقيقة كأنهم رسوم فنان . ومع ذلك كنت أدرك انها كبيرة

كبر كل الامواج على الارض وأن الانسان سيدرك ذلك حالما يهبط الى مستواها في الاسفل .

كان الانحدار على هذه الجروف بالنسبة لى جنونا مابعده جنون من كلب مزيد . ولكن الشماليين كانوا مازالوا يندفعون قدما بطريقة طبيعية تماما . وأمر بيولف بفرز عصي خشبية قوية في الارض ، وحول هذه الاوتاد ربطت حبال جلد الفقمة بينما راحت النهايات الحرة تتطاير على جانب الجروف .

وفي الحقيقة لم تكن الحبال طويلة بما فيه الكفاية لمثل هذه المسافة ، فكان لابد من استعادتها ثانية ووصل جبلين الواحد بالآخر لصنع جبل واحد كاف للوصول الى الامواج عند السفح .

وفي الوقت المحدد كان لدينا حبلان طويلان كانا يتدليان على جانب الجرف . تحدث بيولف للجمع فقال : « سأهبط أنا أولا ، وحينما أصل الى القاع ستعلمون جميعا أن الحبال قوية وأن الرحلة يمكن انجازها . ساكون بانتظاركم عند نهاية الحبل وعلى الحافة الضيقة التي ترونها في الاسفل » .

ونظرت بدوري الى الحافة الضيقة . أن تسميها ضيقة يعنى أن تسمى الجبل لطيفا . كانت في الواقع اضيق شريط من الصخر المسطح لتطمها امواج البحر وتفسلها باستمرار . ثم استمر بيولف قائلا « عندما تكون جميعا قد وصلنا القاع سيكون بإمكاننا أن نهاجم أم الوندول في كهوف الرعد . » قال هذا بصوت ذات نبرة طبيعية كتلك التي يأمر بها عبدا بأن يهبط له أى حذاء منزلى أو أى عمل عادى . ودونما اضافة راح يهبط جانب الجرف .

والان اليكم وصفا لطريقة الهبوط والتي وجدتها رائعة مثيرة للاعجاب رغم أن الشماليين لم يكونوا يجدون فيها أمرا عجبا . فقد قال لى هرغر بأنهم يستعملون هذا الأسلوب لجمع بيوض طيور البحر في فترات معينة من السنة ، حين تبني طيور البحر أعشاشها على سطح الجرف . ويتم الامر بالطريقة التالية : توضع أنشودة حول وسط الرجل الهابط بينما يجتهد كل زملائه لاتزاله من على الجرف في هذه الاثناء يقوم هذا الرجل من أجل تدعيم وضعه بالتمسك بحبل لان يتدلى على سطح الجرف . وبعد ذلك يحمل الرجل

الهابط عصا قوية من خشب البلوط مثبتة من احدى نهايتها بسير جلدى حول وسطه ، يستعملها كعصا ليدفع نفسه هنا وهناك بينما يهبط السطح الصخري (١) .

الفصل الثامن والعشرون

بينما كان بيولف يهبط ويتضاءل حجمه في عيني لاحظت انه كان يتاور بالانشوطة والجبل والعصا بمهارة فائقة ، ولكنى لم اخدع نفسى ابدا بالاعتقاد بان هذه كانت قضية تافهة ، فلقد رايت وادركت انها كانت عملية صعبة وتتطلب مرانا طويلا . وبعد طول عناء وصل بيولف السفح سالما ووقف على الحافة الضيقة بينما الموج يتلاطم ويتحطم فوقه . وفى الحقيقة كان قد بلغ من الضالة والصفر بحيث صار من الصعوبة بمكان بالنسبة لينا ان نراه يلوح بيده وهى الاشارة التى كانت تعنى انه وصل بسلام . والان استعيدت الانشوطة ومعها العصا البلوطية . ثم التفت الى هرغر قائلا « الان جاء دورك » قلت اننى اشعر بالوهن واننى اتمنى ان ارى شخصا آخر يهبط قبلى لكى اجيد دراسة طريقة الهبوط . اجاب هرغر « ان الامر يصبح اكثر صعوبة مع كل هبوط لان عدد الذين يبقون هنا فى الاعلى يصبح اقل كلما هبط رجل الى الاسفل . والرجل الاخير عليه ان يهبط بدون العقدة بالمرة ، وسيكون ذلك الرجل اكثرى لان ساعديه كالحديد واننا نمبر عن مجئنا لك بالسماح لك بان تكون الرجل الثانى فى الهبوط . هيا واهبط الان » .

ولقد رايت فى عيني انه لم يكن هناك امل فى التأخير ، وهكذا ادخل وسطى فى العقدة وقبضت على العصا القليظة بيدي اللتين كانتا لزوجتين بسبب العرق ، كما كان كل جسمى ايضا لزجا زلقا بسبب العرق ، وكنت ارتجف فى مهب الريح حين انزلت على جانب الجرف ورايت لآخر مرة الرجال الشماليين الخمسة وهم يجهدون فى شد الجبل ثم غابوا عن ناظرى وبلمات اهبط .

(١) فى جزر الفارد فى الدانمرك مازالوا يمارسون اسلوبا شبيها فى تسليق الجروف لجمع بيوض الطيور ، هذه البيوض التى تشكل مصدر غذاء اساسى لاهال تلك الجزر .

كنت قد قررت بينى وبين نفسى أن ابتهل الى الله بصلوات كثيرة
وأن أسجل أيضا في عين فكرى وفي ذاكرة روحى ، تلك المغامرات
والتجارب العديدة التى يمر بها الإنسان وهو يتدلى من حبال فوق
هذا الجرف الصخرى الذى تمزقه الرياح . ولكن ما ان غبت عن ناظر
الاصدقاء الشماليين فوقى حتى نسيت كل نياتى وهمست « حمدا
لله » وأعدتها مرات ومرات كشخص فقد عقله أو كمن توقف عقله
عن العمل أو كطفل أو مجنون .

وفي الحقيقة لم أعد أتذكر الآن الا القليل مما جرى . فلا زلت أذكر
أن الريح تقذف بالإنسان جيئة وذهابا عبر الصخرة بسرعة لاستطيع
معهما العين أن تثبت النظر على السطح الذى كان رماديا مزينا للنظر،
وانتى كثيرا ما كنت اصطدم بالصخر فاهشم عظامى وأجرح جلدى .
وقد ارتطم راسى مرة فخيّل الى انتى أرى بقعا بيضاء ناصعة كأنها
النجوم أمام عيني ، وظننت لوهلة انتى سافقد الوعى الا أن ذلك لم
يحصل . وفي الوقت المحدد والذى بدا لى فى الواقع أنه كان يعادل
طيلة حياتى بل وأكثر وصلت السفح وامسك بيولف بى من كفتى
وقال انى هبطت هبوطا جيدا .

وعادت العقدة فارتفعت ثانية بينما كانت الامواج تتحطم فوقى
وفوق بيولف بجانبى . وكنت أحاول جاهدا أن احتفظ بتوازنى على
هذه الحافة الزلقة ، وقد شغل هذا ذهنى وانتباهى الى حد لم أراقب
فيه الآخرين وهم يهبطون الجرف . فقد كانت رغبتى الوحيدة
هى فى أن أمنع الامواج من أن تقذف بى فى البحر . وفي الحقيقة
رايت بعيني أن الامواج كانت أعلى من ثلاثة رجال يقف الواحد منهم
فوق الآخر ، وحين كانت تلطم الموجة الصخر كنت احس للحظة
بفقدان الوعى وكأنى فى دوامة من الماء البارد وقوته تقذف بى بحلقة
دائرية . وكثيرا ما قدفتنى هذه الامواج واخلت توازنى وكنت أنفخ
بالماء من كل جوانب جسدى وأرتجف الى حد كانت أسنانى معه
تصطك كما تفعل الخيول الغادية . ولم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة
بسبب أسنانى المصطكة .

هبط جميع محاربى بيولف بسلام ، وكان اكشفو آخر من هبط
بقوة عضلات مساعديه وحسب . وعندما لامست قدماء حافة الجرف

تخرا كانت ساقاه ترتجفان دون ان يستطيع التحكم بهما كما
منتفض الانسان الذى يصارع نزع الموت . وكان علينا ان ننتظر بعض
الوقت حتى تمالك نفسه ثانية .

بعد ذلك تحدث بيولف : « سننزل فى الماء ثم نسبح حتى الكهف .
وسأكون اول السابحين . احملاوا خناجركم بين أسنانكم ، بحيث
تكون ذراعا كل منكم طليقة فى مصارعة التيارات والامواج » .

نزلت على كلمات الجنون الجديد هذه كالصاعقة فى وقت لم اعد
استطيع فيه تحمل اى جهد آخر . فقد بدت خطة بيولف لعينى
حماقة مابعدا حماقة . ولقد رايت الامواج تتحطم وتتفجر فوق
الصخور المتداخلة ، كما رايت الامواج تنسحب بقوة مارء جبار
لكى تستعيد قوتها ثانية وتعود الى اللطم من جديد . وفى الحقيقة
اعتقدت وأنا اراقب كل هذه انه ما من انسان يستطيع ان يسبح
فى تلك المياه وانه لا بد وان يتناثر الى شظايا عظام فى رمشة عين .

ولكنى لم احتج ولم اغضب فقد تجاوزت حدود كل خوف .
اعتقد اننى كنت قريبا بما فيه الكفاية من الموت الى حد لم يعد يهمنى
معه ان انا اقتربت أكثر فأكثر . وهكذا أخذت خنجرى الذى وضعته
فى جزامى لان أسناني كانت ماتزال تصطك ببعضها عاجزة عن ان
تمسك بالخنجر فى فمى . أما عن الشماليين الاخرين فلم تبد عليهم
اية آثار للبرد أو للتعب ، بل كانوا يحيون كل موجة وكأنها منشع
جديد . وكما كانوا يتسمون بسعادة انتظار المعركة القادمة ، وق
كرهتهم لهذا الشعور الاخير .

كان بيولف يراقب حركة الامواج ليختار الفرصة المناسبة ، ثم
قذف بنفسه فى الموج المتلاطم . ابطأت ثم دفعنى احدهم الذى كنت
دائما اعتقد انه هرغر . فسقطت فى البحر الهائج الدوار ذى الب
المخدر . وفى الحقيقة شعرت برأسى يدور وينقلب رأسا على عقب
واموج الى هذا الجانب أو ذاك ، ولم اكن أستطيع رؤية اى شئ سور
المياه الخضراء . ثم رايت بيولف وهو يرفس الامواج فى اعمسا
البحر فتبعته بينما راح يسبح فيما يشبه الممر بين الصخور . و
نصرفت فى كل شئ كما كان يفعل وذلك على النحو التالى :

فى لحظة ما كان تلاطم الامواج يندفع خلفه يحاول ان يقتلعه ويد

به الى المحيط الهائل وكذلك الامر معى . وفى تلك اللحظات كان نمرلف يتمسك بالصخور بيديه ليقاوم التيار ، وكذلك فعلت . تمسكت بالصخور بقوة بينهما رثنائى تكادان تتفجران . وبلحظة أخرى كانت الامواج المتلاطمة تقفز بالاتجاه الاخر فادفع بسرعة هائلة نحو الامام ، واقفز فوق الصخور والعقبات . ومرة أخرى كانت الامواج تغير اتجاهها وتنحسر الى الخلف كما فعلت فى السابق فاضطر لان احدى حذو بيولف واتعلق بالصخور . وفى الحقيقة كانت رثنائى تحترقان كما لو أن نارا مشتعلة كانت تلتهب فيهما ، وكنت أعرف فى أعماق أعماقى اننى لم اكن أستطيع الاستمرار فترة اطول فى هذا البحر الجليدى . ثم هادت الامواج الهادرة تندفع الى الامام فخذفنتى فى ذلك الاتجاه وأنا الطم هنا وأضرب هناك . وفجأة وجدت نفسى واقفا اتنفس الهواء . وفى الحقيقة حدث هذا كله بسرعة شعرت معها بدهشة لم أفكر معها بالشعور بالارتياح والذي كان هو الشعور المتعلق فى تلك اللحظة ، كما لم يخطر على بالى ان أحمد الله لحظى الجيد فى البقاء حيا . رحت استنشق الهواء بلهفة بينما رفع كل محاربى بيولف حولى رءوسهم فوق سطح الماء وراحوا يستنشقون الهواء مثلى .

والآن اليكم ما رايت : كنا فيما يشبه البركة او البحيرة داخل كهف له قبة صخرية ناعمة ومدخل من ناحية البحر كنا قد اخترقناه لتونا . وأمامنا مباشرة كان هناك فراغ صخرى مسطح . وقد رأيت ثلاثة او اربعة اشكال سمراء تجلس القرفصاء حول نار مشتعلة ، وكانت هذه المخلوقات ترتل بأصوات عالية . وفهمت الان سبب تسمية هذا الكهف بكهف الرعد لانه مع كل تحطم للامواج المتلاطمة كان الصوت يتجاوب داخل الكهف بقوة كانت تؤلم الاذان ، حتى ان الهواء نفسه بدا وكأنه يهتز ويضغط بقوة :

فى هذا الكهف ، قام بيولف ومحاربوه بهجومهم وقد انضمت انا اليهم . وبخناجرنا القصيرة قتلنا اربعة شياطين فى الكهف . وقد تمكنت من رؤيتهم بوضوح ولاول مرة على ضوء النار المتأججة التى كانت السنة لهيبها تتراقص وتقفز بجنون مع كل لظمة من لظمات الامواج المرعدة . اما منظر هذه الشياطين فكان كالتالى : كانوا يبدون كالشجر فى كل مجال ولكن فى نفس الوقت لم يكونوا كاي انسان على

سطح الأرض . كانوا مخلوقات قصيرة ، عراض الاكتاف يجلسون القرقصاء ، وكان الشعر كثيفا على كل جزء من أجزاء جسدكم باستثناء راحة اليد وكعب القدم والوجه . كانت وجوهكم كبيرة جدا لها فم وكان كبيران بارزان وكانت ملامحهم قبيحة . كما أن رؤوسهم كانت أكبر من رؤوس البشر العاديين ، أما عيونهم فكانت غائرة بعمق في رؤوسهم ، وحواجبهم كثة ضخمة ليس بسبب الحواجب المليئة بالشعر ولكن بسبب العظام البارزة . وكانت أسنانهم أيضا كبيرة حادة مع أنه صحيح أيضا أن أسنان الكثيرين منهم كان مبرية مهترئة ومنبسطة .

الفصل التاسع والعشرون

وفي مجالات أخرى من معالم أجسامهم ، وفيما يتعلق بالأعضاء التناسلية والفتحات العديدة فإن الوندول يشبهون البشر أيضا في هذا المجال . كان أحد هذه المخلوقات يموت ببطء وكان يحاول أن يرسم بعض الأصوات بلسانه بدت لازني وكأنها نوع من أنواع الكلام ، ولكنني لم أستطع أن أتأكد من هذا وأنا أعيد قص الحادثة دون التزام بهذا الموضوع .

التي بيولف نظرة فاحصة على هذه المخلوقات الأربع الميتة ، بفرائهم السميك ، ثم سمعنا ترتيلا رهيبا تتردد أصداؤه وكان صوت يرتفع ثم ينخفض على ترانيم رعد تلاطم الأمواج ، وكان الصوت ينبعث من أعماق الكهف الحالكة . عندما قادنا بيولف الى تلك الأعماق .

وهناك وقمنا على ثلاثة مخلوقات أخرى كانوا منبطحين على الأرض ووجوههم متجهة الى الأرض وأيديهم مرفوعة تضرعا باتجاه مخلوق عجوز مختبئ في الظلال . هذه التضرعات كانت تشبه التراتيل وكان المتضرعون غارقين بتراتيلهم الى حد لم يلاحظوا معه وصولنا . لكن المخلوق العجوز رآنا وصرخ صرخة مرعبة حين اقتربنا منه . وقد أخذت ذلك المخلوق على أنه أم الوندول ولكنها ان كانت أنثى لم أرى اثرا لذلك لأنها كانت على درجة من الهرم أصبحت معها لا جنس لها . انقض بيولف وحيدا على المتضرعين وقتلهم جميعا بينما المخلوقة الأم راحت تتراجع في الظلام وتصرخ صراخا مرعبا . لم أستطع

رؤيتها بوضوح ولكن ما صارويه الان حقيقى رأيتة بعينى : كانت محاطة بالاغصى التى التفت حول قدميها على يديها وحول عنقها . وكانت هذه الاغصى تفج وتلمق بالسنتها . ولان هذه الاغصى كانت فى كل مكان حولها وعلى جسدها وعلى الارض أيضا فلم يجرؤ أى محاربى بيولف على الاقتراب منها .

ثم هاجمها بيولف فاطلقت صرخة خوف وهيبة عندما غرز خنجره عميقا فى صدرها دون ان يعير الاغصى أى انتباه . طعن ام الوندول عدة طعنات بخنجره ولكنها لم تنهار ولم تسقط بل بقيت واقفة رغم الدم الذى كان ينسكب منها كما لو كان يتدفق من ينبوع ، ومن الجراح العديدة التى اوقعها بها بيولف . وبقيت طيلة تلك الفترة تصرخ بصوت يثير أشد الرعب .

وأخيرا تنهارت وسقطت ميتة فاستدار بيولف ليووجه محاربيه . عندها رأينا ان هذه المرأة ، ام اكلة الموتى ، قد جرحته . كان دبوس فضى شبيه بدبابيس الشعر قد دفن فى أمعائه . وكان هذا الدبوس يهتز عند كل نبضة قلب . انتزعته بيولف من مكانه انتزاعا فانسكبت ورائه دفقة من الدم ، لكنه لم يركع على ركبتيه رغم جرحه القاتل ، بل بدلا من ذلك وقف واعطى أوامره بمفادرة الكهف .

نفذنا الامر منطلقين من الباب الثانى المفتوح على الياسة . هذا المدخل كان محروسا لكن كل الحرس الوندول كانوا قد فروا عند سماعهم صرخات أمهم المحتضرة . غادرنا المكان دون أى انزعاج حيث قادنا بيولف خارج الكهف ومن هناك عدنا الى خيولنا . وعند ذلك فقط انهار بيولف وسقط على الارض .

امر اكشفو بوجه حزين غير مالوف أبدا بين الشماليين يطغى عليه امر بصناعة مايشبه النقالة حملنا بيولف عليها عبر الحقول الى مملكة روث غار . وطيلة ذلك الوقت كان بيولف مرحا حيورا ومنطلقا . لم افهم الكثير مما قال ، ولكن سمعته مرة يقول : « لن يكون روث غار سعيد لرؤيتنا ، اذ عليه ان يقيم وليمة أخرى وقد أصبح الان مضيقا مستنزفا الى ابعد الحدود » . ضحك المقاتلون لهذا كما ضحكوا لكلمات أخرى أطلقها بيولف ، وقد لاحظت ان ضحكهم كان آمينا مخلصا .

وصلنا الى مملكة روث غار حيث استقبلنا بالهتافات والسعادة الغامرة ولم يكن هناك اى اثر للحزن ، رغم ان بيولف كان جريحا يعانى الموت وقد تحول لحمه الى اللون الرمادى وراح جسده يهتز بينما كان يضىء عينيه شعاع من روح مريضة مرتعشة بالحمى . هذه علامات كنت أعرفها جيدا ، وكان يعرفها أيضا أهل الشمال .

أحضر لبيولف وعاء من حساء البصل ، ولكنه رفضه قائلا ، « أنا مصاب بعرض الحساء ، فلا تزعجوا انفسكم من أجلى » . ثم طلب اقامة احتفال وأصر على ان يترأسه هو شخصيا ، جلس خلاله منتصبا على مقعد حجرى الى جانب الملك روث غار وشرب شراب الميد وفرح ومرح كثيرا . كنت بجسائه حين قال للملك روث غار فى وسط الاحتفالات ، « ليس لى عبيد » . اجاب روث غار « كل عبيدى هم عبيدك » . فقال بيولف « ليس عندى خيول » . ويجبى روث غار ثانية « كل خيولى هى خيولك . لا تشغل بالك بهذه الامور » . وكان بيولف وقد ضمدت جراحه سعيدا وراح يتسم وقد عاد اللون الى خديه ذلك المساء ، وكان يبدو وكأنه يزداد قوة مع مرور كل لحظة من ذلك المساء . ومع انى لم اكن لاصدق بان هذا ممكن ، فقد راح يضاجع فتاة جارية ، قال لى بعدها مازحا « الرجل الميت ليس ذا فائدة لاي انسان » .

ثم غاب بيولف فى سبات عميق ، بينما ازداد لونه شحوبا وتنفسه بطئا . وكنت أخشى الا يستيقظ من نومه هذا . ربما فكر هو أيضا بنفس الطريقة ، لانه حين نام امسك بسيفه وقبض عليه بشدة بيده .

الفصل الثلاثون

الوندول ونزع العون الاخير

رحت أنا أيضا فى سبات عميق . لكن هرغر أيقظنى بهذه الكلمات : « عليك ان تاتى بسرعة » . وبعدها سمعت صوت رعد بعيد . نظرت

الى النافذة الجلدية(١) فادركت أن الفجر لم يبرغ بعد . لكنى استللت سيفى رغم أنى فى الواقع كنت قد غفوت وأنا مرتد درعى دون أن أهتم بخلعه . ثم أسرعت الخطى خارجا ، حيث كانت الساعة قبيل الفجر والهواء ضبابيا ثقيلًا يملؤه هدير حوافر بعيدة .

قال مرغر « انهم الوندول يأتون إلينا . انهم على علم بجراح بيولف القتالة ، وهم يطلبون الثأر الاخير لمقتل أمهم » .

اتخذ كل من محاربى بيولف ، وأنا بينهم ، مكانا على امتداد التحصينات التى كنا قد اقمناها لمقاومة الوندول . وقد كانت دفاعات ضعيفة جدا ، ولكن لم يكن هناك بديل عنها . رحنا نحقق فى الضباب محاولين استشفاف رؤية الخيالة العادين على خيولهم باتجاهنا . ولقد كنت أتوقع خوفا عظيما وهلعا ، الا أنى لم اشعر بشئ من هذا ، اذ كنت قد رايت ملامح الوندول ، وكنت اعرف انهم مخلوقات ككل المخلوقات ، وان لم يكونوا بشرا كما القردة أيضا تشبه البشر . ولكنى كنت اعرف انهم قانون وانهم يموتون .

ولهذا لم يكن لدى أى خوف ما عدا توقع هذه المعركة الاخيرة . وكنت فى هذه الحال وحيدا ، لانى وجدت أن محاربى بيولف بدأ يعتر بهم ويظهر عليهم الخوف الشديد رغم محاولاتهم الجاهدة لاختفاء هذا الخوف . وفى الحقيقة بما أننا كنا قد قتلنا أم الوندول التى كانت قائدهم أيضا فانا فقدنا بيولف أيضا الذى كان قائدا ، ولم يكن هناك أى مظهر من مظاهر الفرح بينما كنا ننتظر ونصنى الى تقدم الرعد واقترابه منا .

ثم سمعت حركة ورائى وحين التفت رايت ما يلى : كان بيولف وقد شحب لونه حتى أصبح كلون الضباب نفسه وقد تلفع بالبياض حول جراحه ، كان واقفا منتصبا على أرض مملكة روث غار وعلى كتفيه كان يجلس غرابان أسودان واحد على كل كتف . ما أن رأى

(١) التعبير الحرفى هو نافذة التخزين ، فقد كان الشماليون يستعملون الجلود المبطونة بدلا من الزجاج ليغطوا نوافذهم الضيقة . هذه الاغشية أو الجلود كانت شفافة لكن لم يكن بإمكان المرء أن يرى الكثير من خلالها ، الا ان الغشاء كان يخترقها الى داخل البيوت .

الشماليون هذا المنظر حتى صرخوا ذعرا من قدومه ثم رفعوا أسلحتهم في الهواء وصاحوا صيحة الحرب (١) .

لم ينطق بيولف بكلمة واحدة كما لم يلتفت الى اية جهة ابدا ولم تصدر عنه اية اشارة توحى بأنه كان يميز آيا منا ، ولكنه صار بخطوات متزنة الى الامام مجتازا خط التحصينات ، وهناك راح ينتظر هجوم الوندول . وفجأة طار الغرابان فقبض على سيفه وندنغ واستعد لمواجهة الهجوم .

ما من كلمات تستطيع ان تصف الهجوم النهائي للوندول في ذلك الفجر الضبابي . وما من كلمات ستكون قادرة على وصف حجم الدماء التي أهرقت ولا الصيحات التي ملأت الجو الثقيل ولا الخيول ولا الفرسان الذين ماتوا في هذه الملحمة المخيفة . وبأم عيني رايت اكثفوا بلدراعيه الفولاذيتين : رأته والله وقد قطع رأسه دفعة واحدة سيف من سيوف الوندول فسقط الرأس على الأرض وراح ينط ويقفز كدمية طفل بينما اللسان كان لا يزال يتحرك في فمه . ولقد رأيت ويث أيضا يتلقى رمحا في صدره الصقة بالأرض وسمره هناك حيث راح بتلوى كسمكة أخرجت لتوها من البحر . ورأيت فتاة طفلة داستها حوافر الخيول فتحطم جسدها وسوى بالأرض بينما كان الدم يتصبب من أذنها . ولقد رأيت امرأة كانت أحدي جوارى الملك روث غار : كان جسدها قد شطر شطرين بينما كانت تركض هاربة من أحد الخيالة : كما رأيت أطفالا آخرين كثيرين قتلوا بنفس

(١) هذا المقطع من المخطوطة تم تجسيمه من مخطوطة الرازي الذي كان اعتنا به الاول ينصب على التقنية العسكرية . وسواء عرف ابن فضلان أم لم يعرف أو سجل أم لم يسجل فإن مغزى ظهور بيولف ثانية غير معروف ومن المؤكد أن الرازي لم يصفها من عنده رغم أن المغزى واضح بما فيه الكفاية . ففي الاساطير الشمالية يظهر أودن عادة وهو يحمل غرابا على كل كتف من كتفيه . هذان الطيران يأتيانه بكل أخبار العالم . وأودن هذا كان الإله الرئيسي في هبكل الآلهة الشمالية وكان يعتبر الأب الكسوى . وكان يحكم خاصة في أمور الحرب ، كما كان يعتقد أنه من وقت لآخر يظهر بين الناس ولكن نادرا : يشكله الإلهي لانه كان يفضل أن يتخذ مظهر المسافر العادي البسيط . ولقد قيل أن العدو كان يفزع ويفر من مجرد حضوره .

ومن المفيد أن نعرف أن هناك قصة تروى عن أودن انه يقتل ثم يبعث بعد تسعة أيام . ويعتقد معظم المطلعين أن هذه الفكرة سابقة لى تأثير مسيحي . وعلى كل - فان أودن المبعوث حيا يبقى ثانيا وكان يعتقد أنه لا يهد وأن يموت أخيرا في يوم - الايام .

الطريقة . ولقد رايت خيولا تتراجع ثم تهوى ليهوى عنها فرسانها
فيهوى عليهم بدورهم الرجال والنساء ويلبحونهم ذبح النعاج وهم
ما زالوا مستقلقين على ظهورهم مذهولين . ورايت وغلف ، ابن روث
غار يهرب من وسط المعركة ويختبئ طالبا امان الجبان . اما المنادى
فلم أره ذلك اليوم .

ولقد قتلت أنا بنفسها ثلاثة من الوندول ، كما أصبت برمح فى
كتفى الذى كان اله يشبه ألم الوقوع فى النار . فقد كان دمي يغلى
على طول ذراعى وحتى داخل صدرى . وكنت اظن اننى سأنهار ولكنى
استمرت فى القتال .

بدأت الان الشمس تترأى شيئا فشيئا من خلال الضباب وسرعان
ما بسط الفجر نوره علينا وبدأ الضباب بالانسحاب كما اختفى
الخيالة ايضا . وفى ضوء النهار الساطع رايت الجثث ماثورة فى كل
مكان بما فيها الكثير الكثير من جثث الوندول لانهم لم يجمعوا
موتاهم هذه المرة . وكانت هذه شارة نهايتهم الابدية ، فقد أصبحوا
فى فوضى واضطراب عظيمين ولن يستطيعوا أن يهاجموا روث غار
ثانية وأدرك كل سكان المملكة مغزى ذلك وفرحوا لذلك فرحا
عظيما .

فسل هرغر لى جراحي وكان مرحا مسرورا حتى ادخل جسد
بيولف الى قاعة روث غار الكبرى . كان بيولف قد مات فوق موته
الاول ميتات كثيرة : فقد كانت جثته محفورة بسيف عشرة خصوم
على الاقل ، وكان وجهه وجسده غارقين فى دمه الذى كان ما زال
دافئا . ما أن رأى هرغر هذا المنظر حتى تفجرت الدموع فى عينيه
وراح يحاول اخفاء وجهه عني ولكنه لم يكن بحاجة الى ذلك فقد
أجست بدموعى أنا الآخر تنثر الضباب فى عيني .

مدد جسد بيولف امام الملك روث غار الذى كان من واجبه الان
أن يلقى خطابا . لكن الملك المعجوز لم يكن قادرا أن يفعل شيئا كهذا
ولكنه ردد هذه الكلمات فحسب : « هذا محارب وبطل أهل لان يكون
الها . ادفنوه كما يدفن عظماء الملوك » . ثم غادر القاعة . واعتقد أن
كان يشعر بالخجل والعار لانه لم يشترك شخصيا بالمعركة ، كما أن
ابنه وغلف . حرب كجبان رعديد وقد رآه الكثيرون يفعل ذلك
بسموه تصم . وقد يكون هذا مما زاد عار الأب وخجله ،

أو قد يكون هناك سبب آخر لم أدركه . وفى الحقيقة كان رجلا فى غاية الهرم .

وحدث الآن أن همس وغلف بصوت خفيض قائلا للمنادى : « لقد قدم لنا بيولف هذا خدمة عظيمة ، وما يزيد عظمة هو موته فى نهاية هذه الخدمة . قال هذا بعد أن غادر أبوه الملك القاعة » .

سمع هرغر هذه الكلمات كما سمعتها أنا أيضا ، وكنت أول من استل سيفه . فخاطبني هرغر قائلا « لا تنازل هذا الرجل فهو ثعلب مكار ، وأنت مجروح » . قلت له « ومن يهتم بالجراح ؟ » واندفعت متحديا وغلف الابن وفى القسامة نفسها . استل وغلف سيفه فى اللحظة التى لطمنى بها هرغر لكمة قوية من الخلف جاءتنى على غفلة فسقطت وأنا الف وأدور ثم التجم هرغر فى معركة رهيبة مع وغلف . واستل المنادى سيفه أيضا وتحرك خلسة بهدف الوقوف خلف هرغر وطعنه فى الخلف . هذا المنادى تقتله بنفسى بقرز سيفى عميقا فى بطنه ، فصرخ المنادى صرخة خرجت معها روحه . سمع وغلف صيحته ، ورغم أنه كان يقاتل بشراسة من قبل فإنه أبدى الآن الكثير من الخوف فى صراعه مع هرغر .

وحدث الآن أن الملك روث غار سمع قعقة السيوف فعاد ثانية الى القاعة الكبرى ورجا إيقاف القتال ولكن عبثا ، فقد كان هرغر مصرا عنيدا فى مطلبه . ولقد رأيت يقف منتصبا بجانب جسد بيولف ثم يطلق سيفه صوب وغلف فيطعنه ويسقط وغلف على طاولة روث غار ثم يتناول كأس الملك ويسحبها صوب شفثيه . لكن الحقيقة هى أنه مات دون أن يشرب . وهكذا انتهت القضية .

أما رفاق بيولف والذين كان عددهم ثلاثة عشر ، فلم يبق منهم الا أربعة وأنا منهم . وضعنا جثة بيولف تحت سقف خشبى وتركنا جسده مع كأس من شراب الميذ فى يديه ثم خاطب هرغر الناس التجمعين قائلا : « من سيموت مع هذا الرجل العظيم ؟ » عندها تقدمت امرأة كانت جارية من جوارى الملك روث غار وقالت انها ستوت مع بيولف ، فبدأت اقامة الاستعدادات المعتادة عند أهل الشمال لعملية الدفن (هنا رغم أن ابن فضلان لا يحدد مرور فترة

زمنية معينة للأبد أن تكون قد مضت بضعة أيام قبل حفل الدفن
(الرسى) .

جهزت سفينة على الشاطئ تحت قاعة روث غار وأقيمت فيها
كنوز الذهب والفضة كما أقيمت فيها جثتا حصانين أيضا . وبنيت
فيها خيمة وضع فيها بيولف الذى كان الموت قد حجر جسده الآن .
كان جسده قد اتخذ لون الموت الاسود فى ذلك المناخ البارد . ثم
أخذت الجارية الى كل من مقاتلى بيولف ثم جيء بها الى مضاجعتها .
وهى تقول لى « ان سيدى يشكرك » وكانت تعابير وجهها وتصرفاتها
فى أروع حالات المرح والسرور وبحال أكثر تعبيراً من حالات السرور
المعتادة والتي يبدونها الشماليون فى مثل هذه الظروف . وبينما كانت
ترتدى ثيابها ثانية ، تلك الثياب التى كانت تحتوى العديد من قطع
الذهب والفضة قلت لها بأنها كانت ممتعة غاية الامتاع مسرورة غاية
السرور .

وقد كان رأيى بها أنها كانت صبية جميلة فاتنة فتية غضة ومع
ذلك كانت ستموت بعد قليل ، وهو ما كانت تعرفه كما أعرفه أنا .
قالت لى : « اننى مسرورة فرحة لاننى سألتقى بسيدى عما قريب » .
ولكنها لم تكن قد شربت شيئاً من شراب الميد أبداً ، وكانت تحكى
عواطفها بصديق . كانت ملامح وجهها تشع مشرقة كلامح طفل سعيد
أو كلامح بعض النساء حين يحضن طفلاً . هكذا كانت طبيعة
الاشياء .

قلت لها : « أخبرى سيدك عندما تلتقين به بأننى عشت وسأعيش
لاكتب » . لا أدري أن كانت قد فهمت هذه الكلمات . قلت لها
مضيفاً « لقد كانت تلك رغبة سيدك » .

« اذن سأخبره بهذا » . وبهذه الجملة تركتنى بفيض من السرور
وانتقلت الى محارب آخر من محاربى بيولف . لا أدري أن كانت
قد فهمت مغزى وقصدى لان الشكل الوحيد من الكتابة الذى يعرفه
هؤلاء الشماليون هو الحفر على الخشب أو على الحجر ، والذي
لا يفعلونه الا نادراً . ثم ان حديثى بلسان اهل الشمال لم يكن
واضحاً . لكنها رغم ذلك كانت مريحة سعيدة واستمرت كذلك .

فى المساء وبينما كانت الشمس تفرق نفسها فى مياه البحر ، كانت

سفينة بيولف قد أصبحت جاهزة على الشاطئ فأخذت الصبية
النفثة الى داخل السفينة . وهناك قامت الحيزبون المعجوز المسماة
بملك الموت بوضع الخنجر بين اضلاعها بينما قمت انا وهرغر بشد
الحبل الذى خنتها واطفاً أنفاسها ، ثم اجلسناها بجانب بيولف
وغادرنا السفينة .

لم اتناول طعاماً او شراباً طيلة اليوم ، لانى كنت اعلم اننى
سأشارك فى هذه الامور ، ولم أكن أرغب فى معاناة حرج افراغ
معدتى فى هذه الظروف . ولكن القريب اننى لم اشعر بأى مقت
او غضاضة فى أى من افعال ذلك اليوم ، كما لم يغم على ولم اشعر
بدوار فى راسى وأحسست بالفخر بينى وبين نفسى . والحقيقة ان
تلك الصبية العذبة اتسمت لحظة موتها وبقيت تلك الابتسامة
متحجرة على وجهها بعد خنتها بحيث جلست بجانب سيدها والبسمة
عالقة على وجهها الشاحب أما وجه بيولف فكان أسود وعيناه مغمضتين
لكن تعابيره كانت هادئة وديمة . هكذا كانت آخر رؤية لى لهذين
الشمالين .

واضربت النار فى سفينة بيولف ثم دفعت الى عرض البحر ، بينما
وقف الشماليون على الشاطئ الصخري ورنعوا ابتهالات كثيرة الى
آلهتهم . وبأم عيني رأيت السفينة تحملها التيارات كطوافة تحترق
ثم غابت عن أبصارنا وهبط ظلام الليل مرة أخرى على ارض
الشمال .

الفصل الحادى والثلاثون

العودة من بلاد الشمال

قضيت بضعة أسابيع أخرى برفقة محاربى ونبلاء روث غار .
كان ذلك وقتاً ممتعاً ، لان الجميع كانوا ودودين كرماء ، وقد اهتموا
عناية عظيمة بجراحى التى شفيت تماماً والحمد لله . ولكنى أصبحت
اشعر بالرغبة فى العودة الى بلادى . ولقد أعلمت الملك روث غار باننى

كنت مندوب خليفة بغداد وأنه يجب على أن أتم مهمتي التي أرسلني لانجزها والا استحققت غضبه .

لكن هذا لم يكن ليثير اهتمام روث غار الذي قال انني محارب نبيل وأنه كان يرغب في أن أبقى في مملكته لاحيا حياة محارب مكرم . وقال انني كنت صديقه الابدى وانني استطيع أن احصل على أى شيء أرغبه ويستطيع هو أن يقدمه لى . الا أنه كان مترددا في السماح لى بمفادرة مملكته واخترع كل أنواع الاعداد واسباب التأخير التي قد تخطر على بال . فى البدء قال روث غار أنه على أن أعتنى بجراحى مع أنه كان واضحا أن هذه الجراح قد شفيت تماما . ثم عاد وقال أنه يجب على أن أستعيد قوتي مع أنه كان واضحا أن قوتي قد عادت الى . وأخيرا قال أنه يجب على أن انتظر اعداد سفينة ، وهو امر لم يكن سهلا . وحين سألت عن الوقت الذى يستغرقه اعداد سفينة كهذه اعطانى الملك جوابا غامضا ، كما لو أن هذا الامر لم يكن بهمه كثيرا . وفى اللحظات التي كنت فيها الح بالمطالبة فى الرحيل كان يغضب ويتسائل عما اذا كنت غير مكثف او راض عن كرمه . وجوابا على ذلك كنت مضطرا ان امتدح سماحته وكرمه واردد كل تعابير الرضى والقناعة . وسرعان ما ادركت بأن الملك المعجوز كان أقل حماقة مما كنت أظن من قبل .

عدت الى هرغر لاحدثه عن مأساتى ، وقلت له : « ان هذا الملك ليس بالاحق الذى كنت أظن » . قال هرغر مجيبا « انت مخطيء لانه فى الواقع احمق مجنون ولا يتصرف تصرف العاقلين » ثم اضاف بأنه سيرتب أمر رحيلى مع الملك .

وكان الاسلوب الذى اتبعه كالتالى . طلب هرغر مقابلة الملك فى خلوة ثم قال له أنه ملك عظيم حكيم كان شعبه يحبه ويحترمه وما ذلك الا للطريقة التى كان يعتنى بها بقضايا مملكته وشعبه . ويبدو أن هذه اللحظة بالذات قال له هرغر أنه من بين ابناء الملك الخمسة لم يبق الا واحد منهم ، وكان ذلك وولف غار الذى كان قد ذهب ليقوم بدور الرسول عند بيولف ، وبقي بعيدا . ثم اضاف هرغر بأنه لابد من استدعاء وولف غار للعودة الى الوطن وأنه يجب اعداد جماعة

تقوم بهذه المهمة ، لانه لم يعد هناك من وريث آخر للمملكة سوى وولف غار .

حدث الملك بكل هذه الامور ، واعتقد بأنه قال شيئا كهذا وعلى انفراد للملكة وليو التى كان لها تأثير كبير على زوجها الملك .

ثم حدث فى احدى الولايم المسائية ان دعا الملك روث غار الى تجهيز سفينة وبحارتها لتذهب فى رحلة لاعادة وولف غار الى المملكة . طلبت ان انضم الى طاقم البحارة ، وهو ما لم يستطع الملك المعجوز ان يرفضه . وقد استغرق اعداد السفينة بضعة ايام ، قضيت معظمها برفقة هرغر الذى اختار الان ان يبقى فى المملكة .

فى احد تلك الايام وقفنا معا على الجرف ننظر من عل الى السفينة الراسية على الشاطئ وقد تم اعدادها للرحلة وزودت بكل المؤن الضرورية . قال لى هرغر : « انت على وشك الانطلاق فى رحلة طويلة . وسنصلى جميعا من اجل وصولك بالسلامة » .

وعندما سألته لمن سيصلى من اجلى اجاب قائلا « سنصلى لاله اودن وفريه وثور وورد والعديد من آلهتنا الاخرين الذين قد يكون لهم اثر فى سلامة رحلتك » . كانت هذه طبعاً اسماء آلهة الشماليين .

اجبت قائلا : « انى اؤمن باله واحد هو الله الرحمن الرحيم » . قال هرغر « انى اعلم هذا ربما كان اله واحد فى بلادكم كافيا ، ولكن ليس هنا . فهنا : آلهة كثيرة وكل له أهميته ، وسنصلى لهم جميعا من اجلك ومن اجل سلامتك » . عندما شكرته لان صلاة الكافرين جيدة قدر ما هى مخلصه صادقة ، وما شككت لحظة فى اخلاص هرغر .

كان هرغر يعلم منذ وقت طويل اننى كنت على عقيدة مختلفة من عقيدته ولكن ما ان اقترب وقت رحيلى حتى راح يسأل مرارا وتكرارا عن معتقداتى ثم ، وفى لحظات مفاجئة يحاول ان يضبطنى متلبسا ليتعلم الحقيقة . وكنت أنظر الى أسئلته العديدة على انها شكل من أشكال الامتحان كما امتحن بيولف مرة معرفتى بالكتابة . ولكنى كنت دائما اجيبه بنفس الطريقة مما كان يزيد فى حيرته .

وفي أحد الأيام قال لى غير محاول الادعاء بأنه لم يسألنى سابقا :
« وما هى طبيعة الهك الله ؟ » .

قلت له « الله هو الواحد الاحد الذى يحكم كل الاشياء ويرى كل
الاشياء ويعلم كل الاشياء ويتصرف بكل الاشياء » . كانت هذه كلمات
أعدتها على مسامعه مرات ومرات فى الماضى .

وبعد وقت قصير سألنى هرغر « الا تغضب الهك الله هذا أبدا ؟ »
قلت « طبعا الى أغضبه ولكنه غفور رحيم » وسأل هرغر « أهو
غفور رحيم عندما يرى ذلك ؟ » أجبت بأن هذا الواقع فراح هرغر
يتأمل أجابتنى بأعنان . وأخيرا قال لى وهو يهز رأسه ياسا : « ان
المخاطرة كبيرة جدا . . فالإنسان لا يستطيع ان يحل كل ثقته وإيمانه
فى شيء واحد ، سواء اكان ذلك الشيء امرأة او حصانا او سلاحا او
اى شيء مفرد . » قلت له « ومع ذلك فانا اضع كل ثقتى فى هذا
الواحد الاحد » . أجاب هرغر قائلا « ماتراه هو الافضل ، ولكن هناك
الكثير الكثير مما لا يدركه الإنسان . وان ما لابعلمه الإنسان هو عالم
الالهة . »

من هذا أدركت أنه لايمكن اقناعه باعتناق معتقداتى ولا انا باعتناق
معتقداته ، وهكذا افترقنا . وفى الحقيقة كانت ساعة فراق حزين
جدا وكان قلبى يتفطر لما لاننى كنت ابتعد عن هرغر وعن بقيصة
المحاربين . وقد شعر هرغر بنفس الشيء . أمسكت به من كتفيه
وأمسك هو من كتفى ثم انطلقت الى السفينة السوداء التى حملتنى
الى بلاد الوائز . وبينما كانت هذه السفينة بطاقمها القوى تنساب
مبتعدة عن شواطئ فندان وقع بصرى على أعلى السطوح المتوهجة
المتألقة لقاعة هاروت الكبرى وعندما التفت الى الجانب الاخر وقع
بصرى على المحيط المديد أمامنا . والان حدث ان .

(وهنا تنتهى المخطوطة فجأة عند هذه النقطة ، والتى هى نهاية
صفحة مخطوطية باليد تنهيا الكلمات الموجزة التالية
Munc. Flt
ومع انه واضح ان للمخطوطة تنمة فانه لم تكتشف اى مقاطع اخرى .
هذه بالطبع هى الحادثة التاريخية بكل صفائها الا ان كل مترجم قد

علق على هذه المنطقية الشاذة لهذه النهاية المفاجئة ، والتي تشير احتمال
بداية مغامرة جديدة ، أو منظر جديد قريب قد نكرم علينا معرفته
لاكثر الاسباب مرضية معرفتها السنوات الالف الماضية .

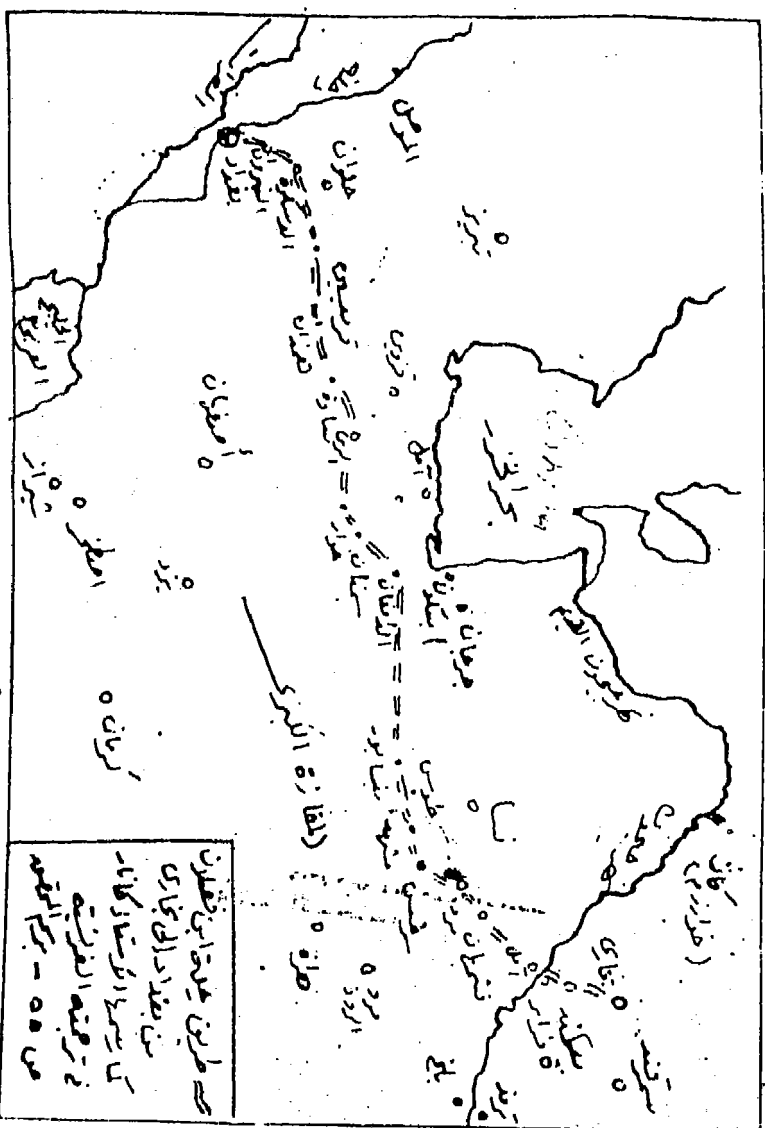
تمت

رقم الايداع : ١٧٣٧٨ / ١٩٩٩

I. S. B. N

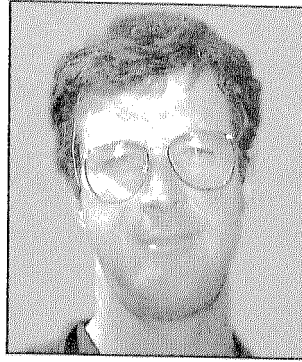
٩٧٧-(١٧-٠)٦٩١-٤


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية



در طرفین خط تقسیم
 بین مملکت ایران و تجاری
 که در سمت ایران و کمان
 نه در سمت افغانستان
 می ۵۵ - برآمد

خط تقسیم



هذه الرواية نشرناها عام ١٩٨٥ ونفدت فى أسابيع قليلة
واليوم في نهاية عام ١٩٩٩، هي حديث الناس في كل أنحاء
العالم، بعد أن ، تحولت إلى فيلم عالمي باسم «المحارب رقم ١٣» ،
إخراج جون ماكترنيات ، وبطولة انطونيو بانديراس وعمر الشريف ،
وأجمعت كل الاقلام أن الغرب بدأ يغير من صورته عن العربي، فهو
هنا رحالة مغامر عاشق للعلم، والمعرفة، مؤمن بالله، ولماح وشديد
الذكاء .

مؤلف هذه الرواية هو مايكل كرايتون واحد من أغلى الأدباء
المعاصرين، وهو الذى قام بإنتاج الفيلم بنفسه، وهو صاحب
مشهورة منها «حديقة الديناصورات»، و «عالم الغرب» كما أنا
من أكثر خبراء الكمبيوتر مهارة.

إنها رواية عن العرب القدامى، برؤية معاصرة، تناسب أمة

. ٢٠٠٠

الثلث

